

حتى لا تذب قيماننا

محمد بن أحمد الرشيد

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرشيد، محمد أحمد

حتى لا تذبل قيمنا. / محمد أحمد الرشيد - ط٢. - الرياض، ١٤٣٥هـ

٣٠٤ ص؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٣-٦٧٣-٣

١- الثقافة العامة. - أ- العنوان

ديوي ٠٣١ رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٣٩٣

حقوق الطباعة محفوظة للناسر

الطبعة الثالثة

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الناشر **العبيكان** للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر **العبيكان** على أبل

<http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store>

امتياز التوزيع شركة مكتبة **العبيكان**

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرَسْتُ الْمَحَبَّاتِ

الموضوع	الصفحة
تقديم الطبعة الثالثة.....	٩
تقديم الطبعة الثالثة.....	١١
الإسلام مصدر للقيم كلها.....	١٥
النقد الذاتي، والتفكير الإيجابي.....	٢٠
الوسطية والاعتدال.....	٢٧
لا.. لا للتحلل والتسبب.....	٣٣
التكافل الاجتماعي.....	٣٩
دفاع الإنسان عن أخيه.....	٤٦
أدب الحوار.....	٥٢
مبدأ المقنع الكندي.....	٥٩
أمانة الكلمة.....	٦٦
الإخلاص.....	٧٦
وهكذا.. ترأسهم الصادق الأمين.....	٨٣
حُسْنُ الظن.....	٩٠
العدل.....	٩٧
التواضع.. لا التكبر سمة المؤمنين.....	١٠٤
الحياء.....	١٠٩
الكرم سمة الكرام.....	١١٦
أطفالنا والقيم الدينية.....	١٢١
أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً.....	١٢٧

١٣٢.....	عود الجمع ورأب الصدع
١٣٨.....	الوفاء، والعرفان
١٤٤.....	إن لم تكن صادقاً معي فلست صديقي..
١٤٩.....	يا قوم.. هذا هو الوقت.. فاغتنموه.
١٥٤.....	النظافة والنظام
١٥٩.....	المُرُوَّة
١٦٥.....	الرَّحْمَة
١٧٢.....	مَنْ حُماة الفضيلة؟ وما مسؤولياتهم؟
١٨١.....	يا حسرتاه.. هل ضاع الصدق؟!
١٨٦.....	الحب الكبير الطاهر.. هل أنت من أهله؟!
١٩١.....	كرامة الإنسان.. هل هناك اليوم ألزم من الدعوة إلى حفظها؟....
١٩٦.....	فلنكافح النفاق؛ لأنه من صور الفساد
٢٠١.....	صناعة الإنسان أهم من صياغة الكلام
٢٠٦.....	وهكذا.. تتحقق سيادة أهل القيم
٢١٠.....	الجود المخلص، والعطاء الكريم
٢١٦.....	الحق معهم، وما أحرى أن نتأسى بهم.
٢٢٠.....	الحرية
٢٢٤.....	العفو والتسامح
٢٢٨.....	المسلم الحق لا يعاني أزمة شك
٢٣٢.....	الإيثار
٢٣٦.....	حق الجار والجوار
٢٤٠.....	﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ﴾
٢٤٤.....	فلنجعل الصبر ديدننا

٢٤٩.....	التعاون
٢٥٣.....	التفاؤل ثقة بالله فلا للتشاؤم
٢٥٧.....	إصلاح ذات البين
٢٦١.....	البشاشة
٢٦٥.....	السلام عليكم
٢٦٩.....	تقدير الكبير سناً وقَدراً
٢٧٣.....	ما أعظم حق الوالدين!
٢٧٧.....	وللبنوة حقوقها
٢٨١.....	أبناءؤنا أكبادنا تمشى على الأرض
٢٨٤.....	صلة الرحم
٢٨٨.....	المال مال الله
٢٩٢.....	العمل قرين الإيمان
٢٩٦.....	وأخيراً.. سمو قيمنا فوق كل ما جاءت به القوانين
٣٠١.....	الخاتمة



تقديم الطبعة الثالثة

كنت في حديث مع صديق عربي لي خارج الوطن، وحدثني عن مشروع له يتمثل في إصدار كتاب له يتضمن سيرته الذاتية، والمبادئ والقيم التي عاش عليها، ويحيا على منهاجها، وقد أبدى رغبته في أن أزوده بنسخة من كتابي (حتي لا تذبل قيمنا) الذي سمع أحاديث عنه، ولم يسعد بقراءته، فوعده بتحقيق رغبته فور عودتي إلى الوطن، ولكني فوجئت بنفاد كل النسخ من الطبعتين السابقتين، سواء عندي أو في المكتبات كلها، ما كان حافزاً لي قوياً على إصدار هذه الطبعة الثالثة.

وفي مراجعتي لهذا الإصدار وجدت أن هناك قيماً أخرى لم أتحدث عنها والحمد لله أن قيمنا في ديننا وحياتنا كثيرة لا حد لها. فأضفت ما استطعت الكتابة عنه من هذه القيم في هذه الطبعة الثالثة، وهناك كثير، فليس بإمكان كتاب كهذا استيفاء كل القيم.

إن إضافة قيم أخرى لما سبق في الطبعتين السابقتين يضيء على سعادة مصدرها أن هناك والحمد لله من يهتمون بالقيم والمثل العليا في قرائنا وبين أهلينا، وعسى أن أحقق بما تحدثت عنه من قيم عليا في ديننا وحياتنا المزيد من معرفة للقيم العليا والتمسك بها بين كثير من الناس هنا وهناك.

إن انتشار التمسك بالقيم والعمل بها دليل على رقي الحياة الإنسانية والاجتماعية في كل حدود حياتنا من تعاملنا مع صغارنا، حتى أعلى المستويات في كل صور التعامل مع الجميع حولنا.

هذا، وهناك قيم عليا أخرى أسأل الله تعالى أن يوفقني للحديث عنها في طبعة لاحقة، ذلك أن هناك الكثير والجميل من القيم التي يزخر بها منهاج ديننا القويم لو تمسكنا بها جميعاً فهماً وعملاً، وتطبيقاً عملياً في تعاملاتنا لحققنا المثالية المرغوبة بيننا.

محمد بن أحمد الرشيد

١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م



تقديم الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب العزيز عليّ الذي أضفت إليه تسع عشرة قيمة من قيمنا العظيمة بعد نفاذ الطبعة الثانية التي تطرقت فيها للحديث عن أكثر من ثلاثين قيمة من قيمنا العظيمة وما أكثرها إذ إنني كلما أمعنت النظر في قيمنا وجدت فيها الجديد والجميل المثالي، فأضفت هذه التسع عشرة قيمة في هذه الطبعة الثالثة.

وأشعر بكثير من الأسى أن كثيراً من قيمنا قد أهمل من بعض المتهاونين في التحلي بهذه القيم التي لو تمسكنا بها جميعاً، وجاء سلوكنا على نهجها لكنا الأمة المثالية حقاً، ولما أصابنا هذا الوجع المتعدد الألوان الذي تعانيه الأمة الإسلامية اليوم.

كان هذا عنوان إصدار سابق منذ سنوات عدة، ولأن القيم اليوم تحتاج إلى دعم أكثر وتمسك أقوى ما دعاني إلى التوسع في الحديث عن القيم أكثر مما كان عليه الأمر في الإصدار الثاني إدراكاً مني أن القيم السامية لا حدود لها في حياتنا، ولا استغناء عنها في تعاملاتنا، وهي ما يميز ديننا الإسلامي وهو مصدر لكل القيم التي تُسعد حياتنا.

إنه في خضم التيارات المتلاطمة، والأحداث المتلاحقة، والأعاصير العاصفة التي يمرّ بها كوكبنا الأرضي، والتي لا يمكن أن تنفصل أو تنعزل عنها بلادنا ومجتمعاتنا يرى المتأمل لأحوال

الناس أن كثيراً من الأصول والمبادئ، والثوابت الدينية، والأخلاقية، والفكرية يغشاها اليوم الغبش، فلا يُبصرها الناس كما ينبغي أن يبصروها، فتغيب وتنسى، وفي هذا من الخطر الداهم على الفرد والجماعة، وعلى الصُّعد كافة ما يُقلق بال العقلاء، ويقض مضاجع الحكماء، خشية وخوفاً.

وقد رأيت بعض هذه المبادئ قد غابت عن بعض الأذهان، فكتبت صفحات بعنوان: (هكذا تعلمت الإسلام) نُشرت في أكثر من مطبوعة، ثم أحسست بالحاجة إلى إضافة أفكار أخرى إليها، وهذه الصفحات تضم هذه وتلك جميعاً.

معلوم أننا جميعاً ولِدنا والحمد لله في بيئة مسلمة، من آباء وأمّهات مسلمين ولم يكن الإيمان في نفوسنا قابعاً في زوايا باردة أو مظلمة، بل كان دافئاً مواراً بالحياة، ثم كانت بيئتنا التعليمية غنيّة بالمواد الدينية التي أصَلت مشاعرنا على أسس علمية وحقائق إيمانية، فزدنا بفضل الله إيماناً يوماً بعد يوم، وهذه والله نعم لا يمكن أن يؤدّي حقّها حمد ولا ثناء.

ويعود ذلك الخير إلى أننا تعلّمنا ونحن يافعون أن مصدرنا الأول في التلقي هو كتاب الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تليه السُّنة المطهرة الصحيحة، التي أفنى في خدمتها جهابذة العلماء، على مرّ القرون أعمارهم لينقّوها لنا ويوثّقوها، وتعلّمنا أننا نأخذ أفهام أئمتنا الأعلام للكتاب والسُّنة باحترام لائق، لكن لا يصل إلى درجة التقديس لأيّ منهم.

ونحاول في الوقت نفسه أن نفهم الدليل؛ حتى نكون مقتدين ومتبعين على بصيرة فلا نضع فهم النص في مرتبة موازية للنص، ولا نتعصب لقول إمام من الأئمة الأعلام، ولكن نحترمهم جميعاً.

وهاأنذا.. أقدمها للقارئ الكريم في هذا الإصدار الجديد؛ إبراءً للذمة، وقياماً بواجب البيان الذي يمليه عليّ معتقدي وخلقِي مردداً مع نبي الله شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الْأَصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].. والحمد لله أولاً وآخراً.

محمد بن أحمد الرشيد

ربيع الأول ١٤٣٣هـ - فبراير ٢٠١٢م



الإسلام مصدر للقيم كلها

في المناسبات الدينية كلها، كشهر رمضان، وأيام الحج، وعيد الأضحى المبارك نعيش نحن المسلمين قدر الجهد متمسكين بالقيم الإسلامية النبيلة التي أوجبها الله علينا، وجاء رسوله الحبيب محمد ﷺ قدوة حسنة في الالتزام بها.

وكل هذه القيم تلتقي في رحاب الإسلام الذي لا دين عند الله سواه، وكم هو حري بالمسلمين أن يستمروا على التمسك بهذه القيم والفضائل طوال أيامهم وسائر أحوالهم وليس في المناسبات الدينية وحدها. ولأن الدين عند الله الإسلام.

لذا، فإن الإسلام هو منهج الحياة الأسمى، وهو الصراط المستقيم إلى الله خالق كل شيء، وهو دعوة التوحيد التي لا حياد عنها. وإذا كانت لنا قيم عظيمة نتمسك بها، فليست هناك قيمة أعظم ولا ألزم لنا من التمسك بتعاليم الإسلام في كل شؤون حياتنا. بل إن قيمنا كلها تتبع في أصولها من الإسلام، وكل ما عند العرب من قيم كريمة حتى قبل الإسلام فإن الإسلام قد أقرها، وتبنى ما هو عظيم منها.

يقول رسولنا ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

هذه الأخلاق، وهذه القيم تتمثل في البشاشة، وحب الآخرين، وحسن الظن بهم ومشاركاتهم في السراء والضراء.

ليت هؤلاء المقطبين في وجوه الناس، والذين لا يحسنون الظن بالآخرين يدركون أن هذا ليس من قيم الإسلام.

الإسلام يتسم بالقدرة على استيعاب الحياة بكل جوانبها، والحل لجميع مشكلاتها الحالية والمتجددة؛ لأنه منهج البشرية جمعاء، أرسى مصدره الإلهي في قواعده وأصوله من سعة الآفاق، وكلية الإحاطة، ما جعله عالمياً، قادراً على الحياة والعطاء والإبداع. وإذا كان تصور الفكر المادي للإنسان والحياة تصوراً ضيقاً يتجاهل المعاني الروحية، ويجعل هذه الحياة هي البداية، وهي النهاية، وهي الغاية وبذلك تبقى الغرائز في الإنسان مشدودة إلى حيوانيتها، بدلاً من السمو بها إلى آفاقها الإنسانية، فإن التصور الشامل للحياة يربط المادة بالروح، ويربط الحياة الدنيا الزائلة بحياة خالدة هي الغاية، وبذلك يرتبط الإنسان بالله، فتسمو غرائزه، ويعود إلى الصورة المثالية التي أرادها الله له، ويستقيم في كل عمل يعمل.

هكذا تكون كل تصوراتنا للإنسان والكون والحياة منبثقة من التصور الإسلامي الشامل، وأن نهج في حياتنا العملية سلوكاً مستقيماً يؤكد هويتنا الإسلامية، انطلاقاً من الثقة المطلقة بشمولية المنهج الإسلامي، الذي نظم عملياً علاقة الفرد بنفسه وعلاقته بخالقه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقاته السياسية، والاقتصادية والثقافية.

وانطلاقاً من إيماننا بشمول المنهج الإسلامي نرى أن أهم المرتكزات التي تقوم عليها الحياة العملية هي العودة إلى منابع

الصافية للعقيدة، كتاب الله وسنة رسوله ومقاومة البدع الفاسدة، والأباطيل الدخيلة على الدين، ومقاومة نزعات الذين يحاولون عبر إعلامهم إضعاف الوعي الديني الصحيح لدى الناس، أو إدخالهم في متاهات التأويلات التي لا تخلو من سوء المقصد وزيف الحقيقة. ذلك لأن الإسلام دين شامل لشتى المعاملات، جامع لكل العلاقات الشخصية، والاجتماعية، والعالمية متمثلة في:

- علاقة الإنسان بالله: وتتمثل في الإيمان الصادق الذي يربطه بالقيم الأخلاقية، وفي إقامة العبادات، والشعائر، واحترامها لقيم الاتصال الدائم المتجدد بالله، وهو اتصال يتم مباشرة دون واسطة بشرية، كما هو الحال في بعض المعتقدات (زعماء باطلاً).
- وفي مجال علاقة الإنسان بمجتمعه الذي يعيش فيه، فإن سمو العلاقات في مراقبة واعية تروض الغرائز الذاتية، وتقيدها بالقيم الأخلاقية التي ندعو ألا تذبل أبداً تلك القيم التي تشكل معايير استقامة البنية الاجتماعية والتي تدعو أن تكون مصلحة المجتمع فوق مصلحة الفرد: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وتدعو إلى المساواة والتعاون: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

ومن أعظم قيمنا الإسلامية أيضاً سمو العلاقات بالكون والأشياء، ذلك السمو الذي يتمثل في التفكير الذي يحرر العقل من الأوهام، والخرافات، والانغلاق، ويطلقه مفكراً في ملكوت الله، ذلك لأن التفكير، وطلب العلم، والمعرفة، والإتقان، والإبداع أمور تُعد في الإسلام فريضة ترقى إلى مستوى العبادة.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ومن القيم السامية في الإسلام قيمة علاقة الإنسان بالمال، المال الذي هو عصب الحياة، وهو الشهوة الكبرى التي تحرك حياة الناس، وهو سر الصراع العالمي اليوم.

وسمو قيمة المال يتمثل في أساس أكده الإسلام، وهو أن المال مال الله، وأن الإنسان مؤتمن عليه، ومستخلف فيه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. إذ لا يجوز احتكار المال أو كنزه، وحبسه عن تحقيق النفع والخير العام: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧]. لكن مع وجوب الاستقامة في التصرف في المال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن أبرز قيمنا الإسلامية الاهتمام بالأسرة؛ إذ يبدأ الإسلام برعاية الأسرة باعتبارها نواة المجتمع، وإعداد المرأة إعداداً يمكنها من القيام برسالتها العظيمة في البيت بوصفها أمّاً فاضلة، ويمكنها من مشاركة الرجل في التعليم، والعمل، وبناء الحياة في المجالات التي تتفق وأنوثتها، والتي تستطيع أن تبذل فيها: «النساء شقائق الرجال».

واهتمام الإسلام بالتربية والتعليم وفقاً لمنهج يسائر التقدم العلمي، وإعداد الشباب إعداداً روحياً، وبدنياً، وعلمياً، وأخلاقياً يمكنهم من تحمل المسؤولية بجدارة. ويهتم بالثقافة والإعلام؛

لتعيش كل أجهزة الدولة وكل فئات المجتمع واعية متمكنة متطورة مع الحياة.

فتتأزر كل مؤسسات التعليم مع وسائل الإعلام في إيجاد جيل نابض بالحياة مدرك للمسؤولية، واعٍ بمهامه تجاه دينه ووطنه، مدرك أنه ينتمي لخير أمة أخرجت للناس يملك الطموح لأن يكون إسهام وطنه في الرقي الإنساني والتطور العلمي مادياً ومعنوياً إسهاماً يليق بخيرية هذه الأمة، وقدسية هذا الوطن الذي يعتز به.

هذه لمحات من قيم ديننا الإسلامي، منهجنا العملي الدائم الذي لا بديل عنه.

وكل هذه القيم، وما يتصل بها هو مجموع الأسس والدعائم التي ندعو الله أن يمدنا بالثبات عليها، والتمسك بها، وحمايتها من عواصف العصر المدمرة، وأن يزيد تعهدنا لنموها؛ حتى لا تذبل قيمنا هذه أبداً.



النقد الذاتي، والتفكير الإيجابي

نعلم أن النقد هو بيان أوجه القوة والضعف في مكونات أي شيء أو أي عمل، ولا نصل إلى الحكم إلا بعد الفحص، والدراسة، ومعرفة النتائج؛ لذا فإن الموضوعية توجب على الإنسان الوقوف مع نفسه، وتدبر أعماله، والتأمل في سلوكياته وعلاقاته ليعرف مدى نجاحه أو إخفاقه، وبعد ذلك يعمل على تعزيز نقاط القوة فيما هو مُقَدِّم عليه من أوجه نشاطه وعمله، والتخلص من نقاط الضعف إن وجدت.

ومعلوم أنه لا تصفو نفوس بني آدم لتكون خيراً محضاً، إلا نفوس الأنبياء ﷺ، ثم يأتي بعدهم الصديقون، أما مَنْ عَدَاهُمْ فلا يتزهون عن الخطأ والهوى، ونحن البشر فينا خير قد يقل أو يكثر، والحكمة تقتضي الاستفادة من أي جانب إيجابي خيّر؛ مهما صغر عند أي شخص مراده خدمة دينه، ووطنه، ومجتمعه، حتى إن كانت لديه جوانب أخرى من التقصير أو القصور بمعنى أن نركز على كل إيجابية مهما كانت صغيرة.

ومعلوم كذلك أن: «كل بني آدم خطاء» كما جاء في الحديث الشريف، فقد يظهر للمرء خطؤه، وقد يخفى عليه؛ لذا فمن الضروري أن يراجع الفرد، والجماعة، أنفسهم وسلوكهم، وتصرفاتهم، وأعمالهم لتمييز الخطأ من الصواب، وتصحيح الطريق لنسير على معطيات المراجعة والفحص: «كلكم خطاؤون وخير الخطائين التوابون».

لهذا، فلا نتوقع من بني البشر مثالية مطلقة في السلوك والأخلاق، وفي أمثالنا العربية المأثورة: «لكل إنسان هفوة ولكل جواد كبوة» ففي الوقت الذي نتلمس فيه الصواب لا نغالي في التوقعات بأن أحداً مهما كانت حكمته لا يخطئ.. ألم يقل عمر بن الخطاب ذات مرة: «أصاب امرأة وأخطأ عمر».

إن الحكيم لا ينتظر النصيحة حتى تأتي إليه، بل يطلبها، وهذا يشبه وقوفه أمام المرأة يتفقد مظهره، ويصلحه تبعاً لما يراه، وهو لا ينتظر المرأة حتى تأتي إليه، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «المؤمن مرآة أخيه».

إن المجتمعات التي تؤصل النقد الذاتي تفلح؛ لأنها لا تكرر الأخطاء التي تقع فيها، سواءً على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة، وهذه إحدى فوائد دراسة التاريخ دراسة متأنية للتعلّم منه، واستلهام العبر من أحداثه، وما أعظمها من فائدة عبّر عنها الشاعر الحكيم بقوله:

وَمَنْ وَعَى التَّارِيخَ فِي صَدْرِهِ أَضَافَ أَعْمَاراً إِلَى عَمْرِهِ

ولقد وجدت من التأمل في الناس، وفي الحياة، وفي تجارب الحاضرين والغابرين أن التفكير السلبي لا يأتي بخير، وأعني بالتفكير السلبي: إنفاق الوقت في التفكير بالجوانب السلبية، والحزن عليها، والتشاؤم بسببها، ما يدعو إلى القعود والتواني. أما التفكير الإيجابي فهو الذي يدعو إلى التفاؤل، والتبشير، وإذا صادف صاحبه خطأ أو عقبة واجهها وفي قلبه الاعتماد على الله، والثقة بأن لكل مشكلة حلاً، ولهذا فيني بقدر ما أركز على (النقد

الذاتي) أصرَّ على ألا يتحول إلى (جَلَدٌ للذات)، وأعني به: المبالغة في الشعور بالذنب، ومعاقبة النفس، وإهانتها، وتهوين شأنها، حتى تقتنع بأنه ليس بإمكانها أن تتسلم زمام التغيير.

روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

إن تاريخنا الإسلامي حافل بالصور المشرقة المشرفة للنقد الذاتي، وإنه لا يضيق به من يخلص في طلب الصواب، وها هو النموذج الخالد في طلب النقد الذاتي جاء في خطبة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تولى الخلافة أعلن في أول خطبة له رغبته في معرفة كل شيء عن أعماله، قال: «إني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فقوموني أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».. حق لك أيها الخليفة يا صاحب رسول الله وصاحب هذه المقولة النبراس مع أنك لو وُضِعَ إيمان الأمة في كفة وإيمانك في كفة لرجحت كفتك كما قال عنك الحبيب المصطفى ﷺ نعم، حُقَّ لك أن تكون المثال الحي للنقد الذاتي الحر.

وفي قوله ﷺ: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم» معيار عملي للنقد الذاتي الحقيقي؛ فهو نقد للأعمال.. للسلوكيات لا نقد للمظهر، والملبس، والشخصيات وذاتي التصرفات.

من ذلك نعرف أن النقد الإيجابي هو الذي يتناول ما نقوم به من أعمال، وما نقدمه للآخرين، وما بيننا من علاقات، وليس فيه النقد الشخصي الانفرادي للذاتيات.. وفي النقد العملي يجب على الناقد الحصيف ألا ينقد عملاً يراه مقصراً أو مخالفاً إلا إذا أتى هو بما هو أفضل، خالٍ مما رأى من عيوب؛ لأن الحكمة تقول: إذا عبت أحداً وتأكدت من قيامه بما تراه عيباً أو لم يعجبك عمل، فقدم الدليل على ما تقول، والتصويب العملي كما تريد، وبذلك يكون النقد الإيجابي قيمة إسلامية ونظرية عملية رفيعة المستوى؛ ننقي بها حياتنا، ونقوم بها أعمالنا مما قد ينتابها من نقص أو تقصير.

من هنا، فإن دراسة نتائج الحروب والمعارك بعد انتهائها نصراً أو هزيمة على سبيل المثال إنما هي في الحقيقة تفكير إيجابي؛ فالدولة المنتصرة تعرف أسباب نصرها وتحرص على دعمها، والمهزومة تعرف أسباب الهزيمة وتتلافها، وتعد العدة للإيجابي في استعداداتها مثلما تفعل الدولة المنتصرة.

الإيجاب في كل الأمور هو الخير، والسلب نقص، وقصور، وتخلف، ومرض، والتفكير الإيجابي قدرة وكفاءة، وشعور قوي صادق بالذات، والسلبي ضعف وانحسار وخذلان، وكسر لقوة النفس، وتشبیط لهمتها، وقد يؤدي إلى ضياع كل خير يأتي إليها.

لا تقل: إني لن أقدر على عمل هذا الشيء.. بل قل: سأحاول، واعتمد على الله، وابذل الجهد صادقاً، وحتماً ستصل.

واعتمد على الله، وابذل الجهد صادقاً، وحتماً ستصل.

وحين تنتقد فلا تركز على نقاط الضعف؛ فتحبط من تنقده وتقوض عمله، بل أبرز الجوانب الإيجابية، وبين ما تراه ضعفاً، شارحاً الأسباب ومبيناً طرق الخلاص منها.

فلا يوجد إنسان إلا وفيه أوجه خير وفيه غير ذلك.. فالكمال لله وحده، ولا يوجد عمل إلا وفيه جوانب جيدة، وجوانب ضعيفة؛ لأنه يبقى في طبيعته عملاً إنسانياً.

الصادقون المخلصون لا يتوانون عن النقد البناء إذا ما رأوا حاجة لذلك، وصاحب الرأي لا يتورع عن طلب المشاركة فيه مهما كان عمله، أو كانت حكمته والدعوة إلى نقد ما يرى رغبة في توشي الصواب، ووصولاً إلى ما هو أقرب للكمال.

ألم يقدم أصحاب رسول الله ﷺ الرأي إلى نبيهم الموحى إليه من السماء، وهم يعلمون أنه لا ينطق عن الهوى.. أن ينزل في غزوة بدر عند موقع غير ما رآه ﷺ ونزل الرسول على رأيهم، وكان النصر حليفهم تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إنه درس عملي لنا نحن أتباع رسول الله ﷺ أن يكون من قيمنا إبداء الرأي فيما نراه صواباً.. لا نجامل رئيساً ولا ندهن مديراً.. فالحق أحق أن يتبع.

إني لأجد أن إبداء الرأي في الأمور ذات العلاقة بالصالح العام واجب ديني.. وحين يرى المرء أمراً واجب الأداء.. فالدين يحتم عليه إبداء ذلك ولا يكتمه لما قد يكون من سوء وظلم إذا لم يتحقق؛ فالساكت عن الحق وإبدائه شيطان أخرس والحديث الشريف

يكلفنا بذلك حين يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده.. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، لكن النقد يكون بلطف ومراعاة للموقف، وعدم المجاهرة بنقد الخطأ والتشنيع، بمن أخطأ، وإنما يرشده إلى الصواب سرّاً بينهما، والحكمة تقول: «رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي».

ما أعلى صوت التصفيقات في ندواتنا، واجتماعات المسؤولين في مصالحنا تصفيقاً حارّاً، وما أكثر المباركين والمهنئين بروعة ما قاله المتحدث، أو قرره المسؤول، والحقيقة أنهم في كثير من الأحيان قد نافقوا وضللوا، وارتكبوا في حق الخير والناس، والوطن أثاماً كبيرة بهذا النفاق المصطنع.

وفي المقابل كم شؤّة المفرضون الحاسدون صورة أعمال عظيمة.. ونددوا برجال مخلصين ابتغوا الحق، ووجه الله، ونفع الوطن والناس فيما يعملون.

وبعد هذا كله أدعو للتركيز على الإيجاب وتوخي الصدق، والدفاع عن الحق ونصرة صاحب الصواب، وأقول: إن كل من يعمل في أي مجال عليه أن يحاول تحقيق نجاحات مهما كانت صغيرة في موقعه، فأشد ما تحتاج إليه بلادنا في حقبتها الحالية ليس التطلع للوصول إلى النجوم، بل قطع مسافات وإن كانت قصيرة في رحلتنا على الأرض نحو أهدافنا السامية.. فالنجاح وحده يدعو إلى النجاح، ولنفتح صدورنا للحوار وللقدر الإيجابي البناء، فليس أنفع لحل المشكلات إن وجدت من اجتماع العقول، ولنحاول أن نلتمس في الحاضر عناصر قوة فننميها، ومواطن نجاح فنشيد بها، وأخاً

يبذل ذوب النفس فتبارك خُطاه ونسانده، وموقعاً يمكن أن يتسارع
بخبرة نمتلكها، فنسرع جميعاً بالتطوع بها، ففي الأزمات حين
وجودها يظهر الخلق الكريم على أنه أنجح المساهمات لانفراجها.
لذا، فإني أعود دائماً إلى التحرك على علم، والتجاوز عن حب،
والعمل في ظل التعاون والتأزر، والثقة: ثقة اليقين أن الله الرحيم
الرحمن العادل لا يضع أجر من أحسن عملاً.



الوسطية والاعتدال

- الصلاة الوسطى هي صلاة العصر؛ لتوسطها بين صلاتي الليل والنهار، والوسطى هي الفضلى.
- وفي الوسط الذي هو الأفضل، جاء وصف الله تعالى لأمة المسلمين المؤمنين: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].. أى أمة عدولاً وخياراً.
- وقال رسول الله ﷺ: «وَسَطُوا الْإِمَامَ، وَسَدُّوا الْخُلُلَ».
- وسط الرجل وساطة صار شريفاً وحسيباً، فهو وسيط فيهم، أى أوسطهم نسباً، وأرفعهم مجداً.
- إن الوسطية في أدق معانيها هي القمة أليست الشمس أزهى وأقوى نوراً وحرارة في وسط النهار؟ أليس القمر أكمل نوراً واستدارة في وسط الشهر؟ وعلينا ألا نتوهم أن الوسط كما هو شائع عند كثير من الناس أنه «بين بين» أي بين الرديء والجيد، وقد يكون هذا المعنى صفة لبعض الأشياء، لكن المعنى الأصلي والحقيقي للوسطية هو الجوهر والقمة.
- واسطة القلادة الجَوْهَرُ الذي في وسطها، وهو أجودها، قال الشاعر لما توفى ابن له أوسط أولاده: تَوَخَّى حِمَامُ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعِقْدِ
- الوسطية في كل أمر هي الخير والعدل وهي الأجود، وهي الأكثر عملية، وأوجب قبولاً.

نعم، إننا أمة وسط، بمعنى أننا أعظم الأمم، أشرف الأمم.. بما قدره الله لنا من أتباع أعظم الأديان، وأشرف الرسالات، ونحن أعظم الأمم أيضاً باتباعنا كل ما جاء به الإسلام دون تهاون أو تقريط.. فالتهاون في أمور الدين، والتقريط في العبادات يبعد الإنسان عن كونه وسطاً عظيماً شريفاً.

ويقابل ذلك فهم خاطئ هو الغلو، والتشدد الممقوت. بمفهوم خاطئ أن هذا هو الدين بحذافيره، ودقة ما جاء به، وأن المغالاة في الدين هي زيادة في التمسك به.

في بدء الإسلام ظهرت بعض دعوات التشدد والمغالاة في الدين، لكن الإسلام نهى عن ذلك.. فقد قال ﷺ: «لا تشددوا على أنفسكم فيشد عليكم؛ فإن قوماً شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم». وقال ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» فالإسلام منذ جاء وهو دين الخير واليسر.. لكن ليس دين التهاون الذي قد تفهم به الوسطية اليوم. فليست الوسطية بمعنى التيسير غير المشروع في الدين والحياة. فالقيم واضحة، وحدودها ثابتة، لا إفراط ولا تقريط، ولا تنطع ولا تشديد، الوسطية هي الاعتدال الكامل في حدود كل شيء، والمغالاة هي التزيد المرفوض في أداء كل شيء.

قال تعالى: ﴿يَا هَلْ أُلْكِلَ لَكُمْ لَّا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، ومنه ظهرت في العصور الإسلامية الأولى بدعة الخوارج والمعتزلة، وهم من الغلاة في الدين.

وقد ظهرت في عصرنا آثار ذلك بين بعض الشباب، حتى إن بعضهم كفر المسلمين، ظناً منه أنهم خرجوا عن حدود الشرع، وأنهم

ارتكبوا من المعاصي ما يخرجهم من حوزة الإسلام.. وانتشرت الدعوات المتطعة، والمجالس المتشددة، التي أوغرت صدور بعض الشباب؛ فأشاعوا الفساد في بلادهم، ونشروا الشر بين ذويهم.

أما الاعتدال لغة فهو أن: العدل هو ضد الجور، وما قام في النفس أنه مستقيم و(عدّل الحكم تعديلاً) أقامه، و(عدّل) فلاناً: زكّاه، و(عدّل) الميزان (سوّاه)، والاعتدال توسط حال بين حالين في كمّ أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدلته والعدول: هم الأخيار.

وذكر في القاموس المحيط: من معاني العدل والاعتدال: الحكم بالعدل والاستقامة، والتقويم، والتسوية، والمماثلة، والموازنة، والتزكية، والمساواة، والإنصاف والتوسط.

أما اصطلاحاً فالاعتدال: هو التزام المنهج العدل الأقوم، والحق الذي هو وسط بين الغلو والتنطع، وبين التفريط والتقصير، فالاعتدال والاستقامة وسط بين طرفين هما: الإفراط والتفريط.

والاعتدال هو: الاستقامة والتزكية، والتوسط والخيرية.

فالاعتدال يرادف الوسطية التي ميز الله بها هذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد فسر الرسول ﷺ هذا بقوله: «الوسط: العدل».

وبلا مغالاة يتحقق في الأمة الإسلامية: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بعد أن وصفها الله تعالى بأنها: ﴿أُمَّةٌ وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

خير: هي اسم تفضيل بمعنى (أخير) والأخير هو الأفضل عما سواه من كل المفضل عليه.

ولا يتفق الوصف بأخير أن نكون دون القمة العليا، أو الوسطية الجوهرية.

إذ كيف يكون الشاهد دون المشهود عليه: ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فالله سبحانه وتعالى جعلنا شهداء على كل العالمين، شهادة مقبولة تدل على أنه لا طعن فيها.. كما هو الحال في القضاء العام. كما شرع الإسلام إذ لا تقبل شهادة الذي ثبت عليه كذب أو تزوير في شهادة قبل تلك.

من هنا نجد أن الوسطية لا تعرف أبداً معنى التفريط في شيء من القيم والثواب.

وأصول التشريع، وأسس العبادات، ولا تعرف التنطع والمغالاة المرفوضة الخارجة عما أمر الله تعالى به.

وعليه.. فالوسطية، والاعتدال معنيان مترادفان في المفهوم اللغوي، والشرعي والاصطلاحي، فهما: العدل، والاستقامة، والخيرية، والاعتدال، والقصد والفضل والجودة. فالاعتدال والوسطية منهج الحق، ومنهج الأنبياء وأتباعهم، ويتمثل ذلك في

الإسلام الذي أتم الله به الأديان وأكملها، بما حمله رسول الهدى محمد ﷺ للبشرية جمعاء.

إن التهاون الذي يفسر به بعض الناس (الوسطية) قد يؤدي إلى التهاون في حدود الله، ويشيع الضعف الديني والانحلال الخلقي.. لأن من يفهمون الوسطية هذا الفهم غير الملتمزم بالحدود كلها سيتنازلون عن بعضها.

وما أسرع انتشار الضعف.. وما أكثر ما يتمسك به بعض ذوي الهمم الفاترة مما يشاع خطأً عن الوسطية.

إن حدود الأمور واضحة المعالم في الإسلام، قرأنا وسنة نبوية، وفي الممارسات الإنسانية القائمة على الثوابت.. لذا يبقى الوسط هو الأجل والأمثل والحق.

كلما تأملت الوسطية عملاً، وقولاً وجدتتها الخير كله.. فالصامت دائماً والمهذار كثيراً كلاهما ثقيل المحضر.. لكن المرء الوسط الذي يتكلم حين يلزم الكلام، ويهش حين يكون ذلك لازماً هو المقبول عند الجميع.. ثم إن المتفوقين على أنفسهم والمطلقين لها العنان غير مرغوب فيهم.

أما الوسط بين هذا وذاك فهو المقبول عند الناس، الأثير باحترامهم، ولتضح الصورة أكثر، وتبين الوسطية ومزاياها أضرب مثلاً ببعض من أعرفهم؛ فبعضهم لا يخلو وقته من لقاءات وارتباطات اجتماعية.. ففي كل نهاره وأمسياته لقاءات ودعوات.. إذ هو دائماً لها أو مدعو إليها.. والنوع الآخر من معارف لا يخرج من بيته ولا يلتقي أحداً طوال يومه وليله.. هو وحده عيشاً، وفكراً، ولقاءً.

وكلا الرجلين غير مقبول منه ذلك، والطريف في هذا الأمر أن زوجة كل منهما تندب حظها.. فالأول تريد زوجته أن تراه، ويتمنى أولاده اللقاء به، والاجتماع معهم أكلاً، وحديثاً؛ لأنه مشغول عنهم ليل نهار مع الآخرين.

والثاني تتمنى زوجته أن يخرج من المنزل ولو ساعة في اليوم، وأن يفتح باب منزله مرة بعد عودته من العمل.. فهما متواجهان معاً طوال الوقت، وناهيك عما يحدث في هذا اللقاء المستمر بينهما.

ألم أقل: إن الوسطية هي الاعتدال، وهي الأفضل.. فتوسطوا يا عباد الله، في كل شيء حتى في الطعام والشراب. فيكون الثلث للطعام، والثلث للشراب، والثلث للنفس، كما علمنا رسول الهدى ﷺ.

ثم إن ما يعانيه عالمنا كله اليوم من شرور وعداوات.. بل من حروب بين بعض الأمم، وما تشنه بعض الدول العدوانية على أخرى مسالمة، وإن ما يعكر صفو حياة المجتمعات، ويقلق بال الإنسان هو خروج الأمور عن وسطيتها.

فالدول المغرورة بقوتها تنسى أن هناك عدلاً يقوم ﷺ والأمان.. وأصحاب الأفكار المتطرفة المشتتة يثيرون القلق في مجتمعاتهم، ناسين أن الفكر المعتدل والرأي الصواب هو أفضل الأفكار والآراء، أي الوسط. لبتنا جميعاً نعرف المعنى الحقيقي العملي للتوسط والاعتدال فكراً، وسياسة، وعلاقة، وسلوكاً سياسياً، واجتماعياً. لو تم ذلك لعاشت الدنيا في صفاء وسلام، وأمن وهناء.



٤.٥ لا للتحلل والتسيب

كثيراً ما أكرر الدعوة إلى اليسر والرفق، والبعد عن التزمت والغلو، وقد بينت في أكثر من مرة أن الغلو جرّ على العباد والبلاد الويل والثبور، وأنه التنطع الذي نهانا عنه رسول الله ﷺ لما فيه من آثار ضارة بالجميع، وما يترتب عليه من شرور.

ولا يفهم من هذا الذي أشرت إليه بهذه المقدمة أنني أرضى عن التسيب والانحلال أو أوافق على الخروج على قيم الإسلام، وأخلاقيات المسلمين، أو أن أقبل معاذ الله دعاوى أقوام يُقَصِّرون الدين على (صلة العبد بربه) وأنه للآخرة فقط، وليس للدنيا. فالإسلام الحنيف في حقيقته ما ترك صغيرة ولا كبيرة من أمور الدين والدنيا إلا دعا معها إلى الهدى الأقوم، وأن الأخذ بهذا الهدى يجني ثماره الطيبة الأفراد والجماعات على حد سواء.

الفرق شاسع بين التيسير والتسامح من جهة، وبين التحلل والانفلات من جهة أخرى، ولا خير في دنيا لا تقوم على الدين، وما ضرنا إلا أعدم التمسك بديننا سواء ما يجيء من المغالين، المتنطعين أو ممارسي الانحلال المتسيبين، فكلهما على غير صواب.

فيما حولنا صور كثيرة، ومواقف عجيبة، وسلوكيات مرفوضة من فهم بعض الناس للدين، والخلق، والحياء، والنظام.. هي مرفوضة قبل ذلك من كل إنسان لديه شيء من القناعة بأن الالتزام بمستوياته المتعددة هو الحياة والحياء.

هناك من بيننا من لا يبالي، بل هو مقصّرٌ مُجَاهِرٌ بالسوء، وهناك المستهترون بالعمل المخالفون للنظام، وكم تفرعك الفوضى في المعاملات الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية وعلى مشهد من العين ترى ما يحزنك من مظاهر التسبب الأخلاقي من بعض الشباب والشابات، بل بعض الكبار مما يندى له الجبين، هناك ما لا يرضاه الإسلام أو الخلق الكريم من انحلال في مظاهر الحياة، من ملابس وزينة، حتى إنك أحياناً تدهش من هذا التصرف، وكيف قَبِلَهُ الوالدان من أبنائهما وبناتهما، وأتساءل في مثل هذه المواقف: أين الأهل من هذا البذاء؟

وما أسوأ التحلل من العهود، من التزامات العمل، من الوعود والمناسبات كل هذا مع الجهر به، وكأنه لا دين، ولا خلق، ولا فضيلة، ترسم الحدود في حياتنا.

أقول لهؤلاء جميعاً: ألم تسمعوا مرة قول الله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ [النساء: ١٤٨]، وإذا كان الجهر بالقول السيئ مكروهاً، فما بالك بالجهر بالعمل والسلوك والتصرفات والانخراط في الماديات الضارة كما ورد في هذا الشأن من الأثر: «يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم، وشرقهم متاعهم، وقبيلتهم نساؤهم، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم، أولئك شر الخلق، لا خلاق لهم عند الله».

ومما ورد في أثر آخر في هذا الأمر: «بئس العبد عبداً تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبداً تجبر واعتدى، ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبداً سها ولها، ونسي المقابر والبلى».

أقول: لا للتسبب في العلاقات الاجتماعية كما شكنا من ذلك بعض معارف في إذ لا يقيم البعض وزناً لمشاعر الناس، سواء في أعمالهم، أم هم له جيران في بيوتهم قد يجاورك من لا يهدأ بيته، ولا تسكت ساعةً اضطرابات أولاده، أو مضايقاته للناس بسياراته وحاجاته، والإسلام هو أرقى ما يكون مشاعر واحتراماً للناس عامة، والجوار خاصة، حتى إن الرسول ﷺ علمنا ذلك في أدق صورته، إذ لو طبخ أحدنا طعاماً له رائحة فليعط منه جاره أو يكتمه.

إن رفض التحلل هو رفض لكل نقيصة مفسدة للعمل والحياة، بل كثيراً ما يكون التحلل عدواناً صارخاً على حقوق الناس وحریاتهم.

التحلل الذي ساد بعض أنحاء البلاد، واستهتار الشباب، وكثرة ما يحدث في الأسواق من إيذاء للآخرين، وتدخلات مريبة مع السائرين، هو من التحلل الممقوت شرعاً المكروه خلقاً، وتأديباً.

التحلل من الالتزام بمواعيد العمل ونظامه مفسدة للحياة أي مفسدة، ويجب الأخذ على يد المتحللين المستهترين بالتزامات ومواعيد وواجبات العمل بيد من حديد، إذ كثيراً ما يكون صاحب الحاجة الذي يُراجع من أجلها مريضاً متعباً أو غريباً جاء من بلدة بعيدة مسافراً.. لكنه لا يجد المسؤول، ويقال: إنه في موعد، أو في اجتماع.. إنه في إجازة اضطرارية.. هل ظروف الناس ومصالحهم ليست اضطرارية، وكثيرة أمثلة ذلك في كثير من المصالح والدوائر الحكومية.

التحلل من المواعيد والالتزامات سوء سلوك لا يليق بذئ خلق أن يكون عليه.

موعدك مع غيرك.. هو التزام ديني وارتباط خلقي.. والوفاء بالعهود.. والالتزام بالموعد من أعظم الصفات التي شدد الإسلام عليها.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]..

﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

أما عن التحلل السلوكي والاستهتار الخلقي فَحَدِّثْ وَلَا حَرَجَ.. إن كثيراً من ذلك قد ساد برامج القنوات الفضائية، وسيطر على أساليب الإعلام العصرية، حتى إنك تجد أن برامج اللعب والتحلل والاسترسال في الغواية لها أوقات وقنوات أضعاف أضعاف ما للعلم والتعليم والثقافة والدين.

هؤلاء شبابنا.. صغارنا.. انسلخ بعضهم من حشمة الثياب إلى الانحلال وارتداء الملابس التي تدفع بها المصانع المتسببة، فهم كما نشاهدهم كثيراً حفاة عراة.. أو شبه ذلك، بل فاقت شعور رؤوسهم في هيئتها شجرة الشبرم أو رأس الغول، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذه بعض مظاهر التحلل المادي، والتسيب المعنوي والتردي الأخلاقي التي انتشرت في الحياة عامة.. وبين بعض الناس الذين لا سيادة للدين أو الخلق عليهم خاصة.

وأتساءل مع نفسي:

- ماذا يضير الإنسان لو التزم بكل خلق كريم، أو سلوك قويم؟!!
- ماذا يكلفك أن تُخلص في عملك، متمسكاً بنظامه وواجباتك

فيه؟

- ماذا تخسر لو أحسنت العلاقة بكل الآخرين؟

- ما الذي يُفسد حياتك أن تنهج سبيل الخير وحب الناس، وفعل المعروف.. وترك نزع الشيطان الرجيم؟
- لمَ لا نكون أشد التزاماً بمواعيدنا وحضورنا، وانصرافنا، وحقوق الآخرين من الناس في حياتنا؟

كم يؤلمك أن يعتدي أحد على حرمتك الشخصية، شريطة التزامك بما حدده الشرع والأخلاق لها، كم يزعجك إفزاز آخر بسوء جواره لك.. كم يُفسد عليك حياتك لو استهتر الآخرون ولم يراعوا حقوقك في السير والوقوف، والحديث، والتمتع بما هو ساقط من الفن والأعمال!

ألا تنزعجون أيها الآباء والأمهات، وأنتم ترون أبناءكم قد خرجوا عن المألوف الصحيح سلوكاً، ومظهراً وأفعالاً؟ وتذكروا أنكم رعاة مسؤولون عن رعيته، وهم هذه الرعية.

تلك هي بعض مظاهر التحلل والتسيب.. كثرت وانتشرت، وصارت سلوكاً صحيحاً في نظر أصحابها، وكلُّ يقول لك: إنها حرية شخصية.. نحن في عصر التمدن والتطور والحريات، وهذا منافٍ للحق، مغاير للفضيلة، وتعريف الحرية الذي نحفظه منذ القدم: «الحرية هي أن تفعل ما تشاء من خير مع عدم الإضرار بالآخرين» خير شاهد على ما أدعو إليه.

إن المسؤولية عن إقامة الخير والإصلاح في مجتمعاتنا، وتقويم ما ارتد إلى السوء من سلوكيات بعض الناس حولنا هي مسؤولية تشترك فيها جميع مؤسسات المجتمع.

إن الأسرة: هي منبت الغرس الذي فيه ينمو الصغار، والمسجد الذي فيه يسقون الصلاح.. ويطعمون الفلاح، ويتعلمون عملياً الالتزام والصواب.

والمؤسسة التعليمية بكل مراحلها: هي الروضة الغناء التي تزخر بالمثل، وتنضّر فيها القيم، ويعبق فيها شذا الخير والهداية، والعلم، والمعرفة.

والمؤسسات الإعلامية بجميع صور ص دورها فيها تمتلئ الأوقات.. وتحظى الأسماع، وتشهد العيون بما يجب أن يكون قوياً، راقياً، مهذباً، مسائراً لأخلاق ديننا وجميل صفات حياتنا وقيمنا.

والمؤسسات الاجتماعية: بل المجتمع بأكمله مسؤول بكل أفراد ه وهيئاته عن تسديد الخطأ.. وتقويم المنحرف، والوقوف بحزم ضد المتسبب.. فلا يُترك المهملون وإهمالهم ولا المتحللون وتسببهم.

النصح والدعوة للخير بالإقناع فرض عين على كل إنسان: فَلَنَقُمْ بدورنا هذا كما طالبنا ديننا، ونحرص على حراسة الفضيلة والقيم؛ فبهما سمت عقيدتنا، وتميزت رسالة نبينا الذي وصفه الله بأنه على خلق عظيم، ووصف هو رسالته بأنها متممة لمكارم الأخلاق.



التكافل الاجتماعي

ما أجمل ارتباط القيم العظيمة بالأيام الإسلامية الكريمة.. فحين يأتي أحد العيدين، فإننا نتذكر أن العيد مناسبة تبرز لنا أهمية ممارسة التكافل الاجتماعي، بحيث نشرك في فرحتنا الآخرين الذين لا تتوافر لهم أسباب الفرحة.

إن الإحساس بالسعادة والفرح إحساس جماعي في الغالب، ويزداد إحساسنا بالسعادة، وتمتد جذورها، كلما شملت هذه السعادة مساحة أكبر من الناس، وكلما تعمق ارتباطنا بصدق بما يفرحهم وما يحزنهم، وحين تتحسر أحاسيسنا، وتكتمش داخل أجسامنا بأنانية حين لا يصبح من الطعام لذيذاً، إلا ما أكله «أنا»، ولا رائعاً من اللباس إلا ما ألبسه «أنا»، ولا مريحاً جميلاً من المسكن إلا ما أسكن فيه «أنا»، حينما نصبح جزءاً أنانياً من حضارة البطن الاستهلاكية، نتلقى الضربة والجزاء من نفس جنس العمل الذي نعمله، وتصبح ظلال شجرة سعادتنا ذابلة جافة ميتة عارية من الأوراق؛ والثمار لأنها نبتت في غرفة مظلمة مغلقة، تقتصر علينا وعلى أولادنا وزوجاتنا، وهذا هو الذي يفسر برود التهاني السطحية في الأعياد، بل في كثير من الأحيان وعدم الإحساس بها.

ما أعظم قيم إسلامنا لو أننا نحن المسلمين تمسكنا بها، وتحلينا بأدائها الإنسانية الراقية، والروحية العالية، حتى صورها المادية هي مادية نبيلة في أغراضها.

التكافل بين القلوب، والنفوس، في السراء والضراء.. يُشيع السعادة والطمأنينة، ويُعمق الإخاء والمحبة بين الجميع. ها هو ذا ركن الإيمان المتمثل في الزكاة زكاة المال وزكاة الفطر من أروع وأرقى وأشمل وأكرم صور التكافل الاجتماعي بين المسلمين تكافل عملي لا يمس كرامة الآخرين، ولا ينقص مال المزكين.. وليس لهذا السلوك مثل في رقيه وفرضيته وآثاره واحترامه مشاعر المحتاجين. الناس في مجتمعهم الذي يعيشون فيه يحتاج بعضهم إلى بعض في كل شؤون الحياة.. وهم في مجموعهم يؤلفون قوة متماسكة، لا تبدو في تمامها واكتمالها إلا بقوة كل فرد من أفرادها وسعادته.. كالجيش لا قوة له إلا بكل جنوده، وقواده، وعتاده.

لقد شرع الإسلام التكافل الاجتماعي.. ليس في حياة الفرد المعيشية وحدها.. إنما شرعه تكافلاً شاملاً في حق الحياة، وفي الحرية، وفي العلم والمال. بل وكرامة الإنسان ومملكته، وحقق الإسلام التكافل السياسي والدفاعي.. والأخلاقي..

والإسلام حين ينادي بفكرة التكافل الاجتماعي لا يجعله قاصراً على المطالب الغذائية، أو السكنية، أو الاستهلاكية فحسب؛ بل جعله شاملاً لكل حقوق الإنسان في الحياة المادية، والمعنوية، بما في ذلك مشاركة الناس في أفراحهم.. وتخفيف ما نستطيع من آلامهم.

توكيد شديد على ضرورة التكافل الاجتماعي في الإسلام، في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وفي الحديث الشريف: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم كمثل

الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

وهناك التكافل الأخلاقي، فالمجتمع كله مسؤول عن صيانة الأخلاق العامة؛ لأن بها حفظه من الفوضى، والفساد، والانحلال، وبذلك وجب على المجتمع أن ينكر ويكشف عن مرتكبي المنكرات الخلقية في كل صورها، ولا يعدّ الإسلام ذلك تدخلاً في الحريات الشخصية؛ لأن الفساد والمنكر يأتیان على بنیان الأمة من القواعد ولم يفهم أحد أن من معاني الحرية الشخصية أن تسمح لآخر بهدم بيتك، أو تهدم أنت بيت غيرك.

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً راقياً في تكافل الأمة الاجتماعي، ذلك التكافل الذي يأخذ على أيدي العابثين والمخربين، يقول ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؛ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً».

من هنا، فإننا اليوم جميعاً مطالبون بالتصدي لكل التصرفات المخربة فكرياً واقتصادياً، واجتماعياً، والتهاون في ذلك التصدي مخالف للشرع، وهادم للقيم.

إن التكافل الأخلاقي سابق على كل صور التكافل الأخرى، وفي ذلك يقول ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

يفهم الناس التكافل الاجتماعي اليوم على أنه هذه المعونات، والرواتب والمساعدات التي تقدمها الدول للمحتاجين، من الأرمال، والعجزة المقعدين، أو ذوي الظروف القهرية الخاصة، وليس ذلك هو كل التكافل الاقتصادي الذي شرعه الله، ودعا إليه الإسلام. بل لقد شرع الله تعالى نفقة المطلقة والمرضة تكافلاً اجتماعياً معها، حتى تستمر حياتها كريمة كما كانت، ورأينا رعاية أسر المسجونين، وما يقدم إليها من تكافل اجتماعي، هو من أسس الرعاية الاجتماعية في الإسلام. بل رعاية المسجونين أنفسهم بعد خروجهم؛ ليشقوا طريقاً شريفاً في حياتهم، ووزارة الشؤون الاجتماعية تحقيق عملي لمبدأ التكافل الاجتماعي.

بل إن التكافل الاقتصادي يمتد إلى اقتصاد المجتمع؛ فيحافظ على ثرواته العامة كما يحافظ على ثروات الأفراد الخاصة.. وذلك بأن يمنع سوء استعمال الاقتصاد الوطني بالاحتكار، والتلاعب في الأسعار، والغش في المعاملات.

ولهذا أوجب الإسلام على الدولة أن تمنع كل حيل الاستغلال، ووسائل الغش والتلاعب، وأن تضرب على أيدي المحتكرين، بل أن توقفهم أمام القضاء، وأن تصدر بضائعهم المحتكرة، وتعرضها بأسعار معتدلة.

التكافل الاجتماعي قيمة عظيمة، كلُّ يُحقِّقه قدر جهده وإمكاناته لعلهم أن إغلاق باب العطاء، وسد طريق التكافل فيه بلاء شديد على المانعين، وجزاء قاطع من رب العالمين.

وعن التفاضلي عن التكافل الاجتماعي، وسوء مغبة حرمان الآخرين المعوزين ما جاء في سورة «القلم» من جزاء رادع لمانعي التكافل الاجتماعي، وقصتهم التي هي عبرة خالدة صورها القرآن الكريم في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَبَصَرُهَا مَصْبُوحٌ ۖ فَلَا يَسْتَنُونَ ۚ (١٧) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۚ (١٨) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۚ (١٩) فَنَادَا مُصْبِحِينَ ۚ (٢٠) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ (٢١) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ۚ (٢٢) أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ۚ (٢٣) وَغَدَا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرٍ ۚ (٢٤) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ ۚ (٢٥) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۚ (٢٦) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۚ (٢٧) قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۚ (٢٨) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ ۚ (٢٩) قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۚ (٣٠) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۚ (٣١)﴾ [القلم: ١٧، ٢٣].

وفي حياتنا نحن العرب خاصة صور عظيمة للتكافل الاجتماعي، تلك التي نراها دائماً في المناسبات الاجتماعية، كالأفراح والمآتم، فحين تكون هناك مناسبة سعيدة، فإنك ترى كثيراً ممن تعرفهم، ولك علاقة بهم سعداء مشاركين معك في هذه المناسبة السعيدة بالحضور أو المراسلات، ويعتذر من لم تسنح له الفرصة للمشاركة في هذه السعادة.

وأيضاً عند الأحزان، بمختلف أحداثها تجد الجميع، القريب والصاحب بل غيرهم يشارك أهل الحدث آلامهم.. ويواسيهم في أحزانهم..

وأذكر أننا حين كنا صغارا، كنا نتمسك ببعض القيم التي هي في أصلها تكافل اجتماعي، ومنها:

١- خرجنا جميعاً، صفاراً، وكباراً ذات مرة لإقامة السد الترابي الذي انهدم في بلدتنا، وقد جرفه السيل فانفجر، ما جعل النخيل لا يستفيد من ماء السيل، حين جريانه في الوادي.

٢- خرجنا صفاراً، وكباراً، لنحفر خنادق طويلة وعميقة لندفن صفار الجراد الذي يدبي قبل أن يكتمل نمو أجنحته ليطير، قبل أن يصل إلى البلد، ويأكل الأخضر واليابس. وكم كنا نحن الصفار في فرحة وسعادة غامرة لمشاركتنا الكبار في ذلك.

٣- في يوم شبّ حريق في أحد المنازل قبل ظهور الدفاع المدني فخرج الناس جميعاً من كل أنحاء البلد مسرعين، كل واحد يحمل قربة أو إناء فيه ماءً للمشاركة في إطفاء الحريق. وبعض هذا الماء كان مدخراً للشرب أو طهي الطعام، ولكن إنقاذ صاحب المنزل وأهله مقدم عند الجميع على منافعهم الشخصية القابلة للتعويض.

٤- مساعدة المحتاج، حين يعلم الناس أن حاجة أُمّت بفرد أو أسرة أو أن نائبة أفقدت شخصاً أو أسرة ما يملكون، فإن جماعة المسجد يجمعون ما يستطيعون؛ ليعينوه على نائبتة.

ومن أكثر صور التكافل الاجتماعي تميزاً ما يعرف (بالعاقلة) ذلك أن من وجبت عليه دية قتيل، وهو لا يستطيع سدادها تقوم عاقلته أي قبيلته أو أسرته الكبيرة بالإسهام، كل قدر استطاعته لسداد هذه الدية.

وغير ذلك من صور التكافل الاجتماعي المتأصلة في حياة الناس قبل أن يظهر التكافل الحكومي.. وقبل أن تظهر المساعدات والإعانات الرسمية.

إنها صور من التكافل الاجتماعي الفطري الطبيعي..
الحقيقي.. لا يتأخر عنها أحد.. ولا يمنّ بها على أحد.

ولا تزال هذه المظاهر الاجتماعية الإنسانية في كثير من مواقع حياتنا حتى اليوم وستظل قيماً اجتماعية نعتز بها، مصدرها ديننا الإسلامي، الذي ينبذ الأنانية، ويحث على التراحم، والتواصل، يقول رسول الهدى ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن من بات شبعان، وجاره جائع». وحين يُقبل أحد العيدين، فإنني أتذكر ما قاله الكاتب العبقري مصطفى صادق الرافعي في مقالته (اجتلاء العيد) لعلّي بذلك أحيي معاني العيد عند من نسيها، قال الرافعي: العيد هو يوم السلام، والبشر، والضحك والوفاء، والإخاء، وقول الإنسان لإنسان: كل عام وأنتم بخير.

ويقول كذلك: العيد ذلك اليوم الذي ينظر فيه الإنسان إلى نفسه نظرة تلمح السعادة وإلى أهله نظرة تبصر الإعزاز، وإلى داره نظرة تدرك الجمال، وإلى الناس نظرة ترى الصداقة.

ومن كل هذه النظرات تستوي للإنسان النظرة الجميلة إلى الحياة والعالم، فتبتهج نفسه بالعالم والحياة، وما أسماها نظرة تكشف للإنسان أن الكل جماله في الكل.



دفاع الإنسان عن أخيه

ما أعظم قيم ديننا، وما أرقى توجهاته في العلاقات الإنسانية، وما أسمى روابط الإسلام التي توثق العرى بين الناس.. لكن بعض الناس جهلوا أو تجاهلوا هذه القيم، فتحللوا منها تحللاً يدعو للتعجب والدهشة.

ترى البعض في كثير من المجالس يتعرضون بالنهش في غيرهم، خُلقاً وعرضاً، وعملاً، واتهاماً وتشويهاً، وقليلاً ما ينبري أحد للدفاع عن هذا الذي يُنهَش ويُغتَابُ، ويؤكّل لحمه ميتاً في هذا المجلس.

والأغرب من ذلك أنك تجد من بين الذين يتعرضون للناس بغير علم من هم على علم، بل اشتغال بأوامر الدين ونواهيه، في هذا الشأن، لكنهم ينسون ما يعرفونه من هذه الآداب والقيم الإسلامية.

ومما يستحق أن نقف أمامه، وأن نعرف حقيقة ما فيه.. هو ذلك الإنسان الذي يقيم من نفسه مدافعاً عن حق، أو ناصراً لقضية، أو داعماً لدعوة يراها هو بمنظاره، الحقيقة قضية ليست من أصالة الحق ولا صواب الخير كل يفصل الثوب بمقاسه فبعض الخطباء، والوعاظ، والدعاة، والمعلمين يقعون في خطيئة فادحة، بعيدة عما يرون أنه دفاع عن حق، ودعوة إلى صواب؛ ذلك حين يتناولون أشخاصاً معينين في خطبهم.. ويتمادون مبالغين في نهشهم، وإظهار ما يزعمون أنه عيب في أعمالهم.

والحقيقة أن هذا خطأ أخلاقي قبل أن يكون خطأً وظيفياً؛ والمفترض أنه ليس من أخلاق ووظيفة هؤلاء أن يفعلوا ذلك الذي يقدمون عليه، وهو في معظمه زور وبهتان لا يقل خطورة عن زور ورقة أو مستنداً أو شهد شهادة زور، وحتى لو كان ذلك على أسوأ الفروض حقيقة فليس من المروءة أن يُشهر أحد بالآخرين وعلى الراغب في إصلاح ما يرى أنه اعوجاج أن يبادر إلى الآخر ناصحاً وموجهاً.

كم سمعنا البعض في خطبه الدينية يقدح في أمانة بعض المسؤولين، وأخلاقهم وتدينهم، ووصفهم بأبشع ما يوصف به الناس من خصال سيئة، وأعمال مرفوضة.

ولئن سألت هذا الخطيب القادح عَمَّنْ نهشَه لوجدته لا يعرفه أصلاً، ولم يقابله يوماً، لكنه «سمع.. قالوا.. زعموا من مصدر موثوق» وكلها كاذبة خاطئة.

وكما قال أحد الحكماء: «الموثوق لا ينقل» وحتى لو كان ما يقال صحيحاً، فإن من يتمثل بقيم الإسلام لا يصرح بالأسماء والأشخاص، وإنما يجب أن يقتدي برسول الله ﷺ حين قال مثلاً: «ما بال أقوام.....».

فليتنا نستعمل حق الدفاع عن الآخرين كما هو حقيقة، وكما ينبغي أن يكون أصلاً.

لقد علمنا نبينا ﷺ نبي الرحمة أن ندافع عن إخواننا عندما ينتقص منهم في غيبتهم، فقال: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وقال: «مَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يَرِيدُ

شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال، والمعنى المراد بذلك: حتى ينقّي من ذنبه بإرضاء خصمه أو بشفاعة أو بتعذيبه بقدر ذنبه.

كم يوجع النفس ما نسمع في بعض المجالس عما يدعيه بعض الناس على الآخرين وخاصة من هم على رأس العمل العام، فيقال زعماء إن ما سمعوه هو الخبر اليقين أنه فعل كذا وكذا، وأتى كذا، وخالف كذا، وأنكر كذا وكذا، وتصرف دون حق هكذا، وخالف النظام وأتى كذا وكذا، وقد يكون بريئاً من كل ذلك، فما أسوأ مجالس النميمة هذه، وما أشنع من يتحدثون مفتابين الناس فيها، بل إن المرء يلحظ في كثير من الأحيان فرحة بعضهم بما يسمع ويرى من شماتة في الآخرين، وحسد لبعض الموسرين، وتحقير لنجاحات العاملين المخلصين.

ما أشبه هذه المجالس التي تحترق فيها نفوس المفتابين، وتتوهج فيها قلوب النمامين الحاقدين بمواقف النار لا تحرق إلا من يقع فيها، ومن يتلظى بنار الحقد والغيبة والحسد، أما المحسود الذي يغتابونه فهو في نجاة من ذلك كله، وهم وحدهم الذين بها يكتوون، وتسجل عليهم ذنوب ما يفعلون، قال البحترى:

فأصبر على كيد المحسود فناره	ترمي حشاه بالعذاب الخالد
أو ما رأيت النار تأكل نفسها	حتى تعود إلى الرماد الخامد
تضفي على المحسود نعمة ربه	ويذوب عن كمد فؤاد الحاسد

والكل في هذه المجالس غني بالأخبار، طلق اللسان، سريع الجواب، معتمد على هذا الزعم وهذا القول ليعزز مقاصده، ويؤكد

ادعاءاته، فهو يخبر عن أمر نقلاً دون تثبت، سماعاً من غير صادق دليل، وهذا هو الذي يوقعه في جريمة الاغتيال والكذب.

إن إخبار المرء بخبر غير حقيقي مبني على الشك والتخمين، دون الجزم واليقين عمل قبيح، وسلوك مشين لا يليق بالكرام؛ إذ الواجب ألا يقول المرء إلا ما هو حق ثابت، وله عليه شاهد ودليل، ألم يعوا ما ورد في الأثر: «بئس مطية الرجل زعموا».

وفي الجانب الآخر ما أخرى بالمرء ألا يسكت عن اغتيال يعرف عدم صحته بل يجب أن ينطلق في حمية الإنسان المكذوب عليه للرد على المدعي، والدفاع عن المغتال، ولو لم يعرفه شخصياً، وليضع نفسه، عملاً، وشفراً، وعرضاً، وكرامة وخلقاً مكان هذا الذي تمزق ثيابه في هذا المجلس.

من هذا، فإن الخلق الكريم يقضي بأن يكون هناك توجه للدفاع عمن ينتقص قدرهم، ويزدري شأنهم، وتنهش مقاديرهم في هذه المجالس، مجالس الاغتيال ومحاضر الانتقاص، لأن دفاع الإنسان عن أخيه الإنسان، أو دفاعه عن هيئة عمله أو إدارة وظيفته بما هو حق هو واجب أخلاقي حتمي، بل هو دفاع عن الدين؛ لأن الدين ليس إلا سلوكيات نتعلمها ونعمل بها، ندافع عنها.. وكما نزدري على سبيل المثال من يفطر في رمضان جهاراً نهاراً ونوبخه على ذلك.. فعلياً أن نقف هذا الموقف نفسه ممن ينهش جهاراً نهاراً، أعراض الناس في المجالس، بل يجب أن يكون الدفاع قوياً منا عن كل من يُغتال ولو كان من غير المسلمين، فأخلاق الإسلام شاملة عادلة والله يأمرنا بالعدل مع الجميع: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ

عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ [المائدة: ٨]، وينسى كثير من الناس أنه لا يكبّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم «الغيبة والنميمة».

الالتزام بالعدل والإنصاف وعدم التجني على أحد حتى مع من بيننا وبينه خصومة أو عدااء قيمة دينية وفضيلة إنسانية راقية.. لأن الدفاع عن الإنسان المظلوم قولاً أو عملاً هو إحقاق للحق، وإثبات للعدل، وصاحب الخلق الرفيع يأبى إلا أن يكون شامخ الأنف، مرفوع الرأس، غير منتقص من حق الآخرين؛ لأنه لا يقبل أن ينتقص من حقه، أو ينهش عرضه، أو تضاع ظلماً حقوقه، أو تهدر بالكائدين كرامته.. بل إنه لا يرضى أن تلوكة الألسنة، ويكون موضوع حديث المجالس.. ولا يقبل أن يوجد هو في مجلس تُنهش فيه الأعراض، وتنتقص الأقدار، ويهان فيه الناس.

وأكرر: كم من أبرياء مخلصين فيما قصدوا وفيما عملوا أسيء إليهم، وأنكر عظيم ما فعلوا نتيجة أن سوء نيات الناس قد أحاطهم بسياج من الشك وسوء الظن وفساد القصد، وذاتية النفع، لكني مثلك أيها القارئ، على يقين أن الله حتماً سيكشف كل هذه الدعاوى، وينصر الحق، والصدق، والإخلاص مهما كثر الحاقدون المغرضون، وإذا كان الذبّ عن أعراض الناس واجباً شرعياً على الجميع، فإنه أوجب وأحق على أهل العلم والدعاة والمربين من المعلمين والمعلمات.. الذين هم القدوة والأسوة الحسنة.

وأرى أن الدفاع عن العلماء الشرعيين وحدهم ليس صواباً؛ إذ طالما نسمع مقولة: «لحم العلماء حرام» نعم، هو حرام، لكنهم ليسوا

وحدهم أصحاب هذه الحرمة، وتخطر ببالي قصة صديق لي سمع عن اغتيابه في أحد المجالس، فحزن لذلك، ولما اعترض على هذا الشين قال أحد الحضور: «لست من علماء الدين ممن يحرم لحمهم» فقال: ما شاء الله، صار لحم البشر في شريعتنا أنواعاً: لحم العلماء حرام، أما لحم مثلي فهو كباب على النار يشوى، وعلى موائد النميمة يؤكل.

إن صاحب الخلق النبيل، والحس الإنساني الرفيع هو الذي ينبري للدفاع عن من يخاض في حقه، وتمزق ثيابه في مجالس الظن من الناس.

إننا، إذا ربّينا أنفسنا، وأهلينا، وطلابنا، وطالباتنا، على هذه المعاني الإسلامية السامية التي ترفض الطعن في حق الناس انطفأت نيران الإشاعات الضارة في المجتمع وسلمت الصدور، وانشغل الناس بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وعرف الناس عموماً والمعلمون والدعاة وطلبة العلم الشرعي خصوصاً، أنهم ليسوا قضاة على البشر يصنّفونهم إلى فئة ناجية، وفئة هالكة، وفئة بين بين، بناءً على مقدار علمهم واجتهادهم ورأيهم فيهم، وفي حدود إنسانيتهم التي لا تصفو من شوائب الجهل والهوى، وقد قال رب العباد سبحانه وتعالى لأكرم خلقه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال له: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].. فاتقوا الله يا عباد الله، وقولوا خيراً أو اسكتوا.



أدب الحوار

- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ...﴾ [الكهف: ٣٧].
- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

الحوار والمجادلة..

الجدل والمساجلة..

المناظرة والمحادثة..

المقابلة والمخاصمة..

التفاهم وتبادل الرأي..

عشرة طرق للكلام مع الآخرين. لكنها ليست كلها سواء، فكل منها مدلوله ومجاله المتفرد، وأهدافه المحددة. ولكل من هذه المتشابهات آداب وسلوكيات تتفق مع آداب الحديث في الإسلام، وفي كل صور الحضارة الإنسانية.

يكاد الحوار يكون أقرب إلى المجادلة، لكنه متميز بصفات، وآداب، وشروط وأهداف خاصة.

الحوار لا بد أن يكون بين طرفين، كل طرف شخص أو أكثر، يلتقيان بقصد بيان رأي كل منهما فيما يتحاوران فيه من أمور.

لكن ليس الحوار تشبثاً بالرأي، أو تعصباً للفكر، إنما هو تداخل في الآراء واستماع للأفكار الأخرى، نفهم وجهة نظر الطرف الآخر، ونحاوِّره، وربما يكون هو الأصح، وإلا فلا يكون هناك حوار.

وإذا كان الحوار لغةً هو مراجعة الكلام بين طرفين، فإنه يعني تبادل الآراء والانتهاز إلى الأخذ بما هو صواب منها. والحوار يمثل أول صور الحديث في تاريخ البشرية، وكان حينما جرى بين الله تعالى والملائكة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]..

ثم يمتد الحوار بطريقة أخرى، حين طلب الله تعالى من آدم: ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ أَنْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُهُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

ويُعدّ الحوار من صور الكلام الفنية؛ لأنه يتيح الفرصة للأطراف المتحاور أن تعبر عما لديها من مواقف، وتوضح ما لها من آراء، دون تعصب أعمى، بل بإقناع وإثبات قائم على الحقيقة. وفي القرآن الكريم صور كثيرة من الحوار الراقي، موقفاً، وأسلوباً، فمنه الحوار الذي دار بين الله تعالى وإبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ...﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وحواره مع النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وحوار الأنبياء جميعاً مع من أرسلوا إليهم يمثل الآداب التي يجب التزامها في الحوار.

فها هو حوار سليمان مع الهدهد: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ...﴾ [النمل: ٢٠]، وحوار يوسف مع العزيز ملك مصر، ومع صاحبه الذي خرج من السجن، ثم عاد إليه يستفسر عن رؤيا الملك: ﴿وَسَجَّعَ سُبُلَاتِي خُضْرًا وَآخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣].

ونحن لنا حوارات كثيرة في حياتنا اليومية مع من يعملون معنا، ومع أولادنا وأهلينا كل منا يريد أن يعرف الآخر رأيه، ويشرح له وجهة نظره، محاولاً إقناع الطرف الثاني بصواب ما يراه هو، والعقل من يأخذ برأي من يحاوره إذا تبين له صوابه.

الحوار نوع راقٍ من لقاء الأفكار، وقد امتد اليوم ليكون نوعاً من لقاء الأديان والثقافات، وحوار الحضارات.

إنه تكامل ثقافي، وحضاري.. لا بد من الأخذ به في عصرنا الحديث؛ لنعلم كل ما استجد في هذا العالم من معارف، وما ظهر من فلسفات في القضايا السياسية، والاجتماعية، والإنسانية.

لكن يجب ألا يضع المحاور نفسه في طرف أعلى عن الآخرين، أو يؤكد صحة ما يراه دون اعتبار للطرف الآخر من المحاورين، فكل إنسان رأيه قابل لأن يكون صواباً، أو خطأً في تقديره.

بل لقد تحقق هذا الأدب الحواري الراقي مع النبي ﷺ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤].

ويترك بيان صحة الرأي لله سبحانه وتعالى، الذي هو يعلم الحقيقة والصواب ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦].

وإذا كان الحوار لغة هو التماور والمجاوبة تماور القوم أي تراجعوا الكلام بينهم فإنه يجب أن يقوم على علم بالموضوع الذي نتماور فيه.. فلا تماور طرفاً آخر ونحن نجهل حقيقة موضوع الحوار، وتفاصيل جوانبه، والأدلة على صحة ما فيه، وإلا فهو نوع من الحمق، لا يؤدي إلى نتيجة مرضية للمتماورين.

ولهذا، فقد ذم الله مجادلة الجاهل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: ٣].

وحين تماور يجب أن تكون رحابة الصدر وسعة الفكر هي الموجه لنا في الحوار، تضيق ذرعاً بالطرف الآخر إذا جادل وحاو كثيراً؛ فربما يكون على صحة في رأيه، فتأخذ بما عنده إذا تبين لنا صوابه، فإن لم يكن ذلك متحققاً فإن الحوار الهادئ قد يوضح له الحقيقة، ويبين الصواب، والافتناع به، فيأخذ هو بما تبين له من صحة رأينا.

الحوار في العصر الحديث بعد أن اتسعت دائرته كما قلنا وصار حواراً بين الحضارات.. حواراً عملياً.. يريد أصحاب كل حضارة أن يفرضوا معالمها وعطاءاتها على الآخرين.. يؤكد أن من يدخل في حوار يجب أن يسبق ذلك بمعرفة ما لدى الطرف الآخر من مفاهيم، وما سوف يقابله من أدلة وبراهين؛ حتى يعد لها العدة إن كان فيها ما ليس صواباً أو غير مناسب.

والحوار بين المذاهب والأديان اليوم من أرحب مجالات الحوار. إنه ليس حوار أشخاص، كالأمتلة التي سردناها. لكنه حوار بين المعتقدات، ونحن أتباع الدين الإسلامي في أصوله التي نتفق جميعاً عليها على قناعة بأن الإسلام هو الدين السماوي الجامع لكل ما جاء في الديانات السابقة مع إيماننا بها. يجب ألا نخشى حوار المذاهب والأديان الذي امتدت ساحته اليوم، ولكن يجب أن نحاور الطرف الآخر بما يوضح له الحقيقة، ويكشف له الصواب، وإني لمن أشد المعجبين بالحواد الذي جرى بين العالم الفذ المسلم «أحمد ديدات» رحمه الله وبين ذلك القس المتمكن.. ونحن نسعد اليوم بظهور هذا المسلم الهندي «زاكر نايك» الذي أبهر من شاهده في برامجه التليفزيونية ومحاضراته العامة يشرح أمور الدين، ويحاور المخالفين بفهم، وعلم، واسع وإقتناع راسخ. إن من أهم شروط المحاورة الجادة الصحيحة إعطاء كل طرف حرية كاملة لإبداء رأيه بوضوح، أو طرح تساؤله، والخشية من الحوارات التي تجري في وقتنا الحاضر هي الخوف من تبعات الصراحة، والحرية في القول، ومهما كان الأمر فإنه ينبغي التريث في الحكم على الآخرين عند حوارهم، بل إني على يقين من أن الرفق واللفظ في المحاورة حتى مع من شذّ في رأيه، أو خرج عن القبول والمعروف في حوارهم قد يدلّه على الحق، فيأخذ به.

والمحاور بين موقفين: إما أن يضيق ذرعاً بالرأي الآخر، وينهر صاحبه، أو أن يتسع صدره، ويرد بإقتناع وكياسة وأدب على محاوره. فإن اختار الأولى؛ فإن محاوره سيزداد تشبثاً برأيه وتعصباً لموقفه، وإن اختار الثانية، فإن احتمال الأخذ بالرأي الأصوب هو الأقرب.

ويذكرني أدب الحوار بموقف لي حين كنت طالباً في الدراسات العليا بالولايات المتحدة الأمريكية، حين طلب مني أستاذي المشرف على برنامجي الدراسي أن أتبحر في علم الإحصاء، فذكرت له عدم رغبتني في هذا، وبعدها دعاني إلى مكتبه، وأغلق الباب.. وقال: يا محمد، أنا حريص على أن تكون ممن يستعينون بالإحصاء في الشؤون العلمية والحياتية، والفرق بين من يستدل بالأرقام وبين من لا يستعملها هو أن الأول يقنع الطرف الآخر حين يحاوره بالأدلة، والأرقام، والإحصاءات، دون عناء وجهد.. أما الثاني، فإنه يلجأ إلى أن يضرب بقبضته على مكتبه، وما هو بمقنع أحداً مع تشنجه. ومن يومها، وبعد هذا الحوار العلمي الهادئ أخذت حظاً وافراً من علم الإحصاء واستعمالاته في كل ما يلزم من الأمور.

لا يلجأ إلى اللجاج ورفع الصوت في الحوار إلا الواهن ضعيف الحجة.. أما صاحب الحق القوي، والرأي الصواب، الواقف من صحته فإنه هادئ في حوار متجاوب في تساؤلاته.

لكن أكرر أنه يجب أن يكون الحوار مكتملاً لأدب الحوار وشروطه، محققاً لأهدافه، ولا يكون حوارنا مع الآخرين من نوع المنازعات والخصومات، أو التعصب الأعمى لما نرى. قال تعالى: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وبهذه المناسبة، فإنني أشيد بالغاية التي من أجلها قام «مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني»، غير أنني أرى غير ما يراه البعض الذين يرون أن الحوار هو مجرد التمرس على الحوار، وليس بقصد الوصول إلى نتيجة يتفق عليها المتحاورون أصحاب الرؤى المختلفة

في الموضوعات التي يتحاورون فيها؛ لأنه لا جدوى من حوار لا تتبين بعده الرؤى الصائبة، ويؤخذ بها عند التطبيق العملي.

وعلى سبيل المثال: ما قيمة أن تدفع الهيئة المنظمة للحوار في موضوع ما الآراء المختلفة حول ذلك الموضوع إلى الجهة التنفيذية دون بيان الصائب منها، وتحديد ما في هذا الرأي أو ذاك من صحة وصواب، وما تم الاتفاق عليه بين المتحاورين.

وإني لآمل أن تكون الحوارات القادمة على اختلافها موصلة إلى الأقرب من الصواب، وطريقة الأخذ به، مغنية بذلك عن اللجاج الكثير المستمر، والتدخل الذي لا نفع وراءه، ويدخل في هذا الحوار حول القضايا كافة، ثقافية كانت، أو اجتماعية أو تعليمية، أو سياسية أو غير ذلك بما في ذلك الحوار بين المذاهب، والحوار بين الأديان، والثقافات، وإلا لبقيت الأمور مبهمة، وأصبح الحوار كما يقال: «حوار الطرشان» لا نهاية له، ولا مردود مفيد منه، وبقي الحال على ما هو قبل الحوار وبعده كما يقول المثل العربي: «كمن يدق الماء في الهون» لا نتيجة البتة لذلك الدق.



مبدأ المقنع الكندي

ما أعظم الإنسان حين يعلو على كل النقائص والهفوات، ويتجاوز عن الأخطاء والزلات، هذا مع الناس جميعاً، والأمر أكثر استحقاقاً مع الأقارب والأرحام، فهم أولى بالرحمة، والمحبة.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

صلة الأرحام صلة مباشرة قوية بالله تعالى، من وصلها وصله، ومن قطعها قطعها.

والرحم بين الناس هو الخيط الذي يجمع الحبات المتفرقة، فيتكون منها عقد واحد له اسم واحد، ووجود واحد، وقوة واحدة، ذلك العقد القوي المتين هو الأسرة.

ومن الأسرة يتكون المجتمع، وكلما كانت الأسرة متماسكة بأفرادها كان المجتمع كذلك مترابطاً متضامناً، مصلحة الفرد فيه جزء من مصلحة الجماعة التي لا تعرف الانحلال، ولا التخاذل، ولا التواكل، وبذلك يحيا المجتمع حياة قوية مستمدة من نفسه وشعوره، وبحسب المجتمع ذلك عزة وسعادة.

وإذا كانت الرحمة مطلوبة بالناس الآخرين، فإن الرحم من الرحمة والرحمة أحق بالأرحام.

وإذا كان الإحسان مطلوباً بين الناس عامة أداءً لحق الإنسانية المشترك، ومطلوباً بين المؤمنين على وجه خاص قياماً بحق الأخوة

الدينية فإنه بين الأقارب مطلوب على وجه أخص، وعلى نحو ألزم؛ قياماً بحق الرحم الذي هو محل عناية عظيمة في الوصايا الإلهية وفي الهدى النبوي، وأنا من المعجبين بمقولة تنسب لشيخ الإسلام ابن تيمية، قال رحمه الله: «إن الإسلام يدور كله حول أمرين: الإخلاص للحق ورحمة الخلق» فإذا كانت رحمة الخلق عامة هي أحد الأمرين الذي يدور حولهما الإسلام فإنها للقريب أكثر استحقاقاً.

لقد كانت صلة الأرحام بمستوياتهم شغل الرسل والأنبياء جميعاً، وكلهم أداها حين لزومها؛ فها هو ذا نوح عليه السلام يطلب النجاة لابنه من الفرق: ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، وها هو أبو الأنبياء إبراهيم يدعو أباه وأهله للتوحيد وترك الأصنام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]، وقال له: ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ [٤٣] ﴿يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾ [مريم: ٤٣، ٤٤].

وغير ذلك من حق صلة الأرحام في سير الرسل والأنبياء كثير، ومنها: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقَمْنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٤٣، ١٣].

وها هو ذا السيد المسيح عليه السلام يقول: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْكَ﴾ [مريم: ٣٢]، وتجيء دعوة الحبيب المصطفى لقومه خاصة والناس في كل الدنيا عامة دعوة نموذجية في البر بالأرحام على كل المستويات.. إذ أمرنا الله تعالى أن نحمي الأهل كما نحمي أنفسنا: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

صلة الأرحام فرض عين على كل إنسان، يقول النبي ﷺ: «والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وعنده قرابة محتاجون لصدقته ويصرفها إلي غيرهم، والذي نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة».

ومما يؤكد أهمية صلة الأرحام وحتمية أدائها تجاههم قوله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائد بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى.. قال: فذلك لك».

ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ٢٢ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

صلة الأرحام سمة النبلاء، الكرام ذوي الأصل الطيب، والعرق الكريم، وقد كنا في الماضي وحتى عهد قريب نرى صوراً متنوعة طيبة لصلة الأرحام بين أفراد الأسرة وبين مجموع أهل والأرحام، خاصة في المناسبات الدينية كشهر رمضان، والأعياد وفي الأفراح، والأتراح، وغير ذلك كنا نشعر ونلمس ونرى قوة الترابط بين الأسرة الصغيرة مع من يرتبطون بها من الأعمام، والأخوال، والأجداد. وكم كانت الاجتماعات الأسرية بمختلف مستويات القرى مظهراً كريماً للبر بالأهل وصلة الأرحام.

أما اليوم.. فقد تغيرت هذه المظاهر النبيلة كثيراً عند بعض الناس؛ ففي زحام الحياة، وتسلب المصالح الخاصة، وانشغال

الناس بمطالبتهم الذاتية، وُبُعِدِ المسافات بينهم تغاضى البعض عن هذه الصلة العظيمة، ولم يعد الواحد منهم يصل أهله وأقرباءه إلا عند الضرورات.

وقد يكون أحدهم غنياً وفي أرحامه فقراء، وقد يكون قادراً ميسور الحال وفي أقاربه ضعفاء، محتاجون، لكنه لا يعلم حالهم، ولا يشعر يوماً بحاجتهم؛ لأنه لا صلة له بهم، وقد ينفق الكثير على من حوله هنا وهناك، تباهاً وفخاراً، وكأنه لم يسمع الحديث النبوي الذي يوصى بصلة الرحم.

صلة الأرحام أولى بها من هم أشد قرباً لنا ومن بعدهم درجة؛ فبعد الوالدين يأتي الإخوان والأخوات قبل الأعمام، والأزواج قبل سائر الأقرباء، وهكذا أبناءنا، وكل من بيننا وبينه قرابة أو نسب، والأشد قرباً هو الأولى صلة.. دون قطيعة للآخرين.

وقصة زينب الثقفية رضي الله عنها امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه تؤكد ذلك.

إذ حثها الرسول ﷺ حينما سألته عن أحق بفائض مالها؟ فأرشدها ﷺ إلى أن تكون للأقربين، وأولهم أبناءها وزوجها. وعنها قال الرسول ﷺ حينما نفذت توجيهه الكريم: «إن لها أجرين» أجر القرابة، وأجر الصدقة.

من هنا أردد قول الله تعالى لنفسي وللجميع: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء: ١].

فصلة الرحم لا تنقص من المال شيئاً، ولا تكلف صاحبها ضرراً؛ بل تزيده كما جاء في قوله ﷺ: «من أحب أن يُبسط له في رزقه وينسأ له في أثره، فليصل رحمه».

ولكن هناك جانب آخر لا بد أن نشير إليه وهو أن الإنسان قد يكون باراً بأهله واصللاً لرحمه، لكنهم قد يسيئون إليه، وقد يفعلون معه ما يدفعه لو ترك نفسه تردُّ بالمثل لَقَطَعَ صلته بهؤلاء الأرحام، وَلَا سَتَمَرَتِ العداوة قائمة بين الطرفين.

من ذلك: ما ورد في الأثر أن رجلاً قال: «يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ -التراب الحارق-، ولا يزال معك من الله عليهم ظهير ما دمت على ذلك».

يذكّرني هذا الموقف الذي لا تخلو الحياة من تكراره بما كان من أمر الشاعر الأموي الكبير الملقب بالمقنع الكندي، الذي سجّله في قصيدته الغراء: «يعاتبني في الدين قومي».. وكأنهم تخلوا عنه لتغير حاله وضيق ذات يده يوماً.. أو ثقل الديون على كاهله مرة.. لكنه بقي على حبه لهم، وصلته بهم.. لم يقاطعهم وقد قاطعوه.. ولم يتركهم وقد تركوه.. ظل على حب الخير لهم مع أنهم ظلموه.. يعلن أنه سيسرع على الرغم من كل ذلك إلى نصرهم لو دعوه، وأنهم سيجدون منه المحافظ على صلة أرحامه مهما خذلوه.

هل لنا نحن اليوم أن نسير سيرة المقنع الكندي، وننهج نهجه القويم، ونحافظ على مبدئه الكريم، ولا نقطع صلة أرحامنا إن هم أساءوا إلينا يوماً.

هل لنا أن نكون أكرم فعلاً مع إخواننا وأقاربنا إن هم خذلونا، يقول المقنع في ذلك:

وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لمختلف جداً
أراهم إلى نصري بطاء، وإن هم	دعوني إلى نصر أتيهتهم شداً
فإن يأكلوا لحمي وفرت لحومهم	وإن يهدموا مجدي بنيت لهم مجداً
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم	وإن هموهوا غيبي حفظت لهم رشداً
وإن قطعوا مني الأواصر ضلة	وصلت لهم مني المحبة والودا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم	وليس كريم القوم من يحمل الحقد
فذلك دأبي في الحياة ودأبهم	سجين الليالي أو يزورنني لحدا
لهم جل مالي إن تتابع لي غنى	وإن قل مالي لم أكلفهم رفداً

هذه سمات نبيلة، لا تتأثر بالقطيعة.. إنها أخلاق سامية لا تتدنّى لبعض المواقف الظالمة؛ لأنه من هذه الأرحام الأصيلة، وإن لقي منهم ظلماً وغبناً فقد جاء هو كريماً أصيلاً نبيلاً؛ لم يردّ العيب بعيب، ولم يقابل القطيعة بقطيعة؛ لأنه منهم، وهم أرحامه وجبت عليه صلتهم مهما أساءوا.

والناس بمثل هذا الصفح والتجاوز سيتراجعون آسفين نادمين على ما قطعوا من أرحامهم، وأذوا أقرباءهم قناعة منهم بأن صلة الأرحام هي العلاقة التي يجب ألاّ نقطعها إيماناً بالله وتنفيذاً لأمره بها مهما بدت من أي طرف هفوة تجاه الآخر.

ما أكرمك خلقاً أيها المقنع! ما أنبلك شعوراً أيها الواصل
رحمك، وما أعظمك مبدأ وأنت مع كل ما لقيته من قومك تعلن أنهم
هم أعظم من ترى، وأكرم من تعرف من الناس، وأنهم على الرغم
مما فعلوا، أهل فضل، وأصحاب أحلام، وقوم مجد وتاريخ وشرف.
على أن قومي ما ترى عين ناظر كشيبيهم شيباً، ولا مُردِّهم مُردّاً
بفضل، وأحلام، وجود، وسؤددٍ وقومي ربيع في الزمان إذا شدا

فهيأ بنا إخواني القراء، نطيع الله فيما أمرنا أولاً ثم نقتضي أثر
هذا المقنع، ونصل ما قد نكون قد قطعناه من أرحامنا، هيا نتصل
بهم بكل وسائل الاتصال، وبكل سبل تحقق لنا صلة الأرحام والبر
بهم، والعناية بكل شؤونهم، وليس كريم القوم من يحمل الضغينة!
وإني لأخص بحدِيثي هذا من هم متنازعون من الإخوة،
متخاصمون من الأقارب، لسبب مادي زائل، أو خلاف أسري عارض،
أو عدم قبول رأي أو سوء فهم لقول وأمثلة ذلك كثيرة بين من نعرفهم،
في هذا العصر لهم جميعاً أقول: عودوا واصلين من قطعتم من أهلکم،
وأقاربکم، وأرحامکم، فالدنیا زائلة وليس فيها من الأسباب التي
دفعتم للقطيعة ما يستحق غضب الله عليكم إن تماديتم في قطيعة
ما وصله الله، وفي تسامحكم ورضاكم عن بعضكم رضا لله عنكم.

فيا أخي:

إن كنت على شيء من ذلك الخلاف أو تلك الخصومة مع أحد
من أقاربك، أو أرحامك، فإني أستحلفك بالله أن تراجع نفسك
الآن، وتعود إلى رشدك، وتقلع عما هو بينك وبين أحد من أقاربك
من خصام، إن كان هناك خصام.

أمانة الكلمة

- كلام المرء يفصح عن شخصيته.
 - لكل مقام مقال.
 - لسان العاقل تابع لقلبه، وقلب الأحمق تابع للسانه.
 - بمقدار الصمت تكون الهيبة.
- هذه مقولات تراثية تُضيء أماننا الطريق إلى حقيقة أمانة الكلمة، وبالعامة أهميتها، وما أثقل حمل أمانة الكلمة، وأشد الحساب عليها.
- إن الكلمة أمانة أمام الله، ثم أمام الخلق، ولقد حذرنا الإسلام من القول بغير علم أو الحديث دون صدق، أو النطق من غير حق.
- قال أبو حيان التوحيدي نقلاً عن أستاذه السجستاني: «نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين»، وهذا يعني أن للكلمة العربية دقة بالغة ما يُحقق لها دقة أداء الأمانة وتحديد كمها ومداهها.
- وليس لأحد إنكار أن الحضارة العربية قد أعطت فكراً، وعلماً، وفتناً، وكان دور اللغة في كل ذلك بارزاً وتعبير الكلمة عن كل ذلك واضحاً، حتى إن إعجاز القرآن للعرب ولغتهم هو الدليل على ما للكلمة من أهمية في حياتنا، وما لها من دلالات على حقيقة أنفسنا، ودواخل شخصياتنا.
- لقد كانت الكلمة عند الإنسان العربي «سلوكاً» يرى فيه الرجل ترجماناً يعبر عن شخصيته، ولسان حالٍ ينطق باسم ذاته العميقة،

ولهذا قالوا: «إن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، لا يمكن استرجاع بواده، ولا يقدر على رد شوارده. ويقول الناس اليوم: «لسانك حصانك إن صنته صانك، وإن أهنته أهانك».

لم يكن العرب غافلين عن دور الكلمة، وأنها أمانة في رقبة المتكلم؛ حتى إن رسول الله ﷺ حين توجه بالنصح إلى معاذ قال: «يا معاذ، أنت سالم ما سكت، فإذا تكلمت، فعليك، أو لك» أجل، فإن كلامك من عملك: يشهد لك أو يشهد ضدك، إن الكلمة من قائلها بمعناها في نفسه، لا بمعناها في نفسها، وهو حين ينطق بها، فإنها تحكم عليه، أكثر مما يحكم هو عليها، وهي حين تكون محكومة معقولة، فإنها تجيء لتوضح حقاً، أو تدحض باطلاً، أو تنشر حكمة، أو تذكر نعمة، أما حين تكون هوجاء طائشة، فإنها قد تكشف عن جهل، أو تسبب ضرراً، أو تذيع سراً أو تتلف نفساً.

وقديماً قال سقراط لشاب كان يديم الصمت: تكلم حتى أراك، وإلى هذا المعنى أشار علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) حين قال: «تكلّموا تُعرّفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه».

لا شيء أولى بطول حبسٍ من لسان يقصر عن الصواب، ويسرع إلى الجواب، لا حاجة بالعاقل إلى التكلم إلا لعلم ينشره، أو غُنى يكسبه.. فمن أمانة الكلمة حُسن استخدامها، فهي الدالة على ما يريده صاحبها صادقاً أو كاذباً محققاً أو مرائياً.

وقضية مهمة تطل عليّ الآن لماذا اشتهر الشعراء، وعلت مكانة الأدباء؟ هل بأسمائهم أو بمكانتهم الاجتماعية؟ أو بمالهم؟ أبداً

إنهم لم يشتهروا ويعيشوا عصرهم والعصور بعدهم إلا بكلماتهم التي أودعوا فيها مشاعرهم وأفكارهم، وطرحوا بها آراءهم، فإن قالوا حقاً فقد وعوا الأمانة، وإن نافقوا فقد خانوها.

إن دقة التعبير وشدة تحديد المراد واختيار الكلمات التي تُعبر عن هذه المعاني هو نوع من أمانة الكلمة.

وعلى سبيل المثال: ما نال المتنبي شهرته الذائعة إلا بكلماته المنتقاة، ولغته المصفاة؛ ذلك لأن الكلام ميزان الرجال، وترجمان العواطف، وبوح الوجدان، وتتميز الكلمة في اللغة العربية دون سائر اللغات؛ بقدرتها على دقة التعبير دقة متناهية؛ ذلك لأن للمعنى الواحد عشرات من الكلمات أو أكثر، وفي معجم فقه اللغة للشعالبي ما يؤكد ذلك.. لكن هناك من علماء اللغة من رفض مقولة المترادفات في اللغة، مؤكداً أن لكل كلمة معناها الخاص، وإن تشابه مع غيره.. فالكرم غير الجود، غير السخاء، غير العطاء. والإعجاب، غير الحب، غير العشق، غير الوجد، غير الوله، غير الصبابة. والبخل غير الشح، غير التقتير، وهكذا نجد في لغتنا تحديداً قوياً لمستوى المعاني الذي جاءت له كل كلمة، ما يدل على الأمانة في دقة الوصف.. نقول: هذا رجل سخي، وهذا رجل معطاء، لكل منهما دلالة عملية وسلوكية، فهي أمانة الكلمة، حتى في وصفها للصفات المتشابهة.

هذه الأمانة، بل هذه الدقة في استعمال الكلمة تشير إلى أهمية البيان حتى إن النقاد رفضوا الصورة الشعرية الخيالية التي فيها مبالغة غير مقبولة، ذلك لأن البيان يعدّ مقوماً من مقومات شخصية

الإنسان، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال يوماً لعمه العباس: «يعجبني جمالك» قال: «وما جمال الرجل يا رسول الله؟ قال: «لسانه»، أي صدق الحديث، ودقة التعبير عما يراد دون مبالغة فيه.

وهكذا كان جمال الرجل في رأي الرسول ﷺ وثيق الصلة بفصاحة لسان الإنسان ورجاحة عقله. والفصاحة هي الصحة اللغوية، والدقة في التعبير عن المراد، وهي من أسمى شروط أمانة الكلمة.

من هذا نعلم أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة مع عقله، وروية مع نفسه تسبق سقطات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره.

لهذا كان العرب لا يستحسنون الإسراف في القول، والاسترسال في الكلام؛ لأنهم كانوا يرون أن من أعجب بقوله أُصيب في عقله، فضلاً عن أنهم كانوا على وعي بأن المسترسل في الكلام كثير الزلل، دائم العثار، ومن هنا كان أجدادنا العرب، ولا يزال الجيل الكبير في عصرنا يضيقون بالثرثار، ويكرهون المُلحّ المهدار، وهذا ما يعنيه الجاحظ بقوله: «إن للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك هو الهذر».

ومن هنا قالوا: البلاغة الإيجاز، خير الكلام ما قل ودلّ، بل إن هناك من المعاني الواسعة التي تطلق عليها كلمة «الكلمة».

مثل: «كلمة التوحيد» وهي ليست كلمة، لكنها كلمات عدة ويقال للشاهد قل: «كلمة الحق» وربما تكون أسطراً عدة أو مئات الكلمات.

ومن هذا كله نرى أن أمانة الكلمة أمانة ثقيلة، وعليه فإن الصمت في كثير من المواقف من مسوغات أمانتها، فما دمت

صامتاً فأنت محافظ على أمانتها، ويكون الصمت أحياناً خير تعبير عن موقف ذلك الصامت في بعض المناسبات، وفي المقابل قد يكون الصمت في بعض المواقف خيانة للأمانة؛ إذا لم ينطق الإنسان بالحق الذي يعرفه؛ ولهذا يُقال: «الساکت عن الحق شیطان أخرس».

لقد عرف الأئمة السابقون مدى خطورة أمانة الكلمة، فها هو الإمام مالك يقول: «من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب عنها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها».

وها هو القاسم بن محمد يقول: «والله لأن يقطع لساني أحب إليّ من أن أتكلم بما لا علم لي به».

وقد وضع الحكماء شروطاً للكلام الذي به تتحقق أمانة الكلمة، ومن أول هذه الشروط: أن يكون القول لداعٍ يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر، وأن يأتي المتكلم بقوله في موضعه، ويتوخى به إصابة فرصته، وأن يقتصر منه على قدر حاجته. وأهم الشروط أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به، خصوصاً أن اللسان عنوان الإنسان، يترجم عن مجهوله، ويبرهن على محصوله، لهذا قال الشاعر:

كفى المرء عيباً أن تراه له وجه وليس له لسان

وكم لكلمة اليوم من الأهمية التي قد تشير جدلاً محلّياً أو حتى دولياً.. وكم يكون هناك نزاع شديد في المحافل السياسية حول معنى أو تحديد كلمة، بل إن حرفاً من كلمة قد يغير المعنى، ويبدل المقصود.

وأذكر في هذا الخصوص ما دار في مجلس الأمن بعد هزيمة العرب مع إسرائيل واحتلالها المزيد من الأراضي العربية عام ١٩٦٧م إذ جاء في نص البيان: «انسحاب إسرائيل من أراضٍ عربية» فعارض ذلك جميع الأعضاء العرب هناك رافضين تكرير كلمة «أراضٍ» وطالبوا بأن يكون القرار: «انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية» ليكون ذلك شاملاً كل الأراضي العربية التي احتلتها بعد الحرب ولو كان المجلس مراعيًا أمانة الكلمة لعرّفوها، وحددوا بدقة المراد بها، ولما جعلوها عائمة الدلالة تحتل بتكريرها أكثر من معنى.

إنه ليس من أمانة الكلمة أن يحبس المعلم بعض العلم عن طلابه، ويكتفي بشرح موجز لدرسه. إنه ليس من أمانة الكلمة ألا تذكر كل حقائق ومقومات نظرية، أو شرح مهمة تكلف بها الآخرين.. وألا توضح تفاصيل العمل المراد للعاملين، وأنه ليس من أمانة الكلمة أن تدعي أن هذا العلم أو هذه الفكرة أو هذه المقولة هي لك مع أنها لغيرك.

وتحضرني صورة أخرى غاية في الاهتمام بأمانة الكلمة، والحرص على صحتها وسلامتها؛ تلك هي الحقوق الفكرية للعلماء والمؤلفين، التي تأخذ اليوم اهتماماً كبيراً من حقوق الإنسان سواء في الدول منفردة، أم في الأمم المتحدة بعد أن شاعت ظاهرة الأخذ عن المؤلفين، وسرقة بعض أفكار المبدعين ونسبتها إلى غيرهم، وهذا الفعل الخؤون هو أكبر اعتداء على أمانة الكلمة ومصادقيتها.

إن العرب هم أبلغ من تكلم، وأوتوا الحكمة في كلامهم، لهذا فهم يعتنون بأمانة الكلمة حق العناية، وقد وقفوا ضد من يخون

أمانة الكلمة موقفاً قاسياً عنيفاً يعيبون عليه.. حتى إنهم أنكروا رافضين ما ظهر من السرقات الشعرية التي يأخذ الشاعر فيها بيتاً أو جزءاً من بيت، أو يتناول معنى لغيره، وينسبه إلى نفسه، على حد قول أحدهم: «أن تسرق مالي أهون عليّ من أن تسرق عقلي» قال طرفة:

ولا أغير على الأشعار أسرقها عنها غنيتُ، وشر الناس من سرقا
وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال: إذا أنشدته صدقا

بل إنهم لشدة اهتمامهم بأمانة الكلمة رفضوا الكذب في الشعر وقضية الصدق والكذب في الشعر العربي قضية كبيرة متشعبة، إذ اعتبر بعض النقاد أن المعنى الذي يستحيل تحقيقه خيانة لأمانة الكلمة، واعتداء على حدود المعاني؛ لهذا فهم يمدحون الشعر الصادق في معانيه، ويقررون أن الصدق في الشعر فضيلة لا تنكر، وعلى هذا فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيراً، وقال فيه: «إنه لا يمدح إلا بما فيه».

وعمر هو الذي رفض كذب الحطيئة، حين قال مادحاً:
متى تأتته، تعشوا إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
قال: كذب، بل تلك نار موسى نبي الله عليه السلام.

ومن الشعر الذي عيب لعدم الالتزام بأمانة الكلمة ما فيه استحالة الأمر، كقول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

وقول عبد الرحمن القس في سلامة:

فإذا ما الموت حلَّ بنفسها يزال بنفسي قبل ذاك فأقبرُ

إن أمانة الكلمة بمفهومها العملي هي حفظ اللسان عما هو غير صادق، أو فيه شر للناس، أو ادعاء بالكذب، أو تلفيق اتهام، أو أن تكون الكلمة غير ما يريده بها في داخله، ولهذا فإن صدق اللسان يتصدر القيم الإسلامية في كثير من المواقف والأوامر الإلهية التي تؤكد حتمية حفظ اللسان عن أن يخون الكلمة، ويُبعد نطقه بها عن أمانتها. ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

والأحاديث النبوية الشريفة في الدعوة إلى حفظ اللسان وأداء أمانة الكلمة أكثر من أن تحصى في هذا المقام.. منها قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت». «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

وقال ﷺ للصحابي الذي طلب معرفة النجاة: «أمسك عليك لسانك...».

والحديث الذي يجب أن نعيه جيداً في أداء أمانة الكلمة قوله ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».

كثيرة سنة الحبيب المصطفى في الدعوة إلى الالتزام بأمانة الكلمة: «الصمت حكمة وقليل فاعله».

«أكثر خطايا ابن آدم من لسانه».

ذلك لأن الإنسان قد ينطق بالكلمة دون مراعاة لأمانة مقصدها، بل يلمز الناس بكلماته، وكأنه يطعنهم بسيف قاطع، أو رمح نافذ، وربما كان وخز اللسان أشد وأنكى.

جراحات السنان لها التئام ولا يلتئم ما جرح اللسان

وفي حياتنا العملية وخاصة عند القضاء، والأحكام، والحاجة إلى شهود ثقات.. يقسم الشاهد بالله أنه صادق فيما سيقول؛ وأنه لن يحول الكلمات عن حقيقة مدلولها، وهو يضمن غير ذلك.

بل إنها تُرْفَضُ شهادة من ثبت عليه الكذب قبل ذلك؛ لأنه لم يراعَ أمانة الكلمة، فرب كلمة تنقذ روحاً، ورب كلمة تؤدي إلى قتل روح أخرى.

أما ما هو شائع بيننا جميعاً فهو أمانة الكلمة عند المعلمين والمؤلفين والعلماء؛ ففي الكتابة العامة، وفي موضوعات التعبير والتحرير، لا تقبل أبيات شعرية أو حكم منسوبة إلى غير صاحبها.

ولهذا، فإنه من قواعد التحرير العربي وصحة الكتابة أن يوضع كل منقول أو مقتبس بين قوسين، بعد ذكر صاحبه الأصلي، وكذلك يشار في هوامش الصفحات إلى مصادر هذه العبارات أو الاقتباسات والاستشهادات المأخوذة من الآخرين توكيداً لمراعاة أمانة الكلمة.

وكم كان في مناقشات الرسائل الجامعية من نقد شديد، عندما لا يلتزم الطالب بهذه القواعد في النقل أو الاستشهاد، إشارة أَوْ رَقْماً إلى مصدرها وصاحبه وتاريخ طباعته ورصد مراجع البحث كلها في آخر الكتاب.

وها نحن اليوم، وجميع دول العالم، نتخذ من القوانين النافذة أشدها في الحفاظ على أمانة الكلمة.

وفي جانب معنوي مهم هو أنه ليس من أمانة الكلمة الإعجاب بالرأي: الجرأة على الفتيا، وعدم تردد المرء في الإجابة عن الأسئلة التي تطرح عليه أو على غيره، مع عدم تمكنه في العلم، وذلك لإحساسه بأنه يستطيع التحدث في كل موضوع.

وهذا ما جعل الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه يقول: «لولا الخوف من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحداً، يكون له المهناً وعليّ الوزر».

تلك هي أمانة الكلمة، ودقة استعمالها، وما يترتب عليها من أعمال قد تودي بالإنسان، أو تحقق له خيراً كثيراً.

وما أحرانا أن نلتزم بدقة الحديث، واختيار مدلول الكلمات؛ فإنها أمانة في أعناقنا عندما تخرج من ألسنتنا، وإنني أدعو إلى عدم المبالغة في الأوصاف، وتجنب المدائح الممجوجة، أو الذم والقدح في أناس لأسباب شخصية، ولنتذكر دائماً أن الكلمة أمانة وسنحاسب على كلامنا يوم الحساب، ولنعمل على إثبات أننا لسنا ظاهرة صوتية دون عناية بمدلول الكلمة ومعناها، كما جاء في كتاب عبد الله القصيمي «العرب ظاهرة صوتية».



الإخلاص

يرتبط معنى «القيم» في كل استعمالاته وما أكثرها بالاعتدال، والاستقامة، والثبات والاستواء، والخير، والفضل، وما في مشتقاته، سواء في الماديات أم المعنويات، فيما يخص الدين أو الدنيا، أو ما يخص الفرد، والجماعة، والوطن.

وعصرنا بتحدياته الكثيرة يعرض بعض القيم العليا في عقيدتنا وسلوكنا وثوابتنا إلى الاهتزاز من جراء التأثير ببعض الأفكار الدخيلة علينا.

إنه ليتحتم علينا جميعاً أن نتشبت بقيمنا، ونصرُ بعنادٍ على رسوخ ثوابتنا الدينية والعربية، والوطنية.

كثيرة هي قيمنا التليدة وثوابتنا، فأين نحن منها؟

إن مما يجب علينا التحلي به، والعمل بمقتضاه الإخلاص: الإخلاص بكل صورته. الإخلاص في كل أبعاده.

تحمل كلمة الإخلاص وكل ما يشق من «خَلَصَ» معنى الصفاء والنقاء؛ إذ يُقال «خَلَصَ خُلُوصاً وَخَلَاصاً» صفاً وزال عنه شوبه، وأخلص الشيء أصفاه ونقاؤه وأخلص النصيحة والحب، وأخلص لله دينه، ترك الرياء فيه ومنه «تخالص القوم تصافؤاً».

وقبل كل ذلك تجيء كلمة الإخلاص التي هي كلمة التوحيد، في سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].. لقد جاءت

كلمة الإخلاص ومشتقاته ثلاثين مرة في القرآن الكريم، ووردت في عدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة. ذلك لما للإخلاص من أهمية كبرى، فبتحقيقه تقبل كل العبادات، وبغيا به أو ادعائه تُردُّ كل الأعمال.

الإخلاص من المحامد العظيمة التي يمدح بها الناس والأعمال.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

ومن أقواله ﷺ في الإخلاص: «من أخلص لله أربعين يوماً دخل الجنة»، «من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

وهكذا الإخلاص بعد الإيمان، هو رأس الأعمال وأساسها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وعليه فإنه الشرط الأول لصدق الإيمان، والأساس الأوحد لصحة الأعمال، وأن يكون الإخلاص صادراً عن النية بإخلاص ويقين لا تشوبه شائبة.

أعظم صور الإخلاص هو الإخلاص لله إخلاصاً في الإيمان بوحدانيته، وأنه لا إله إلا هو حقاً وصدقاً قناعة و يقيناً إخلاصاً يسبق كل صلاة كل ركوع وسجود تشعر في نفسك بصدق وانفعال أنك تصلي لله، تسجد له وحده سجد الموقن بتفرده، تدعوه دعاء المؤمن الذي يغمره شعور وفكر قويان بأنه يدعو الله السميع، القريب، المجيب.

تذهب إلى صلاة الجماعة حاشاك أن تذهب ليراك الناس مع الجماعة، أو تذهب ليقال عنك: إنك مؤمن ملتزم، فشعور كهذا يلغي سمة الإخلاص الواجبة حتماً في كل العبادات.

إن صُمت تطوعاً، فلا تكثر من التحدث عن أنك صائم في العمل أو غيره بل اجعل صيامك في نفسك ما استطعت، ليس دعاية أو تظاهراً؛ لأنك صائم سواء صمت عن الكلام عنه أو تكلمت إذاً، فالصوم دون إعلان هو الأفضل والمقصد.

كثيرة إعلانات الموسرين في الصحف عن تبرعاتهم ومعوناتهم للأعمال الخيرية وكثيراً ما تنشر الصحف الشكر ممن نالهم هذا التبرع أو تلك المعونة، كثيراً ما نقرأ بنى فلان مسجداً، أو داراً خيرية لقد نالوا من الناس الشكر والعرفان، لكنهم ربما فقدوا سمة الإخلاص لله تعالى في عملهم؛ فالصدقة أن تكون كما وصفها الرسول ﷺ بما معناه: لا تعلم شمالك ما أعطت يمينك، لكن يبقى لهم حسن الصنيع إذا ما أرادوا بالإعلان حث الآخرين على المزيد من الخير والعطاء، ولقد كنت مبتهجاً مثل غيري حين تبرع من لم يعلن عن نفسه بمئة وثلاثين مليون دولار، أودعها بنك التنمية الإسلامي، من أجل إنقاذ ضحايا الفيضان في بنجلاديش، وهو بذلك أنموذج حقيقي للإخلاص.

الإخلاص في الصلاة في الصيام في كل أركان الإسلام وأعماله الإيمانية الإخلاص في كل عمل، فأنت مراقب من الله تعالى، اعمل بدافع الإخلاص في عملك لله تعالى لا للشهرة أو التميز أو المكافأة، فمكافأة الله أكبر وأعظم.

الإخلاص في العمل ظاهرة إيمانية، يجب أن تكون هي المحرك الحقيقي لكل حركاتنا، والدافع القوي لكل عملٍ لنا.

لا تكن عاملاً متهاوناً في نظام العمل، كثيراً ما يتعلل البعض للخروج من العمل بحجة المراجعة الطبية، أو غير ذلك إنه ليس الإخلاص الحقيقي، فالإخلاص الصادق أن تعطي كل جهدك، كل فكرك، كل اهتمامك، كل وقتك للعمل الذي أنت مكلف بأدائه، وتتقاضى راتباً عن بقائك فيه، إلا لعذر قهري. فإن أهملت قليلاً من وقت العمل بلا سبب حقيقي، فإن في راتبك جزءاً حراماً يعادل إهمالك.

إن كنت معلماً، فليكن إخلاصك طوال الدرس دون كللٍ أو ضجر تعطي الوقت للدرس تبحث عن مزيد من العلم يتصل بما تقوم بتدريسه، الإخلاص يحتم عليك صدق الاهتمام بطلابك والأخذ بيد الضعيف، والعدالة في التقويم، واعلم أن الله يقوم لك عملك، ويعلي لك قدرك إذا كنت مخلصاً للدرس، في وقته، وبالبحث عن كل ما يدعمه ويثري عطائك فيه لطلابك.

أما عن الإخلاص للأهل وذوي الأرحام فحق شرعي أن ترعى والديك، إذا كبرا رعاية صادقة بقلب راضٍ، وشعور مخلص، أداءً لدينهما عليك طوال عمرك وأن تخلص لهما السمع، والطاعة، والبر إذا كانا بخير وعافية إخلاصاً يتفق وما قدما لك من أبوة معطاءة وأمومة حانية.

ولأبنائك الإخلاص في التربية والتوجيه، تقويم صادق لسلوكهم، دوام المتابعة لهم والسؤال عنهم، وقد قلنا في الأبوة: إنها الاهتمام الدائم بالأبناء.

والإخلاص ليس قولاً يُدَّعى، بل عمل حقيقي، لو فتشت عما وراءه لم تجد إلا الصدق في الأداء في كل ما يرتبط بالآخرين.

أما إذا جئنا للجانب الأكبر للإخلاص للوطن الذي أنت لبنة في بنائه، ولو أن لبنة سقطت لسقط معها عدد آخر كبير.

الوطن هو هذه البلاد التي تنتمي إليها، وهو ذاتك وكرامتك، بل كما يقال هويتك:

وطني الحبيب هويتي	أنت الهوى وسعادتي
وطني فداؤك واجب	بالمال، بل بالمهجة
من ذا يفاخر أنني	ابن الجزيرة قلعتي

وقد تسألني: كيف أخلص لوطني.. كل وطني؟!

من الإخلاص للوطن ما سبق الحديث عنه من الإخلاص في العمل، فهو حق لا مناص منه للوطن والناس جميعاً.

أما حق الوطن بوصفه وطناً، فهو أن تكون في كل سلوكك بما لا يضر بالوطن عن صدق شعور، لا تفسد أفكار الناس بالشائعات المغرضة، لا تعكر صفو حياة الناس بالتصرفات السيئة.

دافع عن وطنك بفكرك المستقيم لا تجرفك الانحرافات الخلقية أو الفكرية، ففى ذلك تشويه للصفحة البيضاء التي هي سيرة هذا الوطن.

إن كنت مسؤولاً فكن حامياً لكل ما أوكل إليك من المهام والأعمال، الإخلاص لمن هم فوقك، والإخلاص للعاملين الذين هم

تحت إدارتك، لا تحمل إلى القيادات فوقك شيئاً ليس صادقاً، ولا تهمل ما توجه به الرئاسة من أمور واجبة.

سلطان الوطن والإخلاص له أكبر من كل سلطان، ليس من الإخلاص للوطن أن ترضي من معك في أمر ليس من مصلحة الوطن عمله لا تعطِ أحداً من رجالك والعاملين معك شيئاً بغير حق لا توافق، على مكافآت لبعض دون عمل يساويها، ولا تحرم أحداً من مكافآت يستحقها.

المال العام الذي تحت يديك إذا كنت ممن خولت لهم شؤون مالية أهم من مالك الخاص، إن تضييع المال العام في غير مكانه جرم وخسارة أبشع من تضييع مالك الخاص؛ لأن المال العام هو مال لكل فرد في الوطن؛ فانظر كم مليون صاحب حق سيقاضونك أمام الله.

الإخلاص للوطن أن تدفع عنه كل شر ومكروه عملي، فعلي، معنوي، إذا احتاج الأمر إلى التضحية بالبدن والروح، فهذا حق واجب على من هم مطالبون به، والإخلاص الفعلي ألا تترك بمقدرات الوطن فرصة لتضييع الحقوق، أو تشويه الإنتاج، أو تزييف الحقائق. الإخلاص الصادق الحقيقي أن ترد عن وطنك كل ما قد ينشره أهل الحقد والعداء حول وطنك.

ليس مخلصاً من يجاري الشائعات الكاذبة.

ليس مخلصاً أي إخلاص من ينضم إلى الجماعات الخارجة عن الحق والقانون.

ليس مخلصاً من ييوح بسر أو حقيقة خاصة بوطنه للآخرين،
إذا كان ذلك غير مسموح بنشره.

رحبة دنيا الإخلاص، قوية مشاعره؛ لكنها خفية دقيقة، لا يعلمها إلا الذي خلق الإنسان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

الإخلاص خيط رفيع يفصل بين قبول الأعمال وردّها، يميز بين حقيقة دوافع هذه الأعمال، وما قد تكون عليه من غير إخلاص عند أدائها.

ويأتي ضمن فضائل الإخلاص الإتقان في العمل أيّاً كان نوعه وقدره، وجاء في حديث شريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». وليس لهؤلاء الذين يتذرعون لعدم إتقانهم أعمالهم بقلّة الأجر، أو سوء التعامل، أو غير ذلك من أمور لا دخل لها بحقيقة الإتقان.. ليس لهم مسوغ في التخلي عن جودة الأداء وإتقان العمل المنوط بهم.. إن المرء بين أمرين: إما أن يقبل العمل على أن يتقنه، ويتحرى فيه الدقة والكمال بصرف النظر عما تقرّر له من أجر، أو لا يقبل أدائه لعدم كفاءة ذلك له. إنه ما أضر بالعمل وقلل من ثماره المرجوة غير هؤلاء الذين يقولون: «أدّ العمل كيفما كان» فلا هم أحسنوا العمل، ولا هم أرضوا الله ربهم، وجعلوا أجرهم حلالاً.



وهكذا.. ترأسهم الصادق الأمين

ما أجمل أن يكون المرء صادقاً مع نفسه ومع غيره لا يخدع ولا يُموّه، فكل خداع حتماً سينكشف، وكل تمويه، بالضرورة، ستظهر حقيقته.

وما أكرم أن يكون الإنسان أميناً في تعامله مع نفسه والناس أيضاً؛ إذ الخيانة وصمة عار مرفوضة، وصفة خزي منبوذة، والأمانة بكل معانيها ودلالاتها هي السمة الكريمة التي خص الله بها الإنسان وحده: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. حمل الإنسان الأمانة، وما يترتب عليها من مسؤوليات؛ لأنها ذات أبعاد شاملة كثيرة.

أليست الأمانة من الإيمان؟ فالخائن ليس وثيق الإيمان.

أليست الأمانة من الأمن؟ فالخائن قلق مرتبك مزعزع الوجدان، دائماً يخشى اكتشاف أمره.

أليست الأمانة هي الصفة العظيمة التي وصف بها أشرف الخلق أجمعين منذ صباه «الصادق الأمين»؟

نعم.. الصدق والأمانة سمتان متلازمتان، فالصادق في قوله أمين على الحق الذي يقوله.. والأمين صادق الحفاظ على ما يسند إليه من أمانات.

يفهم بعض الناس أن الأمانة هي مجرد الحفاظ على ما يُودَع لديهم من أموال أو أشياء، يعطونها لصاحبها حين طلبها، وهذه هي أصغر الأمانات.

إنه من الخير للمرء أن يكون أميناً صادقاً مع نفسه، وهو يعمل في مكتبه، أو مصنعه أو مزرعته، لا يخالف الحقائق، أو يزيّف الأرقام؛ أو ادعاء النشاط أو زيادة الأداء.

ويجب أن يكون أميناً في عمله، لا يغيّر الحقائق التي تقوم عليها حقوق الناس ومطالباتهم.. أميناً في تنفيذ كل ما يُوكل إليه بالمواصفات المطلوبة نفسها والجودة المحددة كلها، أميناً في نصحه للآخرين بما فيه الخير والسعادة.. لا يُوقعهم في شرك الضرر أو الخسارة.. أو سوء التقدير عند رؤسائهم نتيجة شيء في نفسه نحوهم.

وبكل يقين لا يمكن أن تشتهر صناعة من الصناعات، وتنجح مهما كان مصدرها ونوعها إلا إذا كانت شركاتها أمينة في اختيار مركباتها، أمينة في تقديم جودة تكوينها، فهذه سيارات معمرة، وتلك أدوات منزلية غالية لكونها متميزة في صناعتها خالية من الغش في موادها. أما الرديء من الصناعات حتى إن اشتهر بين بعض الناس فإنه سرعان ما يسقط في حرب الصناعات المتميزة.

وهكذا المنتجات المغشوشة الأخرى التجارية، والزراعية، فالبقاء دائماً للأصلح والأجود.

هذا معلم أمين اشتهر بين طلابه بالثقة فيه، وبين رؤسائه بالتقدير له؛ لأنه أمين بحق على طلابه، أمين في إعطاء علمه،

وإعداد درسه لا يخشى مفاجأة مشرف أو زائر، وكم من اكتشافات مهنية مخزية، وخسائر مادية ومعنوية مؤسفة وقع فيها أصحابها غير الأمناء في أعمالهم غير الصادقين في تقاريرهم.

قدّم أوراق عملك، وجَهِّزْ تقاريرَ معاملاتك وافية صادقة دون تغيير، تَلَقِ الثقة والتقدير من رؤسائك، فهم ليسوا من البلاهة حتى تنطلي عليهم التغييرات، أو تخدعهم استبدالات الحقائق؛ لأنهم إن طال خداعك لهم حتماً سسيكتشفونه يوماً.. فكم من موظف نال ترقية بسبب أمانة عطائه، وكم من عامل نال جوائز ثمرة صدقه في تنفيذ عمله!

وهناك من عوقبوا بالخصم المالي، بل بالنقل الإداري أو الفصل النهائي؛ لأنهم زيفوا، وغيروا، وخدعوا.

حياتنا العملية في الوظائف والأعمال تحتاج، في كثير من الأحيان وعند بعض الناس، إلى هزة نفسية قوية، وصحة ضمير عاجلة، تجعلهم يؤدون أعمالهم كما يجب أن تؤدي، ويتعاملون مع وظائفهم بأمانة كما يجب أن تكون الأمانة.

ولن أكثر الحديث عن هؤلاء وهؤلاء، إذ تكفي العبرة والعظة درساً عملياً عظيماً في هذه القصة الواقعية الحقيقية لتكون نبزاً لـ
لكل العاملين، وأسوة لكل الموظفين ونموذجاً لكل الأمناء المخلصين الصادقين، إذ تؤكد أن الصدق في العطاء والأمانة في الأداء حتماً ستؤدي إلى الفوز، والترقي، والخير، والتقدير، والثناء.

واليكم هذه القصة الواقعية، فهي أكثر وعظاً من ألف خطيب، وفائدة أكثر من ألف ناصح فصيح.

في صباح يوم ربيعي والشمس الدافئة تنساب إلى مكتب رجل الأعمال العجوز الرئيس التنفيذي للشركة التي يملكها اتخذ قراراً بالتنحي عن منصبه، وإعطاء الفرصة للدماء الشابة الجديدة بإدارة شركته، لم يُرد أن يوكل هذه المهمة لأحد أبنائه أو أحفاده، وقرر اتخاذ قرار مختلف؛ استدعى كل المسؤولين التنفيذيين الشباب إلى غرفة الاجتماع، وألقى بالتصريح القنبلة: لقد حان الوقت بالنسبة إلي للتنحي واختيار الرئيس التنفيذي القادم من بينكم؛ تسمّر الجميع في ذهول، واستمر قائلاً: ستخضعون لاختبار عملي، وتعودون بنتيجته في مثل هذا اليوم من العام القادم، وفي هذه القاعة نفسها: والاختبار سيكون الآتي:

سيتم توزيع البذور النباتية التي أتيت بها خصيصاً من حديقتي الخاصة، ويتسلّم كل واحد منكم بذرة واحدة فقط، يجب عليكم أن تزرعوها، وتعتنوا بها عناية كاملة طوال العام، ومن يأتي بنبتة صحية تفوق ما لدى الآخرين سيكون هو الشخص المستحق لهذا المنصب، وكان بين الحضور شاب يدعى (جيم) وشأنه شأن الآخرين، تسلّم بذرته، وعاد إلى منزله، وأخبر زوجته بالقصة. أسرعَت الزوجة بتحضير الوعاء والتربة الملائمة والسماذ، وتم زرع البذرة، وكان كل يوم لا ينفكان عن متابعة البذرة والاعتناء بها جيداً بعد مرور ثلاثة أسابيع بدأ الجميع، كلٌّ في الحديث عن بذرته التي نمت، وترعرعت ما عدا (جيم) الذي لم تنمُ بذرته على الرغم من كل الجهود التي بذلها، مرت أربعة أسابيع، وخمسة أسابيع، ولا شيء بالنسبة إلى (جيم)، مرت ستة أشهر، والجميع يتحدث عن المدى

الذي وصلت إليه بذرتة من النمو، «وجيم» صامت لا يتحدث، وأخيراً أَرَفَ الموعدُ، قال (جيم) لزوجته: إنه لن يذهب إلى الاجتماع بوعاء فارغ، ولكنها قالت له: علينا أن نكون صادقين بشأن ما حدث، وكان يعلم في قرارة نفسه أنه على حق، ولكنه كان يخشى أشد اللحظات الحرجة التي سيواجهها في حياته.

وأخيراً اتخذ قراره بالذهاب بوعائه الفارغ على الرغم من كل شيء، وعند وصوله انبهر من أشكال وأحجام النباتات التي كانت على طاولة الاجتماع في القاعة، كانت في غاية الجمال والروعة.. تسلل (جيم) في هدوء ووضع وعاءه الفارغ على الأرض، وبقي واقفاً منتظراً مجيء الرئيس مع جميع الحاضرين، كتم زملاؤه ضحكاتهم، وبعضهم أبدى أسفه من الموقف المخرج لزميلهم.

وأخيراً أطل الرئيس، ودخل الغرفة مبتسماً، عاين الزهور التي نَمَتْ وترعرعتْ، وأخذت أشكالاً رائعة، ولم تفارق بسمة الرئيس شفثيه، وفي الوقت الذي بدأ الكلام مشيداً بما رآه مهنئاً الجميع على هذا النجاح الباهر الذي حققوه توارى (جيم) في آخر القاعة وراء زملائه المبتهجين الفرحين، قال الرئيس: يا لها من زهور ونباتات جميلة رائعة! اليوم سيتم تكريم أحدكم، وسيصبح الرئيس التنفيذي القادم، وفي هذه اللحظة لاحظ الرئيس (جيم) ووعاءه الفارغ، فأمر المدير المالي أن يستدعي (جيم) إلى المقدمة.. هنا شعر (جيم) بالعرب، وقال في نفسه: بالتأكيد سيتم طردي اليوم؛ لأنني صاحب الوعاء الوحيد الفارغ في القاعة، عند وصول (جيم) سأله الرئيس: ماذا حدث للبذرة التي أعطيتك إياها؟ قص له ما حدث بكل

صراحة، وكيف أخفق على الرغم من كل المحاولات الحثيثة لرعاية البذرة، كان الجميع في هذه اللحظة ينتظرون ما الذي سيحصل؛ فطلب منهم الرئيس الجلوس ما عدا (جيم) ووجه حديثه إليهم قائلاً: رحبوا بالرئيس التنفيذي المقبل (جيم).

جرت همسات، وهمهمات، واحتجاجات في القاعة؛ كيف يمكن أن يحدث هذا؟ وتابع الرئيس قائلاً: في العام الماضي كنا هنا معاً، وأعطيكم بذوراً لزراعتها وإعادتها إلي هنا في هذا اليوم، ولكن ما كنتم تجهلونه هو أن البذور التي أعطيتكم إياها كانت بذوراً فاسدة، ولم يكن بإمكانها أن تنمو إطلاقاً، جميعكم أتيتم بنباتات رائعة وجميلة جميعكم استبدل البذرة التي أعطيتها له، أليس كذلك؟ (جيم) كان الوحيد الصادق الأمين، الذي أعاد البذرة التي أعطيته إياها نفسها قبل عام مضى، وبناءً عليه تم اختياره رئيساً تنفيذياً للشركة.

والقصة التي عرفنا أحداثها الآن تُختتم بالحكم الآتية:

- إذا زرعت الأمانة فستحصد الثقة.
- إذا زرعت الطيبة فستحصد الأصدقاء.
- إذا زرعت التواضع فستحصد الاحترام.
- إذا زرعت المثابرة فستحصد الرضا.
- إذا زرعت التقدير فستحصد التبجيل.
- إذا زرعت الاجتهاد فستحصد النجاح.
- إذا زرعت الإيمان فستحصد الطمأنينة.

لذا كن حذراً اليوم مما تزرع؛ لتحصد غداً؛ وعلى قدر عطائك
في الحياة تأتيك ثماره.

هذه هي قصة (جيم) وكيف نال المنصب العالي، والتقدير
السامي لأنه صادق أمين، لم يزور، ولم يخدع رئيسه، ولأنه لم يبدل
المعطيات الملقاة عليه؛ فإن كنت مثله فَسِرْ على بركة الله، ولا تُبدل
الطريق، والنجاح حليفك بحول الله.

وإن كنت ممن تلعب بهم أهواء الإضرار بالناس، ومسالك
الهوى فأقلع عن ذلك الضرر، وعُدْ للصواب، واسمع معي الحكمة
العظيمة الهادفة في قول الشاعر:

قد يستلذ الفتى ما اعتاد من ضرر حتى يرى في تعاطيه المسراتِ
أغبى البرية أوفاهم لعادته وأعقل الناس خراق لعاداتِ



حُسْنُ الظَّنِّ

حسن الظن قيمة عظيمة من قيمنا التي ينبغي ألا تغيب عن حياتنا، إنها حُسْنُ الظَّنِّ بالله أولاً، وحُسْنُ الظَّنِّ بالناس ثانياً..

وإذا كان حُسْنُ الظَّنِّ قيمةً عظيمةً الآثار، فإننا في هذا الزمن أشد احتياجاً إلى شيوعها.

أقول ذلك بعد أن انتشرت مجالس الظن، يُحرَّكُها الهوى، ويصنعها سوء الظن، والعجيب أن بعض هذه المجالس يقدمها أصحابها تحت مظلة بحث القضايا الاجتماعية، أو اللقاءات الفكرية وكلّ شخص من الحاضرين يقول: قالوا، سمعنا، وصل إلينا، جاءنا من ثقةٍ.

وقد قيل لأحد السلف حينما سأل: من قال مثل ذلك؟ فقال: جاءني من ثقةٍ فقليل له: الثقة لا يبلّغ.

لهذا، فإن سيئ الظن في هذه المجالس يقدم لحديثه أو كلامه بمثل هذه المقدمات لإثبات ما يقول أو يخبر به، ولا يقدم دليلاً واحداً على ما قال؛ لأنه صُنِعَ هوى النفس وفساد المشاعر.

سوء الظن متحكم في بعض الناس متمكن في كثير من القلوب، يخالط كل فكر، ويتقدم كل عمل، وهو عند صاحبه هذا شعور قوي، فسوء الظن يولد في النفس كخاطرة، سرعان ما تنمو، وتكبر، وتقوى، وبعدها يسبح سيئ الظن في هذا الوادي الخرب الرحب، يصنع فيه الخيال، وينسج أشياء كثيرة لا وجود لها إلاّ عنده هو.

ولا يلبث هذا الخيال أن يصبح فكرة ورأياً عنده في الناس، يتعامل معهم على أساس من هذا الظن السيئ، وهو متوجس من كل علاقة. غير واثق من أي معاملة، ولهذا فهو لا يلبث أن يضع برامج علاقاته مع الناس على أساس من هذا الظن السيئ الذي بدأ خاطرة، ثم تحول خيالاً ملازماً، ثم صار شعوراً ثابتاً، وها هو الآن فكرة تنفذ ومعياري لكل العلاقات يراعى.

ويتمكن هذا الظن السيئ من صاحبه حتى يصل به إلى مرحلة الثبوت والقناعة بأنه هو الحق، وسرعان ما يجد نفسه في خضم الظنون السيئة يفرق في كل تصرفاته وقياس بها كل تعاملاته، بعد أن استسلم للظن السيئ الذي صنعه بنفسه دون إدراك لمدى خطورته عليه، وعلى الناس حوله.

لوفتشت عن حقيقة نفس هذا السيئ الظن.. لوجدته مدمر الشعور، متهدم الأحاسيس، يسيطر عليه الوسواس الخناس الذي طلب الله من عباده أن يتعوذوا من شره.

إنه ضعيف الإيمان؛ فضعف الإيمان يجعل القلب قلقاً مخلصاً، غير ثابت، وغير مدعم الجوانب، به فراغ لمثل هذه الخواطر السيئة، فالقلب القوي الإيمان مشغول بإيمانه، ولوازم هذا الإيمان من التفكير أو الشعور بمثل هذه الأمور الخارجة عن حقيقة الإيمان وصفات أهله.

وسيّ الظن مزلزل النفس ضعيف الشعور بذاته لا يثق في نفسه الثقة المكيئة التي تكون في نفوس المؤمنين، وهذا الضعف وعدم الثقة

هو الذي يفسح المجال للمعاصي وأخطرها سوء الظن بالآخرين ظناً أن الجميع يشعر مثل شعوره.

وصاحب الظن السيئ خائف ضعيف الصمود؛ لأنه بظنه السيئ يتوقع الشر من كل الناس، وكأن الناس عنده لم يخلقوا إلا لدس الدسائس، وحياسة المؤامرات، حتى إنه يفسر كل حركة لمن معه بشر يريده، أو بطش ينوي وقوعه.

وهذا هو السم القاتل لراحة الإنسان وهدوء باله، فهو دائم التوجس مرتاع القلب يخاف وقوع الشر في كل لحظة وكل حركة.

سوء الظن بالله وبخلقه من صفات المنافقين: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

إن الظان بالله ظن السوء له سوء العاقبة في الدنيا والآخرة: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

جاء الظن في ٦٩ آية من القرآن، مكرر لفظه في كثير منها. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]. ﴿وَأَنَا ظَنَنْتُ أَنْ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ تُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢]. ﴿وَوَضُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ [القصاص: ٣٩].

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي».

وسَيُّئُ الظَّنِّ إنسانٌ مدمَّرُ الدَّاخلِ، ضعيفُ الإرادة؛ لأنَّه يخاف كلَّ شيءٍ، ويشكُّ في صحَّةِ وخير كلِّ الناسِ، دونَ توكلٍ على اللَّهِ والاحتماء به، ليتَّه يعي قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].. لكنَّه لا يدري لشدةِ تمكُّنِ سوءِ الظَّنِّ من كلِّ تحركاته أنَّ سوءَ الظَّنِّ محرمٌ شرعاً، كما جاء في قولِ الحبيبِ المصطفى: «إياكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ».

بل إنَّ سوءَ الظَّنِّ يكونُ محرماً قطعاً، كما ذكر ذلك العلماء، إذا أسَّيءَ به مسلمٌ، وإذا انقلبَ إلى عملٍ واتَّهامٍ للآخرين، حتى لو تظاهر صاحبه بالرغبة في الإصلاح والخير.

نعوذُ باللَّهِ من سوءِ الظَّنِّ، أنْ يدخلَ نفوسنا، أو يطرقَ أبوابَ قلوبنا، أو يخالطَ أحاديثَ مجالسنا، وأنَّ يجعلنا ممن يظُنُّونَ الخيرَ باللَّهِ والناسَ أجمعين.. وأنَّ يهيئَ لنا قبولاً إذا ما رأينا شيئاً يوحي بسوءِ الظَّنِّ بهم.

إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ أهمُّ سماتِ المؤمنِ، وقد جاء في الأثر أنَّ النَّبيَّ ﷺ صعد المنبرَ، ونادى بصوتٍ مرتفعٍ، فقال: «يا معشرَ من أسلمَ بلسانه ولم يفضِ الإيمانَ إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم» ويدخلُ في ذلك سوءُ الظَّنِّ بالمسلمين.

قال أحدُ السلف: «حُسْنُ الظَّنِّ باللَّهِ ألا ترجو إلا اللَّهَ، ولا تخاف إلا ذنبك» وقال الآخر: «والذي لا إله إلا هو ما أعطي قوم قط خير الدنيا والآخرة إلا بحُسْنِ الظَّنِّ باللَّهِ ورجائهم له، والكفِّ عن اغتيابِ المسلمين».

وكما قيل: «رأس العبادة حُسْنُ الظَّنِّ بالله»، ومن أحسن الظَّنِّ بالله، دفعه ذلك إلى حُسْنِ الظَّنِّ بعباده.

وقبول العذر من أكرم الصفات، وفيه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تَظُنُّ بأخيك سوءاً بكلمة قالها ما دمت تجد لها في الخير محملاً» فصارت هذه الكلمة قاعدة أساسية في التعامل مع حسن الظن، والتماس العذر حتى لمن أساء إليك بقول أو عمل، إذ إن العفو عن المسيء يمثل رادعاً قوياً له، فلا يعود لمثل خطيئته، ويجعله يشعر بالندم على فعلته، والعفو عند المقدرة من شيم الكرام.

كم من علاقات حميمة أعرفها دمرها سوء الظَّنِّ، وها هي مواقف كثيرة ما أريد بها إلا الخير وصالح العمل ظُنَّ الناس بها سوءاً، فتحولت آثارها عندهم شراً.

ولا يعرف عواقب سوء الظَّنِّ إلا من عانى الظَّانِّين به سوءاً؛ إذ تصل المعاناة إلى حد القهر والشعور بالغلبة، وأنت في داخلك ما قصدت إلا الحق، وفعل الخير الواجب في هذه المواقف.

فكثير ممن يفعلون الخير مخلصين النفع للبلاد والعباد يُواجهون من أصحاب النفوس المريضة المزيفة بما يشوه جمال القصد في أعمالهم التي لا يريدون بها إلا الصالح العام، وهم يؤدونها في ظل من العمل المستقيم، وإرضاء رب العالمين؛ لكنه سوء الظَّنِّ.

ويندرج في مدارج سوء الظَّنِّ ما شاع بيننا اليوم من التهجم على بعض المخلصين المجتهدين، وسوء الظَّنِّ ببعض المصلحين واتهامهم بالخروج عن حقيقة الدين وتطاول المتطعين الذين

دفعهم تحجرهم الفكري إلى سوء الظن بإخوانهم الفاهمين أن الإسلام دين السماحة الصالح لكل زمان ومكان، وهم ينسون جليل أعمال هؤلاء الناس، ويتلمسون ما يظنونونه عملاً خارجاً عن الدين؛ وذلك لسوء فهمهم، معرفتهم بحقائق الأمور.

إني حين أدعو مؤكداً إلى ضرورة دفع سوء الظن، وتغليب حسنه على سوته، فإنني في المقابل لا أريد أن يكون الإنسان غراً غريراً ساذجاً؛ بل يجب أن يكون لماحاً، يعرف ما وراء القول أو ما تحمله المواقف من صدق أو نقيضه، فلا تتطلي عليه كلمات السفسطائيين، ولا مدهانات الخداعين، وأفضل عمل للوقوف على الحقيقة وكشف أسرار الكلام والمواقف هو مواجهة من تظن أنه قصد سوءاً بما يقول أو يفعل؛ فقد يتبين لك ذلك أو خلافه.

وأخيراً أكرر، وأؤكد أن حسن الظن بالناس، والتماس العذر لهم هو ما حثنا عليه الدين، وأن حسن الظن عبادة من العبادات، وأدب من آداب الإسلام، وأن سوء الظن معصية من معاصي الله، وحين نعلم أن النية خفية؛ لأن محلها القلب، وأن حسن الظن بالمسلمين مطلوب، وسوء الظن بهم ممنوع تبين لنا عظم ذنب من يتهم الناس في نياتهم، وأخلاقهم، وعقائدهم، وأماناتهم، من غير دليل واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، والأدلة الشرعية على ذلك كثيرة.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «مهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنه خبيث في الباطن، وإنما يرى غيره من حيث هو؛ فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق الكافة».

والى هذا المعنى أشار المتنبى بقوله:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

أي إذا كان فعل المرء سيئاً قبيحاً ساء ظنُّه بالناس، لسوء ما
انطوى عليه هو، وإذا توهم في أحد ريبة أسرع إلى تصديق ما توهمه
لما يجد من مثل ذلك في نفسه.



العدل

العدل هو الاستقامة عدل الميزان. العدل هو الإنصاف، وهو إعطاء المرء ما له، وأخذ ما عليه، والعدالة عند الفلاسفة إحدى الفضائل الأربع وهي: «الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة».

العدل هو أن يصرف الإنسان أمور نفسه، وأمور الناس على قانون لا عوج فيه ولا زيغ، ولا استثناء، ولا ظلم، ولا محاباة، وأن يسيّر أعماله على قانون إلهي لا تبدل فيه، كالقوانين التي تُسير الشمس، والقمر، والنجوم، والرياح، وتصرف العالم كله كما يشاء الله.

العدل فرض إلهي محتوم، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧-٩]. العدل هو الرحمة التي شملنا بها الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّيرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

ليس العدل أمراً يسيراً تتصرف فيه الأهواء، وتتلاعب به الرغبات والعصبيات، وليس العدل شيئاً يباع بالرخيص من متاع الحياة الدنيا، لكنه نظام في العالم، وفي الاجتماع البشري لا يستقيم شيء إلا به؛ فالكون كله بكل فئاته ومخلوقاته يسير وفق العدل الإلهي: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...﴾ [الحديد: ٢٥].

إن العدل من أسمى القيم التي يجب أن تبقى قوية الأداء لا تدبل أبداً.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا ۖ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

هذا هو العدل بحقيقته كما أمر الله، حتى مع من لا يدين بديننا.

فأين العدل اليوم في العالم على مستوى الدول؟ لقد انحرف كثيرون عن إقامة العدل في القضايا السياسية، والاجتماعية، على مستوى الدول والأفراد.

وما نراه اليوم من مواقف سياسية تجاه قضايا المسلمين عامة، وفلسطين خاصة هو ضد العدل بكل صوره؛ لأن الدول صاحبة النفوذ والقوة جعلت قوتها مصدراً للعدل، كما تراه هي، فأصبحت القوة هي التي تصنع الحق، بدلاً من أن يصنع الحق القوة..

لقد حفظنا منذ زمن طويل مقولة «صاحب الحق قوي» لكن هذا قد تغير في هذا الزمان كثيراً.

وفي حياتنا العملية كثيراً ما يضيع الحق على الرغم من وجود قوانين العدالة في كل مكان وفي كل عمل، ففي الوظائف، والأجور،

والدرجات المالية، والدرجات الدراسية، كثيراً ما تتحرف الطريق عن العدالة المطلقة التي هي حقيقة العدل الإلهي.

ولا يجيء الحديث عن أهمية العدل وخيره للناس في الدين والدنيا من غير بيان للظلم وعواقبه الوخيمة.

يشدد القرآن الكريم في النهي عن الظلم، ويشدد الأمر بالعدل، ويبين عاقبة الظلم على الأمم والأفراد.

الهلاك القاصم كان جزاء الأمم الظالمة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥].

﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

هذا هو جزاء الظلم، وعليه فالعدل هو النجاة، العدل في كل حياتنا، حتى في الكلمة التي ننطق بها.

وإذا كان العدل أساس الملك، فإن مالك الملك رب العزة والجلال، وهو العدل المطلق يلفت نظرنا إلى ضرورة التمسك بالعدل، والعمل به في كثير من آيات القرآن الكريم.

صور كثيرة للعدالة المطلقة في أدق أمور حياتنا الخاصة والعامة، العدل بين الأبناء في النفقة، في الميراث، في الحب والرعاية، حتى في الدعاء لهم.

العدل بين الزوجات، إذا كان هناك تعدد: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

العدل في تطبيق النظم واللوائح، في توزيع الترقيات والمكافآت، في اختيار الموظفين والموظفات؛ لأن الله تعالى يقول للإنسان: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]. فالتسوية هي الجمال والاستقامة، ثم العدل غير التشويه والاعوجاج.

إن حياة يسودها العدل حياة مستقرة آمنة، فالعدل بين الأبناء والزوجات هو سر الهناء والاستقرار، ونجاح الأبناء وسعادة الآباء. العدل في الإدارات والمؤسسات هو الطريق إلى الرضا وإخلاص العاملين، وكثرة العطاء والإنتاج، وتقدم الأوطان.

لقد حملت إلينا كتب التاريخ الإسلامي من مواقف العدل ما يقف الإنسان أمامه مبهوراً بما يحققه العدل من نتائج، وما يشيعه من استقرار وأمن.

وكلنا يحفظ قوله ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

ولا تغيب عن أذهاننا أبداً قصة عمر بن الخطاب الخليفة العادل ورسول كسرى، حين جاء رسول كسرى الفارسي إلى المدينة المنورة ليقابل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ظاناً أنه سيجد قصرًا شامخاً، وحرساً كثيراً، كما يرى حول إيوان كسرى في بلده.. ولما وصل إلى المدينة سأل: أين قصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؟ فأشاروا إلى منزله، ولم يصدق أن هذا هو منزل أمير المؤمنين الذي

يرهبه كل الملوك إلا أنهم أكدوا له ذلك، ولما لم يجده في البيت طلب معرفة مكانه الآن، فأشار أحد الناس له إلى رجل ينام تحت شجرة بثياب لا زهو فيها ولا تميز، يضع ذراعه تحت رأسه نائماً مستريحاً في نومه: فقال مقولته الشهيرة «حكمتَ فعدلتَ، فنمتَ مستريحاً يا عمر».

وقال حافظ إبراهيم في عمريته مذكراً لنا بهذا الموقف:

وراعَ صاحب كسرى أن رأى عمراً	بين الرعية عطلاً وهو راعياً
وعهده بملوك الفرس أن لها	سوراً من الجند والأحراس يحميا
فوق الثرى، تحت ظل الدوح مشتملاً	ببردة كاد طول العهد يبليها
فقال قولة حق أصبحت مثلاً	وأصبح الجيلُ بعد الجيل يروها:
أمنتَ لما أقمتَ العدل بينهم	فنمت نوم قرير العين هانها

ولكن هذا العدل الشامل الكامل المطلق لا يمنع أصحاب الملل الضالة أو النفوس الحاقدة، أو مَنْ أُوغرت صدورهم بأفكار شريرة، وغيرهم من أهل الفكر المنحرف، عن القيام ببعض عدواتهم، وتنفيذ ما يرونه صواباً في عقيدتهم، فها هو المجوسي أبو لؤلؤة يطعن عمر وهو قائم في الصلاة، ومثل هذا يقع اليوم في بلادنا المسلمة ما يلزم معه اتخاذ الاحتياطات الأمنية توقعاً لكثير من أمثال عمل ذلك المجوسي القاتل.

إن ما حدث من ذلك الآثم المجرم في ليلة من ليالي رمضان المبارك عام ١٤٣٠ هـ حين استقبال صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف له لأمر فظيع، لقد عُرف عن هذا الأمير أنه درع الأمن، وصاحب عدالة مطلقة بين الجميع كما هو حال كل أولي

الأمر في بلادنا مشهود له بالتواضع وحسن الاستقبال.. يأتي هذا الغادر الذي أعلن مجيئه ليتوب من جرائم كثيرة قام بها؛ فأعطاه الأمير محمد بن نايف الأمان، واستقبله أحسن استقبال، فإذا بهذا المجرم يحاول تنفيذ جريمته المتمثلة في الفتك بالأمير الذي فتح بابه وقلبه له.. ولكن الله العلي القدير قدر باللطف الإلهي أن يمزق هذا المجرم نفسه بما كان يخفيه في بدنه من متفجرات، وينجو الأمير دون أدنى أضرار: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].. فجرائم هؤلاء الضالين من الوضوح والكثرة والتدبير اللئيم، بحيث لا يكون هناك أدنى شك في بُعدهم كل البعد عن الإسلام وأخلاقه وقيمه العليا، وأولها العدل، وإقامة الأمن، والمساهمة من المسلم الحق في نشر الأمان.

لقد وقفت بنفسي على مكان الحدث، ورأيت فظاعة الجريمة وبشاعتها ومع الأسى والألم الذي يشعر به كل محب لوطنه فإن تلك الجريمة برهنت برهاناً قاطعاً على أن تلك الفئة الباغية ليس عندها دين، ولا أخلاق، ولا إنسانية.

لقد كان كلام الأمير محمد هاتفيّاً مع ذلك الجاني المجرم كلاماً لم أجد أكثر منه حنوّاً وعاطفة، وهو أرقّ من حديث والد مع ولده، أو صديق حميم لصديقه؛ ومع ذلك أضمر ذلك الشرير، وخطط مع زمريته الضالة فعلته النكراء، إنه غدر لا يماثله غدر، ولؤم يتعدى حدود المعقول!! وبعد هذا كله يقولون: إنهم مسلمون!!

إنه الطبع الرديء، والحقد الدفين، والبعد عن الإسلام وتعاليمه، هو ديدن هؤلاء المجرمين، ومن يدفعونهم، ويغرون بهم،

ويضللون أفكارهم. لقد كانت نجاة الأمير محمد بن نايف معجزة أراد الله أن يعلمنا من خلالها أن الباطل زاهق، ولعل عقول الغافلين تستيقظ، وتأخذ العبرة من تلك المعجزة.

لقد آن لنا أن نجتث مصدر هذا الإجرام المتمثل في المغررين بعقول وعقيدة هؤلاء البسطاء السذج؛ لأنهم المنبع الخبيث للنز، ويجب تجفيفه والقضاء على ما فيه، واجتثاث مصدر الإرهاب الإجرامي واجب ديني حتي تتحقق العدالة، وتعم الطمأنينة، ويسود القانون بدلاً من العمل الوحشي الذي يزاوله هؤلاء الإرهابيون.

ومهما كانت الحال، ومهما حدث من أعداء العدل والمجرمين في حق الأمن، فإن للعدل ثماراً عظيمة تسعد بها البشرية، إن هي استقامت على العدل، وتركت أسباب الظلم، وليس هناك ظلم أفدح مما يقوم به ذلك النفر الشرير.

إن عالم اليوم عالم مع ما فيه من مظاهر الحضارة المادية تغيب في معظم ممارساته قيمة العدل وحقيقته، ولو أن العدل ساد كما ينبغي لما وجدت شحناء بين الأفراد أو الدول، ولعاش العالم كله في سلام.

إنه لو وجد العدل حقيقة لما وجد امتعاض ولا حزازات فردية، أو اجتماعية، أو دولية، فكثير من الناس الآن يفصل ثوب العدل كما يراه هو، وكما يحلو له بمقاييسه التي يريدها.



التواضع.. لا التكبر سمة المؤمنين

يشدني إلى كثير من الناس حُسْنُ خلقهم، المتمثل في تواضعهم تواضعاً جماً يجذبك إليهم، مع أن الكبرياء لو كانت لها مقومات، فإنها تنطبق عليهم شكلاً وموضوعاً؛ لأنهم يمتلكون كثيراً من هذه المقومات إن لم يكن كلها؛ نسبٌ شريف، مال وفير، عقل راجح، ثقافة واسعة، منصب وجيه رفيع، شهادات علمية عالية، حسن خلقٍ وخلقٍ، وشخصية جذابة آسرة.

لكنها الثقة بالنفس بعد فضل الله أعطت ذلك الإنسان ميزة التواضع، التي مكنته من التواصل والتأثير، والقرب من الناس، وفي حياتي كذلك لم أجد متكبراً إلا وقد خلا من كثير مما ذكرت من تلك المقومات أو كلها.

أتعجب كثيراً، متكبر مفلس من كل دواعي التكبر، متغطرس ظاناً أنه فوق الناس ناسياً أنه لا شيء فيه أكثر من الناس إن لم يكن دونهم.

ومن طريف الأحاديث عن التكبر ذلك الإنسان الذي كان يشكو من كبرياء أحد معارفه الذي نال الدكتوراه شامخاً بأنفه، فقال له صديقه: دخلتها جاهلاً متواضعاً وخرجت منها جاهلاً متكبراً.

قاصداً بذلك دخوله الجامعة وتخرجه فيها، وحصوله على الشهادة العليا منها.

نقل هذه الرواية أحد زوار معالي الوالد الأستاذ عبدالعزيز بن عبد المحسن التويجري رحمه الله فأعجب بهذا البيت، وصار يتمثل به عندما يمر بمثل هذا الموقف.

• ما التواضع؟ من المتواضع؟

• هل أنت وهل أنا من المتواضعين حقاً؟

ما أجمل التواضع خلقاً، وما أعز المتواضع إنساناً نبيلاً عظيماً، وها هو الصديق رضي الله عنه يقول: «وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع».

ونحن بهذا التواضع ننال الشرف الأعلى، والمقام الأسمى، حتى إن الجمادات إذا تواضعت لله تعالى فإنه سيرفعها، وهذا ما قاله مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليهم السلام شمخت الجبال، وتطاولت، وتواضع الجودي، فرفعه الله فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه.

وهكذا في كل الأمور التواضع يزيدها ويرفعها، فالتواضع يزيد الإنسان حكمة: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» [البقرة: ٢٦٩].. لذلك، فإن الله تبارك وتعالى يرفع حكمة العبد إذا تواضع له، ويضعها إذا تكبر، وفي ذلك جاء قول الرسول ﷺ: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك؛ فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكيمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكيمته».

واليوم ها هي مغريات الحياة تجعل بعض الناس الذين أوتوا حظاً من متاعها الزائل يشمخون بأنوفهم، ناسين أن هذا الصلف مكروه، وأن الغرور بهذا المتاع إلى هوان.

بعض أصحاب المناصب يتعاملون باستعلاء مع الناس القاصدين أبوابهم، وهم يعلمون أن كل إنسان يقصد بطلبه الله تعالى دون حاجز أو مانع.

بعض أصحاب العلم غرهم علمهم الذي ظنوا أنهم به فوق الناس، ناسين قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

لكن، والحمد لله الغالبية العظمى في شتى جوانب الحياة هم إلى التواضع أقرب، وبالرفق وباللين الصق، وإلى قلوب الناس وخدمتهم أدنى وأحب.

كيف تتكبر أيها الإنسان، وأنت لا تستطيع أن تصبر إذا لدغتك نملة أو بعوضة.

أتذكر، وكلنا يعرف قصة النمرود الذي تكبر على الخليل إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهو الطاغية الذي أذلته البعوضة، حين دخلت في أنفه، وعلت إلى رأسه، فصارت تطنّ فيه، فيصرخ ألماً، وكان لا يهدأ من هذا الألم القاتل إلا حين يضربه الخدم بالنعال فوق رأسه، يستريح قليلاً، ثم تعود البعوضة للطنين، فيعود ضرب الأحذية على رأسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

لقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس تواضعاً، ولقد اختار أن يكون عبداً رسولاً عن أن يكون ملكاً نبياً، وروي من الأحاديث: «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق الله الكون قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أملكاً نبياً يجعلني، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: بل عبداً ورسولاً».

أشرف الخلق والمرسلين أنموذج غير متكرر في التواضع الجَم، والرحمة الشاملة وطيب النفس السامية.

كيف نقارن ذلك ببعض الذين يتكبرون، حتى على أولادهم وآبائهم غروراً ومقتاً.

ولست أنسى أبداً تلك الوصية التي جاءتني في رسالة المغفور له معالي الشيخ عبدالعزيز بن عبد المحسن التويجري، حين شرفت باختياري وزيراً للمعارف، وكانت هذه الرسالة منهجاً عملياً لكل من يبدأ عملاً مثل هذا، لقد كانت الوصية الأولى، في هذه الرسالة.

«ادْخُلْ عَمَلَكَ متواضعاً، أحكم تصرفاتك بانضباط لا يطفئ عليه انفعال يكون له ردود فعل في نفس زميل لك في الوزارة، أشعر مسؤوليك أنه لا تمايز بينك وبينهم، وأن وجودك معهم غاية ووسيلته الخدمة العامة وتنشيط الأهداف».

وكم كان لهذه الوصية الأولى من بين وصاياهم ﷺ أثر في حياتي، أدعو الله أن أكون قد وفقت إلى التحلي بها، وألا يكون قد

بدر مني تصرف يخالف صفة التواضع، وأعتذر لكل زميل قد لمس شيئاً غير مقصود فهمه ذاتياً، أنه ليس من سلوك التواضع؛ لأنه لا يليق بالإنسان الضعيف إلا أن يكون متواضعاً مع كل إخوانه المسلمين.

إن التواضع الذي أذكر به ذلك التواضع العفوي غير المصطنع، الفطري غير المتكلف، ومما يدهشني أن أرى الصغير يُقبل رأس الكبير، حين يكون ذا سلطة أو جاه أو مال، ولا يفعل ذلك مع غيره من البسطاء، حتى الزاهد العابد التقي من الناس.

رحم الله آبائنا؛ فلقد دأبوا على حثنا أن نُقبل رؤوس الكبار عامة، وأن نفسح لهم في المجالس، وألاّ نسبقهم في الدخول، أو الخروج، ولا نتحدث إلاّ بإذن منهم، وألاّ يعلو صوتنا عند اللقاء بهم، أو الجلوس أمامهم، وأن ندعو كل واحد منهم بـ «يا عم يا خال». إنه تواضع بلا هوان، تواضع بلا صغار أو استهانة بنا منهم أو فرض منهم علينا، لكنه فطرة التواضع المترجم للحب والاحترام.

ومما يؤلم النفس أن ترى متكبراً فخوراً متغطرساً يحتقر آراء الآخرين، ويقلل من قدرهم ويسفه آراءهم؛ لأنهم أصغر منه سنّاً، أو أقل شهادة، أو طلاب علم منه «ناسياً أنه خُلِق من طين، وأن الطين يُحرق بالنار، فيصير فخاراً، ولا بد للفخار أن ينكسر».



الحياء

لا أنسى ذلك الطالب في المرحلة المتوسطة بمعهد إمام الدعوة (في الرياض) في أول عام لي بمهنة التعليم، حين طلبت من طلاب الفصل الكتابة عن (العيد) في موضوع التعبير، ونقل هذا الطالب موضوعه من (اجتلاء العيد) أحد موضوعات الرافي في كتابه (وحي القلم)، ولما واجهته بالأمر تصيب وجهه عرقاً، واصفر محياه حياءً وخجلاً وأسفاً؛ مع أنني أعطيته درجة يستحقها جزاء معرفته بمصادر الأدب العليا؛ لأنه مع صغر عمره توصل لمثل هذا الكتاب وقرأه.

أتذكر هذا الموقف كثيراً، وقد دفعني ما حدث فيه إلى الحديث عن الخجل والحياء.

ما الخجل؟ وما دوافعه؟ ما مظاهره؟ وما الحياء المستحب؟ وما الفرق بينهما؟

تستعمل كلمة الخجل أحياناً بمعنى الاستحياء، وهذا معنى مرغوب فيه، وأقول بألم شديد: أين الاستحياء اليوم عند بعض الناس؟ كأنه دفن مع من دفنوا من أعلام الشيوخ وأكارم الرجال والنساء.

إن للخجل معنى آخر يختلف به عن الحياء، وإن خلط بعض الناس بين المعنيين.

الحياء هو التأدب والاحترام، وهو ما يدعو له الدين؛ لأنه خلق رفيع، وسلوك نبيل، وحتى لا تدبل هذه القيمة العظيمة، فإني أناشد كل الناس التمسك به، والتحلي بفضائله في كل تعاملاتنا، وفي جميع لقاءاتنا، وفي داخل بيوتنا وخارجها مع أهلينا، وكل من يتعامل معنا.

الاستحياء هو الاتصاف بالحياء، والعمل به: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ [الفصص: ٢٥]، لكن يجب ألا يكون الحياء مضيئاً للحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

«الحياء شعبة من الإيمان» حديث شريف قاله الحبيب المصطفى ﷺ الذي قال عنه أبو سعيد الخدري رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه».

وقد قال ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»، وقال ﷺ: «إن مما أدرك من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

أما الخجل الذي هو نقیصة في حق من يتصف به فهو ذلك الشعور الذي يعتري الإنسان في بعض المواقف حتى يحبسه عن التعبير عن حقه إذا كان صاحب حق، ومرد ذلك إلى التكوين النفسي، وأعرف بحكم تجربتي كيف أن الخجل السلبي قد يخفي وراءه قدرات فذة عند من هو متصف به.

ومن ذلك أن بعض طلابي حتى في المرحلة الجامعية، حين أطلب منه أن يكتب في موضوع ما، فإنه يسطر بأنامله رائع فكره

وأسلوبه، يجري هذا أمام ناظري في الدرس، وحين أطلب منه أن يُلقي أمام زملائه ما كتب، فإنه يقف مضطرباً مبهوتاً، قد تملكته الحيرة، وتولاه الخوف والارتباك، فأشعر بالشفقة عليه حين يحمر وجهه، وينعقد لسانه، إذ لم يستطع النطق إلا بكلمات مقطعة لا تكاد تبين.

ومنذ سنوات قليلة مضت كنت في لقاء علمي، فهمس أحد الحاضرين من الأساتذة الجامعيين في أذني بأفكار جميلة، جديدة، جريئة، في الموضوع نفسه الذي عقد من أجله هذا اللقاء العلمي، عبّر لي عن أفكاره هذه خير تعبير، فقلت له: هذه أفكار عظيمة لا بد أن يسمعها الحضور؛ فقم وتحدث عنها، وبعد إصرار مني على ذلك قام مرتبكاً خائفاً، شارد اللب، مرتعش الأعضاء، مصفر الوجه، طويل الصمت والتفكير، ثم تكلم كلاماً بصوت متهدج، ونفسٍ متقطع، لم يفهم منه الحاضرون شيئاً من هذه الأفكار العظيمة.

فما الذي يحبس لسان هؤلاء الطلاب، فلا يجروؤن على الانطلاق متحدثين ومجيبين؟!

وماذا اعتري هذا الأستاذ الجامعي أذا حفل فلم يسعفه الموقف السليم والقول المرسل في التعبير المفيد عن تلك الأفكار؟ لا شك أنه الخجل، وهنا يتبين الفرق بين الحياء المطلوب والخجل المرفوض.

يعتري الخجل بعض الناس في مواقف متعددة في الحياة، والمرء منا قد تصادفه هذه المواقف، وتمر به هذه التجارب، ولكن حين لا يكون ذلك دائماً، فإنه مقبول لا غضاضة فيه، وقد مرّ به أنمة فضلاء، عرفوا بفصاحتهم، وانطلاق سجيّتهم، وغيرهم، ومنهم

الخليفة الراشد الذي صعد المنبر يوماً، فارتج عليه على غير عادته ولم يستطع أن يقول ما كان يريد، فقال مقولته الشهيرة: «أنتم في حاجة إلى إمام فعّال أكثر من إمام قوّال»، وهذا النوع من الخجل يُعرّف بخجل «المواقف» وأمره هين، وعلاجه يسير، يتمثل في الاستعداد المبكر للتعرف إلى ما سيواجهه الإنسان؛ إذ إن خجل المواقف، هو نتيجة المفاجآت غير المتوقعة.

أما الخجل بالمعنى العلمي النفسي فهو الذي يلزم صاحبه، ويغلب عليه أينما سار، ويمنعه خجله من أن يشترك مع أفراد مجتمعه في مظهر طبيعي فيما يأخذون ويتركون من أمور الحياة، إذ يزداد خجله أمام الناس، وبخاصة الغرباء دون سبب.

وصاحب الخجل بهذا المفهوم هو أشد الناس حاجة إلى الرعاية والمساعدة، وإذا لم يسعفه العلاج زادت حالته على الأيام سوءاً، ووقف خجله عقبة كؤوداً في سبيل ما ينشده من السعادة والنجاح، بل في سبيل إشاعة فكرة طيبة يملكها أو عمل مفيد يحققه.

إن الخجل الدائم الناتج عن ضعف الثقة بالنفس، أو شعور صاحبه بنقص في جانب من جوانب قدراته، كافتقاره إلى بعض المملكات هو الذي يحتاج إلى علاج، والعلاج يكمن في تدريب صاحبه تدريباً مستمراً على معالجة المواقف التي كان يخشاها؛ حتى يتبدد خجله، ويواجه هذه المواقف بثقة وشجاعة، ومن وسائل هذا التدريب حمّله على مجالسة الناس، وحسن إصغائه لما يقولون، وملاحظة ما يؤثره من أنواع الكلام، وتمرينه على الاشتراك معهم فيما يتبادلون من أمور، ولو اقتضى الأمر أن يُعدّ هو مسبقاً الكلام الذي

سيشترك به، ويأخذ نفسه بالمران عليه، حتى يحذقه، فيكسب بذلك نوعاً من الاطمئنان النفسي يغالب به الخوف والخجل.

ومن خلال تجاربي في الحياة، فإن هذا الخجل السلبي قد يحرم الناس مما يكون عند صاحبه من وجهات نظر سليمة، ويتيح المجال لمن قل حياؤهم، وقصرت عندهم أفكار ذلك الخجول أن يسيطروا على المجالس.

ألا نشهد هذا كثيراً في بعض المؤتمرات والندوات المختلفة؟! وكم يحرم الناس من الفكر الصائب عند ذلك الخجول دونما داعٍ لخجله؟ كما حدث مع الأستاذ الجامعي الذي أشرتُ إلى موقفه.

هذا.. وكل ما أقصد طرحه هو النظر إلى الصحيح من القيم، فالحياء الذي هو شعبة من الإيمان هو أن يستحي الإنسان أن يقول في أمر لا يعرف عنه، أو يدعي الخبرة في موضوع هو جاهل به أو أن يتبجح بذكر مواقف بطولية لم يقم بها أو ذكر مواقف غير مشرفة، ومع ذلك يتباهى بفعالها، أو أن يطالب في غير أدب بشيء ليس حقاً له أو يتسلط على مجلس ضمه دون مراعاة للآخرين مكانة وتحداً أو أن يأتي من الأفعال ما لا يليق بالإنسان فعله، أو يتصرف تصرفاً مشيناً، متوهماً أنها البطولة منه، وأنها تلفت النظر إليه.

إن من حُرِّمَ نعمةَ وُحِّلَ الحياء حُرِّمَ بذلك الكثيرَ الجميلَ من عظيم الصفات، فهو متبلد الحس، جامد الشعور، لا يخاف الله، ولا يرعوي أمام الناس والمواقف، ولا يشعر بما يجب أن يشعر به كل إنسان كريم الطبع جميل الشعور إن من حُرِّمَ نعمةَ الحياء فهو كالجماد بلا حس.

أليس الكذابون قد خلوا من الحياء، وانعدم لديهم شعور الخوف من الله وافتضح أمر كذبهم أمام الناس؟ وينطبق هذا الخزي، وقلة الحياء على اللصوص، والمرتشين والمنافقين، وأمثالهم ممن لا يقيمون للخُلُقِ وزناً، ولا يعرفون لسمو النفس طريقاً.

ويأتي ضمن من فقدوا الحياء، وتركوا مكارم الأخلاق هؤلاء المتزلفون.. الذين يبالغون في أحاديث النفاق وأعمال الرياء.

ويأتي ضمنهم المداحون المغالون، وما عَرَف هؤلاء أنهم قد يكونون مستهجنين حتى ممن يمدحونهم؛ لعلمهم بكذب أقوالهم، وعدم مصداقية شعورهم؛ ألم يرد في الأثر ما معناه: «إذا أتاكم المداحون فاحثوا في وجههم التراب»، وينتج عن المغالين في المدح أحياناً تأثيرٌ في نفوس بعض الممدوحين، إذ هي تخدعهم بل تضلهم عن الصواب وربما تجرفهم إلى غير طريق الحق، ويدرك كثير من الناس كيف أن فاقدي الحياء قد يغررون بأناس يُرجى منهم الخير، ويؤمل فيهم الصلاح لكنهم لكثرة هذا النفاق من المادحين لهم قد يخرجون عن طريقهم القويم.

وإني لأتساءل متعجباً من هؤلاء الذين فقدوا الحياء نفاقاً وتزلفاً وكذباً ألا يعلمون أن الرزق بيد الله، وأن العمر محدود عند الله، ولن يُنْقِصَ أحد رزقك، ولن يقطع لحظة من عمرك؟ قال أحد الصالحين: «أمنت أن رزقي لا يأخذه غيري، فاطمأن قلبي».

الحياء أهم مقومات الآداب الإنسانية عامة، والإسلامية خاصة، وندم من فرط فيه، وشائع وصف من يرتكب مذمةً أن يقال له: «قليل الحياء».

أما الخجل غير المحمود فهو الانزواء عن الحياة، والانطواء على النفس، والامتناع عن قول الحق أو طلبه، فمثل هذا الخجل نوع من الانكسار النفسي لا مسوغ له وعلى من ينتابه شيء من ذلك العمل تلافيه، والتخلص منه وتشجيع نفسه على الانطلاق إلى كل ما هو محمود من السلوكيات، ومطلوب من الأخلاقيات، وليستعن بمن يثق فيهم ليأخذوا به إلى خارج دائرة الانزواء الممقوت، والانكسار المكروه؛ ليخرج إلى حياة العمل والمشاركة، ولقاءات الناس فيما هو خير للجميع.



الكرم سمة الكرام

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

من القيم العربية المشهورة، ومن السمات الإنسانية العريقة الكرم؛ لأنه خصلة من أطيب الخصال، ولأنه يميز العرب عمن سواهم منذ أن عرفهم التاريخ في الجزيرة العربية.

تحدثت فيما سبق عن الإخلاص، وأثق أن الكرم ليس ثمرة، بل هو توأم الإخلاص فالكريم حقاً هو الذي يعطي ما يعطي مخلصاً طائعاً لربه، أما الذي يُعطي رياءً أو تباهاً ما حُق له أن يُسمّى كريماً؛ لأنه قصد إلى شيء نفسي وراء هذا الذي يظنه كريماً، إنما هو دعاية شخصية له.

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية كثير من الحث على التحلي بهذه السمة العظيمة وكلنا يحفظ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى ۝٥ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَبَ بِالْحَسَنَى ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقال تعالى: ﴿... وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ويكفي الكرم نبلاً أنه من أسماء الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَّبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. ووصف به رسوله الكريم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠].

ووصف الله سبحانه وتعالى بالكرم ملائكته، فقال: ﴿كَرَامًا كُنِينَ ۝ يَكْمُمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، (كراماً بررة)، ولقد جاءت مادة (كرم) ومشتقاتها ثمانى وأربعين مرة في القرآن الكريم دلالة قاطعة على عظم قدر هذه السمة عند الله تعالى وأثرها في حياة الناس.

ومثل ذلك كثير فيما ورد في السنة المطهرة.

إن الكرم يؤدي إلى انتشار الحب والوثام في المجتمع، وبه يتلاشى الحقد والحسد من القلوب، فيسود التعاون، والحب، والتسامح بين أبناء المجتمع من الأغنياء والفقراء وتقوى الصلة والمودة بينهم، ويصبحون جميعاً كالجسد الواحد، أو البنيان القوي المتين.

وفي حياة العرب يأخذ الكرم نصف الحياة، وتأخذ الشجاعة نصفها الآخر، بل إنني لأقول: إن الشجاعة هي وليدة الكرم.. فالشجاع كريم وجود بنفسه، ولن تجد بخيلاً شجاعاً؛ لأنه بخيل بالمال وغيره، فهو أشد بخلاً بنفسه.

قال الشاعر العربي:

نَجُودُ بِنَفْسٍ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجَوْدُ بِنَفْسٍ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ
وقال آخر:

فَأَوْقَدْتُ نَارِي كِي لِيَبْصَرَ ضَوْؤُهَا وَأَدْخَلْتُ كَلْبِي وَهُوَ فِي الْبَيْتِ دَاخِلَهُ

ومعروف ما دار بين النابغة الذبياني وحسان بن ثابت، حين

قال حسان:

لَنَا الْجَفْنَاتُ الْغَرَّ يَبْرِقْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةِ دِمَا

فلم يوافق النابغة على قول حسان: (الجفنان) لأنها جمع قلة،
والأفضل: (الجفان) جمع كثرة؛ لتدل على كثرة الكرم. وأيضاً لم
يوافقه على: (يبرقن في الضحى) لأن كل وعاء يبرق في الضحى،
والأفضل: (لوقال يلمعن في الدجى) ليراها السائر في الليل تلمع،
فيأتي لأهلها الكرام.

وها هو الكرم يبدو في أبهى صورته:

متى تأتيه تعشوا إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقدٍ

ولشدة حب الكرم كان الوليد بن المغيرة يرفض أن توقد نار مع
ناره، وكان يتكفل بالسقاية أيام الحج في الجاهلية.

لقد فتن العرب بالكرم.. واتخذوا له رموزاً وإشارات، فكانت
تسمى (الكلب) (داعي الضمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر؛ لما
يجلب من الضيوف بنباحه).

وكانوا إذا اشتد البرد، وهبت الرياح، ولم تشب النيران، فرقوا
الكلاب حول الحي وربطوها إلى العتمة؛ لتستوحش فتنبج، فتهدى
الضال.. وتأتي الأضياف على نباحها.

وما حاتم الطائي إلا أنموذج سوف يبقى عبر التاريخ للكرم
الحقيقي والعطاء المخلص. ولقد ورث حاتم هذا الكرم عن أمه
«عتبة بنت عقبة» التي كانت من أسخى الناس وأقراهم للضيف،
وكانت لا تبقي شيئاً تملكه، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها،
ومنعوها مالها، فمكنت دهرًا لا يُدفع إليها شيء منه، حتى إذا ظن
إخوتها أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها صرمة من إبلها، والصرمة

هي (مجموعة من الإبل) فجاءتها امرأة من مازن كانت تأتيها في كل سنة تسألها، قالت لها أم حاتم: دونك هذه الصرمة، فخذها، فوالله لقد عضني من الجوع ما لا أقدر أن أمنع منه سائلاً أبداً. ثم أنشأت تقول:

لعمري لقد عضني الجوعُ عضّة فأليتُ ألا أمنع الدهر جائعاً
فقلّوا لهذا اللائم اليوم: أعفني فإن أنت لم تفعل فعُض الأصابعا
فماذا عليكم أن تقولوا لأختكم سوى عدلكم أو عدل من كان مانعاً
وهل ينظرون اليوم إلا طبائعاً فكيف بتركي يا ابن أم طبائعاً

ولقد جاء الإسلام متمماً لمكارم الأخلاق التي كان عليها العرب في الجاهلية وثبتها، وأثنى على أصحابها، ومنها الكرم. تلك واحدة من قيمنا العظيمة، وهكذا كان التعبير عنها في ذلك الزمان، حيث شظف العيش وقلة الطعام.

واليوم ترى كيف يكون الكرم، وكيف يكون التعبير عنه؟

إني لأشعر بالاستنكار لهذا الذي نراه ادعاء للكرم في مجتمعنا المتمثل في البذخ وإهدار الأموال في الموائد، فالكرم سمة عظيمة، وخصلة نبيلة، لكنه لا يعني الإسراف والتبذير غير المعقول؛ لأن الكرم المحبوب المطلوب هو وسط بين التقشیر، والتبذير. وتختلف مظاهره بحسب الأزمنة والحاجة، وأضرب لذلك مثلاً بمظاهره، فقد كانت مظاهره قديماً تتمثل في الموائد الحافلة بكثير من ألوان الأطعمة المتنوعة، ذلك أن الحاجة للطعام في ذلك الوقت هي مظهر الكرم للضيوف، وللأهل والجيران بعدهم والناس في أمس الحاجة

إليه، وأتذكر في صباي كيف أن الناس يفرحون بالمناسبات، ولا يبقون على شيء مما تمتلئ به الموائد من طعام، أما الآن فالكرم قد صار صورة مغايرة لذلك؛ تتمثل في مد يد العون للمحتاجين، وعون المعسرين بالمال والجاه كل بحسب طاقته، دون إسراف مخل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وهناك صور للكرم تغيب أهميتها عن بعض الناس، وهي كرم المشاعر، والتعبير عنها كم هو أجمل أن يفتح الإنسان قلبه ووجهه للناس من أن يفتح متجهماً باب منزله أو مكتبه.

أبني للآخرين طيب مشاعرك نحوهم، ولطف تعاملك وحوارك معهم، وثنائك على ما تراه حسناً من أعمالهم، وصادقاً مفيداً من أقوالهم، ومصيباً نافعاً من مواقفهم.

لم لا نعطي الناس حقهم من الشكر والعرفان إذا هم أحسنوا؟
كما نعطي العاملين أجرهم إذا عملوا.



أطفالنا والقيم الدينية

حقاً كثيرة وجميلة قيمنا الإسلامية التي نتحدث عنها دائماً، وعسى أن يكون عملنا بها مثل حديثنا عنها، وأرجو الله ألا نكون ممن قال الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وحين فكرت في كتابة هذه الخواطر تذكرت ما كنا عليه صغارا، وما نتمسك به من القيم الدينية، وفي مقدمتها صلاة الجماعة، وخاصة صلاة الفجر، التي كانوا يتفقدونها فيها، وتمسكنا منذ كنا صغارا بتلك القيم الدينية التي هي حصن التربية التي نشأنا عليها، والتي ندعو إلى ضرورة إبقائها في تربية أبنائنا، خاصة في هذا الوقت الذي تتنازعهم فيه تحديات أكثر مما تكون دينية وخلقية.

والقيم الدينية التي نقصد تأكيدها لدى الأبناء الصغار لا تعني الجمود في الأسلوب، ولا جفاف اللفظ، ولا الخشونة في تعاملها، وإنما المرونة في الأسلوب المناسب للأطفال، ومدى فهمهم وإدراكهم المرتبط بالبيئة والمجتمع الذي نعيش فيه مع المحافظة على جوهر القيم الدينية ذاتها، وترسيخها في نفوس التلاميذ، وتأكيدها في أذهانهم.

إنه مما لا شك فيه أن الأشياء التي يتعلمها الطفل منذ حداثة سنه، والمعلومات التي يحصلها تؤدي دوراً مهماً في إدراكه وفهمه للأشياء، وحكمه عليها طوال عمره، ومن هنا جاءت المقولة الشهيرة: «التعلم في الصغر كالنقش على الحجر» حيث إن السنوات

الأولى تُعدّ حجر الزاوية بالنسبة إلى الفرد، وبقدر ما يتعرض له الطفل من القيم الدينية، ويدرك ما لها من أهمية بقدر ما يكون لهذه القيم شأن في حياته، وبقدر ما تشكل الضمير الواعي الذي يردعه عن فعل الخطأ، ويقف حائلاً بينه وبين المنكرات.

فحقيقة التربية في الإسلام هي تنشئة الطفل وتكوينه إنساناً متكاملًا من الناحية الأخلاقية، بحيث يصبح في حياته مفتاحاً للخير، مغلقاً للشر في كل الظروف والأحوال.

وليس المقصود ببثّ القيم الدينية وتأكيدھا لدى الأبناء في مراحل تعليمهم أن يكون ذلك عن طريق الكلام أو الشعارات فقط، إنما لا بد من الربط بين الأقوال والأفعال.

ولقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأمر بشيء وعدم مزاولته أو النهي عن شيء وأنت تمارسه تكون ردة من تأمرهم أو تنهاهم ردة قاسية.

عجبا لهؤلاء الذين يفعلون ذلك، لقد قال لي أحد محدثي يوماً من الأيام: إني شديد الخجل أن أنهى ابني عن التدخين، وأنا أدخن.

فقلت له: إن كنت صادقاً في نهيك فلا سبيل لك إلا الإقلاع عن فعل ما تنهى عنه؛ لأنه لو لم يكن صاحب الأمر متحلياً به فلن يستجيب أحد لدعوته.. وهناك مثل تاريخي عظيم: حين دخل الناس في دين الله أفواجا لم يكن ذلك إلا لأن الداعي له كان معروفاً منذ صباه بالصدق، والأمانة، ما جرب أحد عليه كذباً أبداً ﷺ.

والقيم الدينية التي يجب أن نؤكدھا، ونرسخھا عبر المدارس والإعلام في أذهان التلاميذ يجب أن نجسدها لهم في صورة القدوة

الحسنة، وصورة السلوك النبيل؛ حتى يلمس الطالب ذلك بنفسه، ويستطيع إدراكه، ثم التمسك به، والعمل بمقتضاه.

إن الدين ليس شهادة ينطق بها اللسان: «بل إنه ما وقر في القلب وصدقه العمل» وليس مجرد حركات ومناسك وشعائر؛ إنما الدين عاطفة تتبع من أعماق النفس البشرية تدفع، إنما الدين عاطفة تتبع من أعماق النفس البشرية تدفع الإنسان إلى التفاني في سبيل الحق، واحترام الغير، وحسن معاملة الآخرين، وقبل كل ذلك يكون الإخلاص في هذا الشعور، كما سبق الحديث في المعنى العظيم للإخلاص.

إن هذه العاطفة الدينية الصادقة التي يحركها الإخلاص لا تنشأ بمعزل عن العالم بل تنمو بنمو الشخصية، وتحلّ بانحلالها، لذلك كان من الضروري أن يكون التوجيه الديني مسائراً لطبيعة الأبناء ونموهم العقلي والوجداني.

الإنسان والصغير خاصة ينشأ ميلاً بفطرته إلى المعرفة، فهو بدافع حب الاستطلاع يريد التعرف إلى ما حوله من الأشياء والكائنات؛ لذا يجب أن يحسن استثمار هذه الفطرة التي فطر الله الناس منذ نشأتهم عليها، وأن يحسن توجيهها لتزويدهم بالمعلومات الصحيحة النافعة؛ حتى تمتلئ أفئدتهم بالقيم الدينية التي تكون بمنزلة اللبنة الأولى في بناء الشخصية.

إننا إذا تأملنا حياة النبي ﷺ نجد أنه كثيراً ما يأمر بحسن معاملة الأطفال، وكان يحسن معاملة الحسن والحسين ﷺ فكان

يداعبهما، ويلطفهما ليبعث في نفسيهما الرحمة والطمأنينة، وكان الصحابي إذا ولد له مولود انطلق به إلى رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، فيقبله النبي ﷺ بكل رحمة، ورقة، وعطف، وحنان، فيقرأ له شيئاً من القرآن، ويلوكة بتمرّة، وكان المولود الذي يحدث له ذلك يُعدّ من السعداء، وهو بالفعل كذلك. عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يؤتى بالصبيان، فيدعو لهم بالبركة، ويحنكهم».

ويكبر الصغار، حتى إذا وصلوا إلى سن التمييز أمر الله تعالى بتعليمهم القيم الدينية المهمة والنافعة، لهم ولأسرهم، التي لا بد منها صيانة، وحماية، وتعليماً للقيم الأخرى.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّ نَكُّمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨].

ومن الآية الكريمة نجد الحرص التام على تأكيد قيم الحياء، والعفة، والطهارة، لدى الأطفال منذ صغر سنهم، فإذا ما كبروا، وأصبحوا في سن المراهقة، فإن الأمر يتغير، ويصبحون مثل غيرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُّوْا كَمَا أَسْتَعِذَّنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

لذلك اهتم القرآن الكريم بترسيخ هذه القيم الدينية لدى الأطفال، وهم في سن المرحلة الابتدائية، وهي قيم تحافظ على شخصية الطفل، وتحميها من الدمار الذي قد يلحق بها.

ومن أبرز صور الحرص على القيم الدينية عند الأطفال حرص الدين على العبادات المفروضة وأمر النبي ﷺ بتعليمهم الصلاة

وهم في سن السابعة، وضربهم عليها وهم في سن العاشرة، قال ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع».

ولابد أن أنبه إلى أن الضرب المقصود هنا ليس المراد به الضرب المبرح، وإنما هو ضرب للتنبيه، ويكون بسواك أو مثله غير موجع، وعلينا أن نتذكر أن الأب يظل على مدى ثلاث سنوات يأمر ولده بالصلاة، الركن الثاني من أركان الإسلام يمر على الولد في تلك المدة «خمسة آلاف وأربع مئة وخمسة وسبعون وقت صلاة مفروضة» يكون فيها التنبيه قد بلغ أوجه، ثم بعد كل ذلك يكون الضرب من الوالد، بما لا يُنفّر من هذه الصلاة.

ولعلي بهذا أزيل اللبس عند بعض المعلمين الذين يُقدّمون على الضرب؛ لأن التلميذ لم يحضر واجبه، أو لأنه تكلم مع زميله في أثناء الدرس، أو تأخر عن الحصة بضع دقائق.

وفرق كبير بين توجيه الأب بالنصح والحسنى وبين ما يعبر عنه المعلم بالضرب والتعنيف، فلن يشك الولد في صدق وخيرية مشاعر أبيه نحوه.

إن من القيم العظيمة في الإسلام الإحسان إلى الناس صغاراً وكباراً إحسان معاملته وملاطفة، وتودد؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها لا حب من يؤذيها بضرب أو غيره، حتى لو كان الضارب أباً أو أمّاً.

وأشعر بسعادة بالغة كلما رأيت صغاراً يصلون الجماعة.. أفرح بهم.. وكثيراً ما أحادثهم وأشجعهم على التمسك بذلك، بل إنني حريص على أن يؤمنوا أحدهم ذات يوم.

إننا معشر الآباء مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى بأن نعمق القيم الدينية في نفوس أبنائنا عملاً واضحاً جلياً لهم يتمثل في سلوكنا اليومي أمامهم، فنصدق مع الله ومعهم، فيصدقون هم كذلك.. وكل قيمة دينية أو عادة حسنة نرغبها لأبنائنا مفتاح تحققها فيهم يكمن في امتثالنا لما نحبه لهم.

القيم الدينية يجب ألا تترك أبداً، بل يجب ألا تذبل؛ لأنها أساس نمو الشجرة المثمرة وعطاء الخير للحديقة الخضراء، أي حياة الأبناء حياة سعيدة، رغبة، راضية مرضية، هكذا يجب ألا تذبل قيمنا.

إن كل ما نرجوه، ونأمل تحقيقه من عز، ورفعة، ومنعة لن يتحقق إلا بتمسكنا بقيمنا الإسلامية العظيمة.



أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً

وصف الله رسوله الحبيب بأنه: «على خلق عظيم»، والخلق قرين الخليفة التي هي أصل الإنسان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢].

الخلق واحد الأخلاق، والأخلاق العظيمة هي تلك السمات السامية النبيلة الراقية ذات القيمة العليا، والقيمة تعني ارتفاع الشيء إلى أعلى درجاته، ومن هنا جاءت القيم الإيمانية ممثلة في أرقى الأخلاق والسلوكيات الإنسانية مما جاء المدح بها في كثير من الآيات القرآنية، والسيرة النبوية الشريفة: «أدبني ربي، فأحسن تأديبي».

هيا بنا نحافظ على كل هذه الجواهر الأخلاقية.

تعالوا نتمسك بالقيم الإسلامية الإيمانية الراقية.

بالعود إليها، والحديث عنها، وتوضيح جواهرها نجد أنه لا نهائية لحقيقة وصور هذه القيم التي هي الجوهر الأسمى في معتقدنا، وبالتحلي بها نضرب المثل للدنيا عن جلالة ديننا وسمو عقيدتنا، ونبل دعوة إسلامنا.

هذا التجاوب الكريم من الأحبة القراء الذين أسعدوني بأرائهم، ودفعوني إلى المزيد من الحديث عما لم أتطرق إليه من هذه القيم، وما زاد في غبطتي أن بعض مديري مدارسنا صوروا هذه المقالات، ووزعوها على سائر المعلمين وكذا وزعوها على الطلاب وخاصة طلاب المراحل العليا من التعليم العام، إذ اعتبروها

موضوعات ثقافية تربوية نافعة، يجمال التحلي بها، والتزود بما تدعو إليه من آداب وأخلاق إسلامية راقية.

إن الحديث عن هذه القيم يذكرني بما سألني عنه طلاب جامعيون في جامعة كاليفورنيا حينما كنت أستاذاً زائراً هناك قائلين: لماذا أنت مسلم؟

فكان الجواب هو أن رجعت إلى القرآن الكريم ومعني ترجمة معانيه باللغة الإنجليزية، واستهلكت حديثي بالقول: «إن إيماني بالله لا يكون صحيحاً إلا حين أؤمن برسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً وعددت منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمد». وإن رسولنا محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وإن ما جاء به هو المتمم للرسالات السماوية السابقة، وإن إيماننا نحن المسلمين بالكتب السماوية المنزلة على رسل الله جميعاً شرط أساسي لصحة إيماننا واكتماله.

ثم بدأت أشرح لهم أن كوني مسلماً جاء نتيجة إيماني واقتناعي بالقيم العظيمة التي جاء بها رسول الهدى محمد ﷺ من عند ربه الواحد الأحد الفرد الصمد، وفتحت المصحف الكريم على سورة الإسراء أفسر لهم نماذج من هذه القيم، بدءاً من الآية الكريمة: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وصادف أن المدينة التي تقع فيها الجامعة، وهي (سانتا باربارا) مدينة اشتهرت ضمن ما اشتهرت به بوجود ملاجئ كثيرة للمسنين

القادرين مالياً، يأتون إليها من أنحاء مختلفة من أمريكا. وقارنت لهم ذلك بما يجري عندنا، إذ إن أبناء المسن عندنا يتنافسون فيما بينهم؛ كل واحد منهم يرغب في خدمة أبويه عند الكبر، أخذاً بتعاليم الإسلام التي قرنت الأمر بعبادة الله بالأمر بالإحسان إلى الوالدين، وكيف أن بعض الأبناء في بلادهم الأمريكية يُودعون والديهم في بيوت كبار السن، ويغيبون عنهم شهراً، بل سنين طويلة دون أن يعودوهم نتيجة عدم تقيدهم بالقيم الدينية التي نصت عليها كل الكتب السماوية المنزلة.

ثم واصلت الحديث عن تلك القيم التي تلوت معانيها عليهم، وكيف أن الاستمسك بها يسمو بالإنسان، وشرحت لهم أن الإسلام نهج حياة، وليس مجرد ممارسة عبادات.

لو أن هذه الأمة المسلمة تخلقت بخلق الإسلام، وتمسكت بقيمه العظيمة تمسكاً حقيقياً كاملاً يظهر في سلوكهم، وتعاملهم، ونظام الحكم في بلدانهم، لرأينا عالماً مثالياً يدخل، بسببه حباً للحياة فيه، من غير المسلمين في دين الله أفواج كثيرة، كما كان ذلك في العهود الأولى للإسلام، حين دخلت في الإسلام شعوب كثيرة؛ حباً في سمو قيمه المتمثلة في تعامل المسلمين وسلوكياتهم.

لو أن خطباءنا ودعاتنا ومعلمينا فهموا جوهر ما تدعو إليه هذه القيم من مثاليات، وركزوا عليها شارحين، موثقين، داعين، متمثلين في سلوكهم بها لتحقيق ما أتخيله أو ما يقاربه، لعشنا في حياة غير ما هو حولنا.

حضرت خطبة إحدى الجمع في مسجد قرية صغيرة، فإذا بالخطيب يقول كلاماً لا أعتقد أن المصلين فهموا من تكلفه أسلوب البيان والبديع وغريب العبارات شيئاً من مثل قوله في تلك الخطبة: «تعس عبد الدينار تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» ومثل ذلك كثير.. يقول هذا ومعظم من أمامه لا يكاد يملك أكثر من قوته وقوت عياله ولو أنه ذكر لهم بعض قيم الإسلام كالتعاون والمثابرة علي كسب العيش والصدق لكان أجدى وأنفع لهم. ثم إن هناك في لغتنا ما يوجب على الخطيب مراعاة مستوى ثقافة السامعين وحالتهم الاجتماعية.

ولو أن واضعي مناهجنا الدراسية في مختلف المواد المقررة كما كنت الداعي إلى تحقيقه، شديد الحرص عليه أوجزوا قليلاً من الإسهاب في دروس العبادات وتفصيلاتها التي هي معروفة عند الجميع غالباً، ومكررة في الكتب سنوات دراسية متنوعة، وركزوا على جوانب الأخلاق التي تتمثل في هذه القيم لكان ذلك أجدى وأنفع.

بربكم.. ما الذي سيفيد شاباً في مستقبل العمر التركيز على قضايا فقهية مثل باب البيوع، وزكاة الماشية والزرع والركاز، ولا سيما أن الدولة رعاها الله ترسل جباة الزكاة في كل عام طبقاً لمواعيد محددة، وما أدعو إليه مؤلفي مناهجنا ومعلمي مدارسنا، أدعو إليه خطباءنا ورجال الإعلام في بلادنا.

ثم ما بال هؤلاء المقطبين المتأففين لم يمتثلوا لقول رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

ما أعظمك يا حبيبنا المصطفى ﷺ أنت القائل: «أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم خلقاً»، وقولك: «أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً»، وقولك كذلك: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»، وعلى نهجك هذا جاء القول المأثور: «المعروف شيء هين، وجه طلق ولسان لين».

أبعد هذا كله يمكنني ألا أستمّر مستفيضاً في الحديث عن قيمنا العظيمة؟!

إنها الزاد الذي تحيا به حياتنا، والمنهاج الذي تسير عليه أمورنا، والسعادة التي تسود مجتمعاتنا.. آه.. لو تحققت بصدق لرأينا كيف تكون حياتنا.



عود الجمع ورأب الصدع

الجمع قوة، والقوة نصر وخير، والتفرق ضعف، والضعف هزيمة وفقر، بالجمع تعلو الأرقام، وتكثر الثمار، يقولون: نجمع الثمار من الحديقة نجمع الأبناء والأسرة حول الطعام.

أما الفرقة.. فهي الصراع.. هي التمزق للأسرة.. للمجتمع.

أعود بنظرة لما كنا عليه قبل مئة وعشرين عاماً في جزيرة العرب..

كانت قبائل متفرقة.. أسر وعائلات متنازعة.. عصبية متقاتلة، هجمات مباغته وكان العمل العظيم للملك المؤسس الكبير الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه أَنْ وَحَّدَ القبائل، وجمع المتفرقات، وأزال العصبيات، وها هي ثمرة ذلك ما نحياه اليوم في هذا الوقت في وطننا الغالي من أمن واطمئنان، وما هو حولنا من سعادة ورخاء، وثراء وتطور نتيجة جمع المتفرقات ورأب المتنازعات.

وهكذا كل جمع قوة، وكل فرقة ضعف.

قال الشاعر:

كونوا جميعاً يا بني إذا عتري خطب ولا تتفرقوا أحاداً
تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً فإذا اجتمعن توحدت آساداً

لذا، فإن جمع الصف، ووحدة القوم، وترابط المجتمع سبيل إلى الهدى والسلام والخير، فهو بذلك من أعظم القيم، وأفضل الخلق.

إن أعظم ما نعتز به من قيمنا الإسلامية ومن أهم ما نحن في حاجة إليه من أعمال خيرية هو رَأْب الصدع، وإصلاح ذات البين. فإذا كانت الحياة الإنسانية أو الفردية، أو الاجتماعية، أو الوطنية في حاجة ماسّة إلى رَأْب الصدع بين أطرافها، وعود الجمع بين صفوفها لازمة فيما مضى فإنها في وقتنا الحاضر ألزم والحياة إليها أشد على جميع المستويات، ذلك لما اجتاحت الحياة المعاصرة من متنوع صور الخلاف، وكثرة أسباب النزاع، بل الحروب بين الدول وتعمق صور الصراعات.

وهذه الحاجة المعاصرة إلى رَأْب كل صدع يحدث شرخاً في بناء الأسرة والمجتمع وضرورة العمل على عودة الجمع، والوفاق والتوحد بين من شَبَّت بينهم الفرقة وهددهم التمزق والصراع، تجعلنا ندعو جاهدين، ونأمل من كل القادرين العمل على تحقيق حياة آمنة مطمئنة لنا، ولأسرنا ومجتمعنا.

وتتمنياً للأحباب ألا يحدث في حياتهم هذا التصدع أو التفرق يقال للعروسين: (بالرفاء والبنين) لأن الرفاء هو اتصال الطرفين وعدم افتراقهما ورفاً الثوب وصل بين الجزأين المقطوعين فيه.

ولكن لماذا تجدني مشدداً في دعوة الجميع إلى رَأْب الصدع، ولم الأطراف وعودة الجمع والتأكيد أن ذلك من أهم القيم التي يجب ألا تذبل أبداً في حياتنا؟

ذلك أن رَأْب الصدع ولم الأطراف النزاع، وإصلاح ذات البين من أهم العوامل التي تُعطي الحياة صورة الاستقرار والسعادة.

فالنزاع لا يخلق إلا الترقب، والخوف، وعدم الاستقرار، إذ كل طرف يخاف الآخر، بل يجهز لمواجهة ما يلزم.

وللفرقة بين الناس دوافع كثيرة، ومظاهر متعددة، تضيق وتتسع، وكلها يتحتم فيها بذل الجهد المخلص لرأب الصدع، وعودة الجمع، والاستقرار والصالح فما أكثر صور هذا العمل الطيب الذي يعيد للحياة هدوءها، وللأسر التئامها، وللناس محبتهم وللوطن استقراره ونهضته.

ولقد دعانا الإسلام العظيم إلى السعي الجاد المخلص للإصلاح بين المتخاصمين، وجعل لمن يقومون بذلك العمل النبيل مكانة عالية، ونص القرآن الكريم على ذلك: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. ياله من فضل عظيم، قال عنه ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وإفساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

وقال ﷺ لأبي أيوب الأنصاري: «ألا أدلك على أفضل تجارة؟ قال: بلى، قال: صل الناس إذا تفاسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا».

وكثيرة هي أقواله وتوجيهاته ﷺ وأفعاله في الحث على رأب الصدع وجمع الشمل بين الناس.

ومن أبرز الأمور التي يجب أن يكون فيها رأب الصدع محققاً للجمع معيداً للوئام هو ما قد يكون بين أفراد الأسرة من خلاف،

خلاف بين الزوجين لسبب من الأسباب وما أكثرها، خلاف بين أفراد أسرة واحدة كانت مضرب المثل في التلاحم والنجاح، ثم تمزقت هذه الأسرة بعد وفاة رائدها بسبب النزاع المالي، مع وفرة وكثرة موارده.

هنا يجيء المصلح الجامع للطرفين محققاً للاستقرار معيداً لألفة الأسرة، وجامعاً لقلوبها ومحبتها، لهذا دعت جميع الأديان وديننا الإسلامي خاصة إلى الإصلاح بين طرفي الأسرة إذا نشب خلاف.

ولقد كان رسول الله ﷺ أسوة مثالية في رأب الصدع وإزالة الشحناء بين المتخاصمين. فما أعظمك يا رسول الله.. حقاً هو الإسلام بك انتشر والسلام بك تمكّن، إنك أنت المحذر من التشاحن والتباغض والتباعد، مؤكداً ذلك بقولك: «تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين والخميس، فيغفر الله لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: «انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا».

وعلى نهجك الشريف سار صحابتك والتابعون من بعدك في هذا السلوك الحميد فها هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس. وقال: عليكم بالتواصل والتبادل، وإياكم والتدابير والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولى عليكم شراركم، ثم تدعون، فلا يستجاب لكم».

وفي زماننا المعاصر ما أحوجنا إلى رأب الصدع، وسد الشرخ العميق الذي ينشأ بين قوى سياسية في وطن واحد.. كما هو الحال

في بعض الأوطان العربية، حيث تحتاج إلى من يلمّ الشمل، ويوقف النزاع، وبذلك تعود للبلاد وحدتها لتواجه عدوها الذي يستغل تمزقها، ويشعله أكثر؛ ليحقق غراضه العدوانية.

ولكي يتحقق الصلح بين أطراف النزاع، ويعود الجمع إلى الجماعة لا بد أن يكون ذلك بجهود بعض الذين تؤهلهم ظروفهم، وواقعهم الاجتماعي من القدرة على تحقيق ذلك؛ لأن المصلحين لا بد أن يتمتعوا بصفات حميدة تمكنهم من تحقيق ذلك، وأولها وأهمها أن يكون المصلح من أهل التقوى والصلاح، معروفاً بين الناس بالخلق الكريم، والعمل الطيب، والحيادة، وبهذا يكون مسموع الكلمة، له مكانته عند الجميع، ويتحقق بتدخله هذا الصلح المطلوب.

لا بد لمن يهب نفسه للإصلاح أن يكون مخلصاً في ذلك، غير طامع في شكر أو شهرة بين الناس، أو له مطالب مادية أو دنيوية يبغيها من وراء ذلك.

ولن ينجح في مهمته إلا أن يكون أميناً على ما يودع عنده من أسرار الخصوم وألا يفشي شيئاً من ذلك حتى بعد الصلح، مع صبر وأناة وتحمل.

أعود للقول: إننا اليوم في أشد الحاجة إلى من يصلحون بين الناس، ويعيدون الجمع إلى الأسر والجماعات مهما كانت الصعوبات.

ولكن ما المورد لأهل الصلح ودعاة الخير؟

إنه التربية السليمة القائمة على الالتزام بالقيم الإيمانية الرفيعة والتمسك بها.

تربية تعلّم الأجيال الحرص على وحدة البناء الاجتماعي،
والبعد عن الطائفية والعنصرية في أي مجال.

التربية في كل أبعادها هي البناء، وكل بناء يحتاج مع الزمن
إلى ترميم، ومن تربوا هذه التربية السليمة هم القادرون على رأب
الصدع وإعادة الجمع.



الوفاء، والعرفان

أن يكون الوفاء والعرفان من أبرز تعاليم ديننا، ثم يبرزنا الآخرون بممارستهما والتمسك بهما؛ فإن ذلك أدعى إلى الخجل من أنفسنا، ودافع لأن نعيد حساباتنا في علاقاتنا مع الله، ومع ديننا، ومع وطننا، وأنفسنا وذوينا، والناس أجمعين.

ثلاثة من الجواهر مرتبطة بالعروة الوثقى: الوفاء، والعرفان، والمعروف.

حتماً لهذه القيم التي هي زهور حديقة مكارم الأخلاق، ودرر تيجان الناس ومفاخر وتباهي الإنسان حتماً لها عمقها في أصالة قيمنا، وكبير دورها في أخلاقنا.

- عهد بيني وبينك سأوفي به.

- عهد ألا أنسى لك حسن صنيعك معي، ولا أنكر ما قدمت من معروف.

- عهد بيننا ألا تعمل جماعة أو أسرة شراً بالأخرى.

الوفاء هو الإتمام والكمال فكل شيء بلغ تمام الكمال، فقد وفى وتمّ.

إنه في كل صوره أداء الحقوق مادية أو معنوية والبلوغ بها إلى ما يجب لها من الوصول إلى مستحقيها.

إنه صفة اختص بها الإنسان، فمن فقد الوفاء فقد خرج عن حوزة الإنسانية.

الوفاء هو جوهر الثلاثية التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ حين قال للصديق أبي بكر رضي الله عنه: «عليك بصدق الحديث، ووفاء العهد، وحفظ الأمانة، فإنها وصية الأنبياء».

الوفاء من ضرورات الحياة التي لا تستقيم إلا بها؛ فالناس محتاجون إلى التعاون والمشاركات، ولن يتم التعاون أو تستمر المشاركة إلا بالوفاء، والحفاظ على مقومات تعاونهم، وإن عدم الوفاء ليس إخلالاً بالعمل والعلاقات الإنسانية وحدها بل هو اختلال أمر الدين؛ فضياع الوفاء يفسد مصالح الدنيا، وتضيع ثقة الناس في بعضهم.

لهذا، فالوفاء ذو مكانة عظيمة بالمقياس النفسي، والمعياري الاجتماعي.

إن الوفاء على الكريم فريضة واللؤم مقرون بذی الإخلاف

ولهذا التميز للوفاء مدح الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، فإذا تعود المرء الوفاء وجد في ممارسته لذة وسعادة.

سئل حكيم عن ألد شيء في دنياه فقال: «مكافأة أهل الوفاء والمروءة».

لكن أين يوجد الوفاء؟ ومع من يجب أن نكون الأوفياء الصادقين في وفائنا؟ وما الأمور التي يظهر الوفاء جلياً فيها، فاعلو الخير والجميل أهلها؟

قصص الوفاء، وكيف حقق الحياة السعيدة لبعض الناس، وكيف أبهجهم حيناً ونصر الحق حيناً آخر كثيرة متداولة في التراث العربي القديم، وفي حياتنا المعاصرة منها زاد وفير، وكلنا حتماً عرف شيئاً من حكايات الأوفياء، أو قرأ كتاباً عنهم.

الوفاء هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه، ويبرهن به لسانه، فليس وفاءً من تلحق وفاءه أذية.

وكالأمانة علواً وقدراً الوفاء بالعهد، وردّ الجميل، وذكر الناس لأفضال صاحب المعروف هو الوفاء، فلا هم أوفياء إذا نسوا فضله أو أنكروا حسن صنيعه.

والوفاء تلك القيمة الواسعة الأطراف له آثاره الكبيرة في حياة الأفراد والشعوب، فالأفراد الذين يوفى الطرف الآخر معهم يجعلهم يحيون آمنين مطمئنين.

والأمم والشعوب التي ينفذ الطرف الثاني عهده عهوده معها تحيا في أمن وأمان.. وتنصرف بجهدا إلى التنمية والتطور.. لأن الوفاء حقق لها الهدوء والاستقرار.

بل إن الوفاء حق حتى للحيوان، ومن ذلك حكاية «ليلي» زوج أبي ذر الغفاري والناقة التي نذرت لله أن تتحررها لو نجت من القتل وهي عليها، وحدث ذلك، وكانت قد أقبلت على ناقة تمتطيها بعد غزوة من الغزوات. فقالت: يا رسول الله، إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها؛ فأكل من كبدها وسنامها؛ فتبسم النبي ﷺ ثم قال: «بئس ما جزيتها به أن حملك الله عليها، ونجائك

بها، ثم تنحرينها» فالوفاء لهذه حفظ حياتها وإكرامها والرافة بها وليس نحرها.

صور قد تبدو بسيطة، لكنها شهادة دامغة، وعرافان تاريخي بأن الإسلام هو دين الوفاء وحفظ الجميل لصاحبه، ارتقاء إنساني لا مثيل له أبداً إلا في الإسلام.

وما هذا العدد من الآيات التي ورد فيها ذكر (العهد)، و(الوفاء)، (صنع الجميل والمعروف) ومجموعها مئة وخمس وعشرون آية إلا دليل صدق على أن ديننا الإسلامي هو بحق دين الوفاء، دين الثقة، دين الصنع الكريم؛ وأداء المعروف بإحسان والعرافان بالفضل لأهله، وعدم النكران مع تبدل الأحوال.

ومن صور الوفاء الراقية خلقاً وسلوكاً الوفاء بالوعد؛ لأن في الوفاء بالوعد في حينه تحقيقاً لأمر كثيرة؛ لأن صاحب الوعد المنتظر قد ربط بين أمور عدة تتحقق كلها عند الوفاء بالوعد وقد يكون فيها ما يتصل بحياة الإنسان نفسه، وهذا الوفاء بالوعد هو خلق نبيل جميل محبوب وأصحاب الوفاء بالوعد في وقتها هم حقاً أصحاب خلق كريم، وسلوك نبيل.

يا إسلامنا العظيم، يا ديننا السمع الكريم.. ما أروعك في كل شيء، وما أجملك في كل خلق.. وما أنبلك في كل سلوك! أصَلَّت القيم التي هي محامد الأمم، وزدت عليها، وجعلت أصحابها من ذوي الفوز برحمة الله ورضوانه.

إني أدعو إلى التمسك بالوفاء؛ فهو فرض من الله علينا، وتركه لؤم مردول نعاقب عليه.

إننا في لهيب هذا الصراع الاجتماعي والشعوبي الذي يشمل كل الأمم والشعوب في حاضرتنا نرى أناساً قد تخلوا عن الوفاء، وفكوا أنفسهم من قيوده؛ مع أنه من أرقى الصفات وأسمى العلاقات.

حتى إن بعض الشعراء اعتبر الوفاء كالأشياء التي هي من صنع الخيال؛ لكثرة ما يحدث من نكران وعدم عرفان، وانتشار التخلي عن الأهل والصحبة، فضاعت جواهر المروءة، ولم يعد يظهر بريق الوفاء إلا قليلاً:

قال الشاعر:

وعلمت أن المستحيل ثلاثة: الغول، والعنقاء والخل الوفي

وقال آخر:

أشدد يدك بمن بلوت وفاء إن الوفاء من الرجال عزيز

وقال آخر:

أبغى بدهر لا وفاء له كأنتي جاهل بالدهر والناس

لكني أقول له: لا تقنط فالخير موجود بحمد الله والعرفان موثق لعرى الصداقة فيما بيننا وبين الناس، والوفاء من قيمنا الجميلة التي لن تدبل من دنيا الخيرين، وأهل الشهامة والمروءة أبداً، إن شاء الله.

نعم.. هناك شيء بغيض، وسلوك كريه، وهو نسيان المعروف، ونكران الجميل وإسناد ما صنع المخلصون من خير، وما قدموا لأهلهم وبلادهم من إنجازات، وتطور وعمران وفكر ونهضة إلى غيرهم، نكراناً ولؤماً وخسة من المنكرين.

ولكم يوجعك ويفزعك، وأنت الوفي لصاحبك، المخلص
لصداقته، الملتزم بأدبيات العلاقة الحميمة معه، أن تراه فجأة قد
نسي كل شيء، وتكرر لكل علاقة بينكما.. وكأنها لم تكن.

نكران الجميل، ونسيان المعروف صفة مرذولة حقاً، والأمر
السيئ أن يكون من صديق لصديقه، إلا أنه يكون أشنع وأقبح وأسوأ
حين يجيء من المجموعة أو المجموعات من الناس والمحك والمعيار
الحقيقي للوفاء والعرفان هو الاستمرار بالعرفان لأهله مهما كان
موقعهم في الحياة، أو علاقتنا بهم، أو حتى بعد موتهم.



إن لم تكن صادقاً معي فلست صديقي..

في كل ما أكتبه بعنوان: «حتى لا تدبل قيمنا» التي مصدرها القيم الدينية بكل ما يتصل بها من المعاني الأخلاقية الإنسانية تأتي العلاقات الاجتماعية قيمة دينية راقية، يجب التمسك بها، والمحافظة عليها.. فلقاءات الأسر والعائلات في الأفراح.. جميلة في مشاعرنا الصادقة، راقية في أسلوبها؛ لما يصاحبها من التكافل الاجتماعي، والمشاركات الوجدانية في الأمور الخاصة، وما ينجم عنها من توثيق العلاقات، واتساع دوائر هذه اللقاءات، وتأسيس روابط الحب والصفاء، والسلام بين هذه الجماعات، وتلاقيهم دون دعوة أو قضية إنما لتوطيد عرى الصداقة المخلصة والتعرف إلى أحوال الأصدقاء هي لا شك قيمة سامية؛ لأنها تتبع من النفس، وتتحرك فعاليتها من القلب، وليس وراءها مطلب شخصي، ولا نفع مادي.. بل أحياناً تكون هناك من بواعث المشاعر الفياضة الصادقة من واحد تجاه الآخر ما يكلفه جهداً ومالاً.. يقوم به وهو راضي النفس، سعيد خاطر، فما أنبل مثل هذه القيم.. حقاً!

يقول صديق لي: إن الصديق قد يكون أقرب إلى النفس من القريب، بحكم أن القريب لا خيار عندك في قربه لك، أما الصديق فأنت من يختاره؛ لذا قالت العرب: «رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ».

ورب أخ ليست بأُمِّك أُمُّه متى تدعه للروع يأتيك أبلجاً
يواسيك في الجلى، ويحبوك بالندا ويفتح ما كان القضا عنك ارتجاً

وقد أثبتت الوقائع في القديم والحديث صحة هذه الحكمة، فبالأمس القريب علمت أن أحد أصدقائي المتوفين حديثاً الذي كان يظنه الجميع ثرياً؛ لما يظهر عليه من البذل والعطاء، فإذا به مدين بالملايين، فانبهرى صديق عزيز له صاحب نعمة وتكفل بدفع كل ما عليه من ديون، واشترى منزلاً لأولاده، مع أن هذا الصديق المتوفى له ابن عم «لأخوة أبويهما» يُعدّ من أكبر أثرياء بلادنا، وثروته أضعاف ثروة ذلك الصديق الذي أحسن وأوفى، لكن ابن العم الثري جداً لم يفكر في شيء مما قام به هذا الصديق

مع حثّ كثير من الناس له ليقوم بتلك المروءة، إنني ممن يوقنون أن من أكبر نعم الله على الإنسان أن يكون له أصدقاء خيرون مخلصون.

والجدير بالذكر أن الصداقة حين تكون قيمة حقيقية من قيمنا، فإنها إنسانية عالمية في معانيها والتزاماتها.

ويفرق الناس جميعاً بين من هو صديق ومن هو من المعارف، ولهذا تقول كاتبة أمريكية شهيرة «إليانور روزفلت»: «يدخل كثير من البشر حياتك، ويخرجون منها، إلا أن الأصدقاء الحقيقيين فقط هم من يتركون أثراً في قلبك».

وتقول أيضاً: «من يفقد المال يفقد الكثير، ومن يفقد الأصدقاء يفقد أكثر» وأضيف أنا قائلاً: إن أشد الناس خسارة من يفقد قيمه الدينية، أو يخسر محبيه بالتفريط فيهم؛ لعدم صدقه معهم.

الصديق الحقيقي، والصداقة الصادقة ليس منها من هو صاحب يقود للشر كالشيطان، لا بد من معاداته ومخالفة طريقه، فهو قرين سوء.

وما أبعد المنافقين عن حقيقة الصداقة؛ فليس صديقاً حقاً ذلك الذي يتقرب إليك، ويزعم حبك والإخلاص لك؛ لأن عندك نفعاً يعود عليه، أو مصلحة تلزمه، ثم تنتهي كل العلاقة بانتهاء النفع وتحقق الغرض، علاقة وقتية، اقتران محدد بالمصلحة الشخصية، ومثل هذا ليس من عالم الصداقة، ولا عداد الأصدقاء أبداً، يقترب منك حين يرى هو، ويكسب هو، وما أكثر هؤلاء البوم الذين يطنون حول عسلك حين يكون عندك عسل لأنهم ذباب ليس إلا.

وليس من الصداقة هؤلاء الذين لا تشعر بعمق العلاقة، ولا صدق الوفاء منهم، بل بينك وبينهم غربة ووحشة، وكأنك به منفي لا تأنس لمكان، ولا تستقر في لقاء ولا هؤلاء المتلونون كل وقت بحال.

الصديق الحقيقي هو أنت: مرآتك الصادقة ترى فيه نفسك، وروحك وطباعك وأخلاقك، إذا غاب عنك شعرت بالوحشة دونه، والشوق إلى عودته، كأنما جزء منك غاب عنك، فكلك قلباً وروحاً وشعوراً تحن إلى لقياءه، ألم يوصف أبو بكر رضي الله عنه بالصديق؛ لأنه أول من صدّق وصادق، وأخلص صداقته، ولازم صديقه، فالصديق بحق هو من يظل على متين صداقته وصادقها؛ فهو في الشدائد كما كان قبلها، بل إنني لأعجب بحقيقة ما تدل عليه كلمة «الصديق» إذ هي صيغة مبالغة من «الصدق» ولم تُعط هذه الصفة لأحد غير أبي بكر رضي الله عنه.

إنه ليطول الكلام عن الصداقة، والأصدقاء:

قال الإمام الشافعي رحمه الله مبيناً حقيقة الأصدقاء:

إذا المرء لا يركاك إلا تكلفاً فدعه، ولا تكثر عليه التأسفاً
ففي الناس أبدال، وفي الترك راحة وفي القلب صبر للحبيب ولو جفاً
إذا لم يكن صفواً الوداد طبيعة فلا خير في ودّ يجيء تكلفاً
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق صادق الوعد منصفاً

وإذا حظيت بصديق تتمثل فيه الصداقة بحق، فلازمه، وتمسك بصداقته، واتخذ كل وسيلة لبقاء هذه الصداقة حية نضرة مثمرة، لا تترك فرصة يمكن أن تمل فيها من هذا الصديق لطول صداقته، أو لأنه جاء بأمر لا يرضيك؛ ذلك لأن الحصول على الصديق عمل ليس يسيراً، بل صارحه بما تراه، أو عاتبه على ما حدث منه «وقد تصفو المودة بالعتاب» لكنه عتاب المتمسك بصاحبه، العتاب الخفيف على نفسه والقليل، بل النادر إن أمكنك فلا تبقى قوة صداقتكما إذا عاتبته كل يوم على كل شيء.

أيها الأصدقاء: لا تدخلوا في جماعتكم إلا من هو أهل للصداقة بكل معاييرها، ولا تعدّوه صديقاً إلا من يكون بحق صورة لمكارمكم، مرآة صافية لجمال علاقاتكم، وجميل صفاتكم فغير ذلك مشين لكم، جالب للسوء عليكم، وفي ذلك ينسب للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هذه الأبيات:

ولا تصحب أخاً الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حليماً حين يلقاه

يقاسُ المرءُ بالمرءِ إذا ما هو ماشاهُ
وللشيء على الشيء مقاييس وأشباهُ
وللقلب على القلب دليل حين يلقاهُ

ولنتذكر دائماً العبارة الشهيرة: «الصديق من صدَقَ لا من صدَّق» فلنتخير الصديق الصدوق، الأمين الخلق، الويِّ الكريم.

كتب صديق عزيز ويِّ رسالةً إلى صديقه يقول: أيها الصديق الويِّ الصدوق الحبيب، تحية من قلبي لمن أحب، وإني بتمسكي بصداقتك أتمثل ما قاله أحد الشعراء:

تمسك إن ظفرت بودٍ حرٍّ فإن الحرَّ في الدنيا قليلُ

حقاً.. ما أجمل الصداقة الحميمة، فإنها الثروة الحقيقية كما أراها، وتلك طبيعتي التي أتعامل بها مع الناس.



يا قوم.. هذا هو الوقت.. فاغتنموه

دقات قلب المرء قائمة له: إن الحياة دقائق وثواني

الوقت أغلى من الذهب، بل أغلى من كل الجواهر مهما كانت ثمينة ونفيسة الوقت هو مسيرة الوجود كله، حتى قبل الحياة.. قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦]، ويوم القيامة وقته طويل طويل: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفًا﴾ [المعارج: ٤].

خواطر كثيرة راودتني، وأنا تأمل أهمية الوقت، وجوهر قيمته، وفي الجانب الآخر كم نضيّع من الوقت دون فائدة! وهناك كارثة بكل المعايير، هي أن يكون لدينا أوقات فراغ، وتكثر المقالات عن كيف نقضي أوقات الفراغ، وكأننا مجتمع قد ازدحمت جداوله بالعمل والسهرة، وفاضت جنباته بعرق الكدح، والجهد، والجهد المخلص، فجاءت تبحث عن وقت للترويح، وتجديد النشاط.

إن العمر إذا تأملناه هو الوقت، وهو هذه اللحظات التي تمر عليك قارئاً هذه السطور، ثم هو استغلال ما وعيت، حتى يصير إضافة لتراثك الفكري.. وهو عند الذين لا يعون أهمية الوقت لحظات محطمة ملوثة، تنحط بها الدنيا وتظلم، وتعيش فيها الأفاعي والجرذان، حتى تصير الدنيا خربة؛ ينق فيها اليوم، وتتشرب فيها المظالم وما خربت أو تلوّثت إلا لإهانة الإنسان معنى الوقت بعد أن كرمه الله به.

ما أولانا بتربية عميقة الجذور تملأ دنيانا بالأمناء الأقوياء، وتقرع آذاننا عن اللهو والضياع والانتحار الزمني، واللافت حقاً أن تراثنا العظيم تحتشد فيه المنبهات الزمنية، بل إن العبادات نفسها تدور كل يوم مع حركة الشمس، وهي أكبر ساعة زمنية، ثبتها الله فوق رؤوسنا في سماء دنيانا.

الصلاة مع حركة الشمس، والفجر قبل أول أشعتها يدعو لليقظة والعمل والظهر بعد ميل الشمس إلى مغربها وهلمّ جرّاً.

الزكاة كلما مر عام على مال الله الذي آتانا.

الحج كله مواقيت ونفريات جماعية عاجلة الحركة، والطواف المنظم الخاشع؛ فما أولانا بيقظة تثبت فينا وعياً جديداً بالوقت!

الوقت قيمة مهمة متقدمة لمجموع قيمنا العظيمة، الوقت الذي أقسم الله تعالى به مرات عدة، وسبحانه وتعالى لا يقسم إلا بما هو عظيم الأهمية مستحق لأن يقسم به.

وأقرر أنه لا مستقبل لمجتمع لا يؤرق أفراد «الوعي بقيمة الزمن»، وإذا أردنا أن نفهم شعباً ما يجب أن نعرف قيمة الوقت عنده، وكيف يحسب وقته بشكل مختلف عن سواه من الشعوب، ومن الحكم الاقتصادية التي ظهرت حديثاً: أسرع الشعوب أغناها، وهو قول له رصيد من الواقع كبير والصحة الحقيقية.

لقد وقفت ذات يوم على بحث علمي موثق يؤكد أن أسرع الشعوب هو أغناها، وأبرز الباحث عنصراً سمّاه: «إلحاح الوقت»، ودراسة لبعض الثقافات التي تمتع الفرد فيها «بالإحساس بالزمن»، وكذلك

استيعاب الفارق الكبير بين العيش على «زمن الساعة» والعيش على «زمن الحدث»؛ ففي الأول تتحدد بدايات الأشياء ونهاياتها تحديداً صارماً بالساعة، بينما في الثانية يخضع الناس لتلقائية توالي الأحداث، وقد قدم الكاتب ترتيباً لدول العالم في سرعة الحياة، فاحتلت سويسرا المكان الأول في القائمة واحتلت ثمان من الدول الغربية ثمانية من الأماكن التسعة على القمة، وكانت اليابان في المركز الرابع.. وتبين للباحث وجود علاقة قوية بين الصحة والانضباط في الوقت، وبينها وبين نمط الشخصية، ويعني بهذا أن المنضبط والمتقيد بدقة مواعيده هو ذو شخصية جادة فاعلة، متمتع بصحة نفسية وجسدية كاملة.

إنك لتعجب كم يبحث الناس عن أيام العطلات، ليستريحوا من العمل.. وكم هم سعداء يوم الأربعاء لراحة الخميس، والجمعة.

حدثني أخي عبد الله عن طرفة حقيقية حين كان يعمل في شركة أرامكو السعودية، كان له زميل سعودي في العمل: حدث أن تم ترفيع عدد من العاملين في الشركة لم يكن هو من بينهم؛ فذهب إلى رئيس الوحدة التي يعمل فيها وهو أمريكي معاتباً لعدم ترقيته كزملائه الآخرين، فقال له الرئيس: «لماذا تطالب بهذا وأنت لا تحترم الوقت؟ أنت تحضر متأخراً، وتتصرف مبكراً، وتخفتي فيما بينهما..»؛ لذا فقد اختفيت من بين مستحقي الترقية!

إن هذا الحدث البسيط في وقعه الكبير في دلالاته يدفعنا إلى أن ننظر في طرائق معالجاتنا للوقت، حينما نعمد أحياناً لما نسميه «أوقات الفراغ»، كيف يقضيها الشباب؟ وماذا يفعل بها

الشيوخ، بينما «الواجبات أكثر من الأوقات» ونحن على مستوى الوطن العربي لا نكاد ننتج ضرورات الحياة، من طعام، وشراب، ودواء، واحتياجات الدفاع عن النفس التي يساوي ثمنها المليارات، وتتضخم عاماً بعد عام، ولنراجع الإحصاءات، والدراسات لنجد عندها الخبر اليقين.

إن لدينا في تربيتنا الإسلامية كنوزاً من القيم، والمفاهيم، والنصائح القولية والسلوك الفعلية تؤكد أن الوقت هو من أهم ما يجب أن يُعتنى به، وإن أحد الأسئلة الأساسية التي ستوجه لكل واحد منا يوم القيامة: فيم أبلى شبابه، وكيف أفنى عمره؟ كما ورد في الحديث الشريف.

من هنا أجزم بأننا في حاجة ماسة إلى تربية متكاملة، تأتي عن طريق القنوات المتعددة: «البيت، المسجد، المدرسة، المعهد، الجامعة، وسائل الإعلام، المجتمع» تربية تبعث قيمة الوقت من مراقدها، تحفظ المهدر، وتستنفر المتبلد، وتستتبت الخامد، وهذا يجعلنا نقول بحق: لا مستقبل لفرد أو لشعب، لا يؤرقه الوعي بالوقت، ولا ينذرهم مرور الأزمان.

إنه مما يحزّ في النفس خلف الوعد في كثير من الأمور، على كثير من المستويات في مجتمعا، وما خلف الوعد إلاّ استهتار بالوقت، ويأتي ضمنه عدم التقيد بتنفيذ المهام في وقتها وحينها المحدد، وكثيراً ما أنتقد من يعطي موعداً مبهماً؛ كأن يقول مثلاً: نلتقي بعد العصر، أو أرجو حضورك بعد صلاة العشاء، وما بعد صلاة العشاء ممتد حتى الفجر.

إن الاستهتار بدقة مواعيدنا الارتباطية والعملية ضياع سافر للوقت، وإهدار للعمر الذي نأكل منه كل يوم جزءاً كما قال العقاد في ذلك ما معناه: يجب ألا نقول صار عمر فلان أربعين عاماً، بل يجب أن نقول الحقيقية، وهي «نقص عمر فلان أربعين سنة» لأن العمر يتناقص كل لحظة حتى ينتهي؛ فعلينا ألا نضيع ما بقي سدى. إن أمر الوعي بالوقت، والتزامه جدّ ليس بالهزل، وحق ليس بالباطل، ومن لا يؤمن بهذا، ويقدر على تطبيقه فهو مقصر أشد التقصير.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

هذا.. وفي المقابل، فإني بالتأكيد لا أدعو إلى العمل ليل نهار.. دون راحة أو إجازة، ولكن ليس بالقدر الذي هو بيننا الآن.. فهلا نعتبر؟!



النظافة والنظام

النظافة والنظام توءمان لا ينفصلان، تشابه في الحروف الأصلية الأولى؛ لهذا فهما متلازمان دائماً، وكلاهما يكمل الآخر ويحققه.

النظافة والنظام من أجمل القيم الإسلامية وأحسنها، سواء أكانت النظافة مادية ظاهرة أم معنوية خفية، وسواء أكان النظام شكلياً أم فكرياً.

نقل لي من أثق فيه حدثاً عجيباً، مفاده: دخل رجل على طبيب الأمراض الجلدية يشكو إليه التهاباً شديداً بين أصابع رجليه، وحالة من التعفن الكريه.. فسأله الطبيب الألماني المسلم: هل أنت مسلم؟ قال المريض: نعم.. فقال له الطبيب: اخرج.. ليس لك عندي علاج. لماذا أيها الطبيب وأنت متخصص في الأمراض الجلدية؟! فقال الطبيب المعالج المسلم: لو أنك تتوضأ كل يوم خمس، أو ثلاث مرات للصلاة ما حدث لك ذلك! اذهب وتوضأ صحيحاً، وصل لله طالباً الشفاء.. وسوف ترى أثر النظافة. ألم تسمع الأثر: «تخللوا، فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة».

أجل؛ إن هناك نظافة مادية ونظافة معنوية، والثانية أدق وأخفى، وأهم وأسمى وهي نظافة الروح من كل شوائب الحقد والحسد، ونظافة القلب من كل أدران الكراهية والغل، وسوء الظن بالناس: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

إن طهارة النفس ونظافة القلب هما النظافة الكبرى التي يجني المسلم ثمارها في الدنيا حباً واحتراماً، وتقديراً من الناس وإكراماً، وفي الآخرة رحمة من الله، ومغفرة ورضواناً.

جاء أمر النظافة في أوائل الأوامر الإلهية، وضرورة تنفيذها بكل دقة: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا» [المائدة: ٦].

ترتيب ضروري، وتدقيق لا بد منه، فلا تقبل الصلاة دون نظافة الوضوء، ولا يصح الوضوء إلا بترتيب ونظام محددين.

النظافة هي جوهر الحياة وسر جمالها، وليس ذلك لمجرد النظافة، بل ليكون المسلم نظيفاً نقيّاً، ثم ينال الجزاء الأوفى، وتتحقق له المثوبة التي أخبرنا بها الحبيب المصطفى، حين قال: «الطهور شرط الإيمان».

النظافة مطلب إيماني ليس تظاهراً وادعاءً؛ ذلك لأن خالق السموات والأرض نظيف يحب النظافة، وفي الأثر: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم».

لست واعظاً لمجرد القول والخطابة، لكنها الثوابت الإيمانية، بل هي الكرامة والنزاهة الإنسانية.

ولا أنسى أستاذي في الدراسات العليا بالولايات المتحدة الأمريكية الذي كان يحاضرنا في تاريخ الحضارة والتربية، فقال: لقد سبق المسلمون غيرهم من كل أصحاب الحضارات السابقة

بالنظافة، فهم يستنجون بالماء، ويتوضؤون خمس مرات في اليوم، ولا يذهبون إلى المساجد إلا بثياب طاهرة، ورائحة طيبة، ولا يصلون إلا في مكان طاهر نظيف، وأتذكر كيف كنت فخوراً مزهواً بذلك الشرف أمام سائر الطلاب الأمريكيين.

والجميل أكثر أن تبقى هذه المقولة بتكرارها؛ فقد نقل لي الصديق العزيز الدكتور عبدالرحمن الجعفري أنه درس هذا المقرر بعدي بسنوات مع الأستاذ نفسه، وسمع منه هذه المقولة نفسها، وكأنها صارت لازمة له، لشدة قناعته وإعجابه بها صارت حقيقة في تقديم منهجه الدراسي لا ينساها. فما أعظم مظاهر ديننا وحقائقه!

إن حرص المرء على نظافة بيته ومكان عمله، واختياره أنظف الثياب دليل على الأخذ بقيمة مهمة من قيم الإسلام: ﴿يَبْقَىٰءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وهو في الوقت نفسه مقياس ثناء عليهم، واحترام لجميل حياتهم.

لقد بين لنا الإسلام أن النظافة هي الرقي الإنساني، ودقق كل التدقيق في ضرورة تحقيقها في كل شيء، في كل جزء من حياتنا، ولوعلم الإنسان عامة والمسلم خاصة ما يتحقق له من النظافة لعاش ولوعاً بها، شديد الحرص على استمرار التزامه وتحليه بكل صورها.

وكلنا يعرف الحديث النبوي الشريف الذي ينهى، ويمنع حضور أكل الثوم والبصل إلى الصلاة؛ حتى لا يؤذي المسلمين برائحته، فما بالنا بمن هو كرية الرائحة من كل جسمه وثيابه! ألا يعرف أن النظافة من القيم العظيمة في الإسلام؟

النظافة بجانب أنها من أعظم المظاهر الإيمانية في المساجد، وفي الأعياد، وفي الحفلات، والمناسبات هي سمة تجلب الاحترام لمن هو نظيف، والتقدير لمن هو متحلُّ بها.

لقد حرص الإسلام على النظافة، أشد حرص؛ حتى رَغِبَ المسلم في أن يكون ثوب صلاته مع الجماعة غير ثوب عمله؛ حرصاً على تمام النظافة وحسن المظهر واللقاء، وسنَّ للمقتدر أن يكون له ثوب عمل وثوب صلاة ليوم الجمعة يلبس التنظيف منهما.

وليتذكر المسلم أن طهارة مكان الصلاة شرط لازم من شروط إقامتها؛ لأن المساجد هي بيوت الله المعدة لأداء الصلاة واجتماع المسلمين؛ فلا بد من شدة الحرص على نظافتها، حتى من أقل شيء يؤذيها.

هذا عن النظافة، فما النظام؟

النظام مجموعة من القواعد والأحكام المنسقة المرتبة، والمتفاعلة فيما بينها، وهو في اللغة «التأليف والجمع والاتساق».

النظام ترتيب لكل حياة الإنسان في ذاته، في بيته، ومع أسرته، في عمله وطريق سيره، في شارع ومدينته، لكن الذي يؤمك أن ترى بعض الناس يجعل الاهتمام بالنظام والتنظيم آخر اهتماماته؛ فهو غير نظامي في كثير من المواقف الحياتية، وهناك من لا يهتم بالنظام داخل الأسرة.

ديننا دين النظام؛ يأمر بالنظام، ويهتم به في كل كبيرة وصغيرة، في الوضوء: ترتيب بين غسل الأعضاء وتنظيم لذلك.. في الصف نظام حتمي: «لتساوُن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم».

لقد اهتم الإسلام بالتنظيم والنظام في الحياة الاجتماعية على مستوى المجتمع والأسرة والفرد، والاهتمام بالنظام سلوك فردي يتعلمه الإنسان منذ صغره، وهو من أوائل أسباب التطور وإنجاز الأعمال، ولقد علمنا الإسلام كيف يجب النظام، فقد جاء الأمر في الصلاة بدقة النظام: «ساووا صفوفكم حاذوا بالمناكب والأقدام» ولا يجوز الصلاة في صف إلا عند اكتمال الصف السابق له، ولا يتقدم مصلون خارج المسجد على الإمام.. بل إن النظام في الوضوء وترتيب غسل الأعضاء، وغير ذلك من أدق صور النظام التي تميز بها الإسلام.

إننا يجب أن ننظم أعمالنا، وسائر شؤون حياتنا؛ فالفوضى وعدم الترتيب من أسباب الإخفاق وإضاعة الجهد في البحث الطويل عما نريد، والناس لا يصلحون فوضى؛ فلا بد من نظام يجمعهم، ورابط يوحد جهودهم لخدمة الوطن، والنظام الإسلامي من أرقى النظم التي عرفتها الدنيا تنظيماً للحياة.

إننا يجب أن ننظم أفكارنا ونحن نتحدث، أو ونحن نكتب، وننظم حياتنا ونحن نعمل وننجز. كل أعمال لنا تحتاج لنجاحنا فيها وإتمامها إلى النظام.

فلنلتزم جميعاً بالنظام في كل شيء، ولنعلّم أولادنا، ونربي صغارنا على النظام والترتيب، ونراقبهم كي تتأصل فيهم هذه القيمة الإسلامية الراقية.



المُرُوَّة

إني امرؤ لا يرد الخوف بادرتي ولا يحيف على أخلاقي الغضب
ملكْتُ حلمي فلم أنطق بمُنْدية وصنْتُ عِرْضي فلم تعلق به الريبُ

قال عن نفسه: «إني امرؤ» بمعنى أنه صاحب مروءة.

وما وصف به نفسه من عدم الخوف، وعدم الغضب، وتملك
زمام الحلم، وحفظ اللسان عن نطق العيب، وصون العرض عما
يسبب له الريب والشكوك هو المروءة.

والحق أن المروءة ليست قيمة، بل هي مجموعة كبرى متداخلة
من القيم.

فماذا قالوا عن المروءة؟

قالوا: المروءة كمال الرجولة، واجتماع خصال الفضائل في
عمل المرء، وفي قوله وفي سلوكه، وكل ما يحمد فعله، ويطلب مثله.

مجموعة كبرى من الأخلاقيات، عدد غير محدد من القيم
وكريم الصفات، ملأ الحديث عنها القرآن الكريم، والأحاديث النبوية
الشريفة، وكلام الخلفاء، والعلماء والشيوخ، والفلاسفة والشعراء.

ومع أن المروءة كانت معروفة سلوكاً وخلقاً قبل الإسلام، لكن
ورودها في الشعر والخطب الجاهلية قليل بالنسبة إلى تخلقهم بها.
ومن نوادر ذكرها ما قاله الشاعر الجاهلي.

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديد

وقد أصاب عين الحقيقة في أن المروءة طبع كريم، يولد مع الإنسان أو منذ صغره ويكبر، وتكثر صورته مع كبر سنه؛ لأن تكلفها مع الكبر غير صالح وغير حقيقي؛ إن المروءة كما هي في أصل تركيبها مجموعة من مكارم الأخلاق التي أشاد بها الإسلام والتي وصف الله تعالى نبيه المصطفى بها؛ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].. فالخلق العظيم هو جميع الفضائل والمكارم، وهو في ذلك أعم وصف، ومنه تقترب المروءة. فقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وله ﷺ في المروءة أحاديث كافية شافية لا يحتاج المرء بعدها إلى تعريف أو تحديد للمروءة.

تذكروا المروءة عند رسول الله ﷺ فأكثرُوا فيها؛ فقال: «أما مروءتنا، فأَنْ نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا، ونُعْطِي مَنْ حَرَمْنَا، ونصل من قَطَعْنَا» فأَيُّ أخلاق أكرم من ذلك؟، وأَيُّ صفات أنبل من هذه؟، وأَيُّ مروءة بعد ذلك؟

وسأل رجلاً من ثقيف: ما المروءة فيكم؟ قال: الصلاح في الدين، وإصلاح المعيشة، وسخاء النفس، وصلة الرحم، فقال: كذلك هي فينا. وقال أيضاً: «لا دين إلا بمروءة».

إنه ﷺ يؤكد على تعدد تركيبات عناصر المروءة ويجعلها الدين.. أي كل الصفات التي يجب أن تكون ملازمة للدين الحقيقي حتى آخر عمر الإنسان، ولحظات موته، فقال: «من لم يحسن الوصية عند الموت كان نقصاً في مروءته وعقله».

وأحاديث كثيرة له ﷺ تخص المروءة، وتحدد جوهرها الذي تتركب منه. منها قوله: «من عامل الناس فلم يظلمهم، ووعدهم فلم يخلفهم، وحدثهم فلم يكذبهم فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته».

ما بنا حاجة بعد ما قاله ﷺ إلى البحث عن معنى ومكونات المروءة، التي اعتبرها مجموعة قيم ومثل عليا لا قيمة منفردة، أو سمة مثالية واحدة.

وفي إطار هذه الصفات التي شملتها المروءة النبوية جاءت أقوال العرب، وذكروا مكوناتها ودلالاتها الجميلة، من تلك الأقوال المأثورة: «تاج المروءة التواضع» ومنها: «آفة المروءة خلف الوعد»، ومنها: «من ترك المراء سلمت له المروءة».

وجاءت المروءة في قول كثير من الفضلاء، فمن أقوالهم فيها: «من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك».

وقولهم: «من كمال المروءة أن تصون عرضك، وتكرم إخوانك».

دخل عبد الملك بن مروان، وهو فتى يافع على الخليفة معاوية بن أبي سفيان وعنده عمرو بن العاص، فجلس ملياً، ثم انصرف، فقال معاوية: ما أكمل مروءة هذا الفتى، وأخلقه أن يبلغ! فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين، إن هذا أخذ بخلائق أربع، وترك ثلاثاً؛ أخذ بأحسن الحديث إذا حدث، وبأحسن الاستماع إذا حدث، وبأيسر المؤونة إذا خولف، وبأحسن البشر إذا لقي، وترك مزاح من لا يثق بعقله ولا دينه وترك مخالطة لنأم الناس، وترك من الكلام ما يعتذر منه».

نعم، هذه بعض مؤشرات ودلائل المروءة.

وكثير من الناس ربط بين المروءة سمة أو سمات إنسانية راقية وبين بعض الأمور الأخرى التي ينفرد بها الإنسان أيضاً، فقالوا عن معاملها التي تشير إلى تحلي هذا الإنسان بالمروءة، وربطوا بينها وبين الفتوة، والعقل، والمال، والنجدة باعتبار هذه الصفات الإنسانية مركبة أيضاً، ولها دلالات عملية أيضاً.

يجمع كثير من الناس بين المروءة والفتوة، وكأنهما توءمان لا يفترقان.

ونحن اليوم أقرب إلى هذا المعنى للمروءة.. فهذا الرجل صاحب مروءة؛ لأنه انطلق يدافع عن هذا المظلوم، ولو لم يعرفه، وهذا صاحب مروءة وإباء؛ لأنه يأبى أن يرى عيباً يُفعل أمامه أو عاراً يندس عرض أحد يعرفه، وهذا ذو مروءة؛ لأنه جاء بأسرة ممن تضرروا في السيول أو الفيضانات والزلازل وأواهم، وتولى أمر معيشتهم.

هذا ذو مروءة؛ لأنه أخذ بيد هؤلاء المعوقين، ووفر لهم سبل العيش الكريم.

هذا صاحب مروءة؛ لأنه علم أن هذا الجار قد أَلَمَّتْ به نازلة، ويحتاج إلى عون، لكنه في حياء، فهذا صاحب المروءة يذهب إليه، ويعطيه ما شاء حتى يأذن الله بالفرج.

وهذا ذو مروءة عالية؛ لأنه تنازل عن حبس غريمه الذي سبب له ضرراً وخسارة، بل إنه من أعظمها تنازل أهل القتل عن الدية أو حتى القصاص تفضلاً منهم ومروءة.

لهذه الأمثلة التي نراها في واقعنا من أهل الفضل والخير والمروءة، فنعجب بهم وندعو للتأسي بفعالهم.

المروءة هي احترام للنفس، بترك الكذب والنفاق، والغش، والتدليس، والمراءات والتزلف، وتدخل الإنسان فيما لا يعنيه، والقيام بكل الحقوق والواجبات تجاه الأهل والناس، والوطن.

ليس ذا مروءة أبداً من انقطع عن والديه وعقّهم، وتكبر خيلاء على أهله وأقربائه وأصحابه بما حقق من ثراء مادي، أو منصب قيادي.

وذلك لأن هناك تصرفات أو أموراً تخلّ بالمروءة، وتغضّ من سمو مكانتها، وقد تكون صغيرة غير ملحوظة للجميع، من هذا جاء قول الإمام الشافعي: «لو علمت أن شرب الماء البارد يثلم المروءة ما شربته».

ليس من المروءة الحقد والحسد والريبة والنميمة، والشحّ والبخل، وظلم العباد وتعذيب العاملين، والخادمين.

ليس من المروءة ملابس الفخر والخيلاء، والتباهي أمام الناس، وذكر ما له من إمكانات، وما صار إليه من قدرات.

خلف الوعد تمزيق لثوب المروءة، لأنه كثيراً ما يكون ذلك الخلف إضاعة لآمال أسرة، أو تفريغ كربة، وغير ذلك كثير مما يهدم قمة المروءة من الصفات والسلوكيات، والذي لا ننسأه نحن مما يشوه جمال ثوب المروءة «مصاحبة الأشرار». وكم تعاني حياتنا الاجتماعية اليوم من مظاهر سيئة الشكل والمضمون، قبيحة الأداء والنهاية ثمرة السفهاء، وما يروّجون له من مفاسد في الحياة والناس.

للمروءة صفات وسمات، إن صعب تحقيقها والجمع بينها،
فإني أقول: «ما لا يدرك كله لا يترك جله» والواجب علينا أن نكون
أقرب للمثالية خير من أن نكون في نأي عنها.

وإني في أحاديثي عن القيم الإسلامية أذكر من نسي أن مكانة
الإسلام وحقيقة الإيمان تكون بمعيار التحلي بهذه القيم، التي بها
دخل كثيرون من شتى أمم الأرض في دين الله أفواجا، راضين
راغبين، بلا سيف ولا قتال.

فيا أهل الذكر والدعوة والإرشاد، ويا أيها المربون تمثلوا
بقيمنا، وركزوا عليها في دعوتكم وإرشادكم وتعليمكم.



الرَّحْمَةُ

لقد وردت كلمة (الرحمة) ومشتقاتها الوصفية والعملية ثلاث مئة وأربعين مرة في القرآن الكريم، وهي بهذا الكم الهائل من صور التعبير القرآني عنها تؤكد حقيقة أنها أم القيم، وموردها.

ولكن.. لماذا هذا النهج في الحديث عن الرحمة دون غيرها من القيم؟ ذلك لأنه كلما اشتد الأمر، واستحكمت الأحوال، لا نجد ملجأ في علاج ذلك إلا القرآن الكريم ففيه اليسر لكل عسر، والشفاء من كل داء.

واليوم في عالمنا المعاصر تجمدت الرحمة عند الناس إلا من رحم الله منهم وغلظت القلوب، وجفت ينابيع الشفقة، وصار بعض الخلق في مشاعرهم حجارة صماء وقلوبهم صخور عاتية، حتى اعتبر بعض الجفاة أن الرحمة ضعف، وأن الشفقة استرخاء، وصارت الفظاظة هي أسلوب التعامل العام، والقسوة هي الصفة السائدة في كل صور الحياة بين بعض الناس، ظناً أنها سبيل النجاة مما يخافونه من الزيغ والانحراف الذي ضيّع كثيراً من الناشئة، معتقدين على غير صواب أن هذه الجفوة وتلك الشدة هي السور الحاجب الذي يحمون به الصغار، ويضمنون حسن مسيرتهم في الحياة.

كثيرة صارت صور القسوة متعددة تعاملات الغلظة أما الرحمة فقد اندثرت عند هؤلاء الجفاة، وأما الشفقة عندهم فقد ووريت الأكفان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أعود للحديث القرآني عن الرحمة، وأقول:

يكفي الرحمة تقديراً وإعلاء وأهمية أنها هي الصفات التي وصف الله تعالى نفسه بها، وأوجب علينا البدء بها في كل عمل وكل حديث، بل وكل صلاة وقراءة للقرآن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وربما يسألني سائل: لماذا قال تعالى عن نفسه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الفاتحة: ٣]، ثم ﴿الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]؟ أقول له لغوياً: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ كثير الرحمة، وهو وصف مقصور على الله عز وجل، ولا يجوز أن يقال لغيره، و﴿الرَّحِيمُ﴾ مثلها وأكثر دلالة، فهي في علم الصنف «صفة مشبهة» وهي التي تعني الثبوت وعدم الزوال أبداً.

والرحمة هي الخير والنعمة، شاملة كل ما يتصل، وينتج عن ذلك.

ومن الرحمة انطلقت كل فعاليات وسلوكيات الخير والنعمة، وصور التعامل بها وتعدد آثارها وأدائها عند الله تعالى ومنه.

ومن هنا وجدت أن الحديث عن الرحمة سيكون أعظم ما يكون بالاستشهاد لها بآيات القرآن الكريم الثلاث مئة والأربعين، أليست أم الكتاب سورة الفاتحة؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣]، التي من فهمها لأسباب الحمد لله رب العالمين أول ما تكون هي أنه سبحانه وتعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣].

رحمة الله هي المنقذ والملاذ من كل شر ومكروه ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. فالكل غارق في الطوفان، هالك إلا من نالته رحمة الرحمن الرحيم: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ عَائِيْنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

رحمة الله التي تقمدها بعباده، فأزال ما بينهم من اختلاف ممزق لحالهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴿[هود: ١١٨].

فهنا نستخدم نحن الرحمة وحسن التعامل في جمع شملنا، وسعادة حياتنا استفادة بما تحدثه الرحمة الإلهية الكبرى!

ورحمة الله هي النجاة من النار، هي الإنقاذ من الخسران الكبير: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، أبعد هذا رجاء أكبر من الرحمة: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

الرحمة هي أعظم صور البر بالوالدين أحياء.. نخدمهما.. نرضيهما.. نعمل على راحتها.. وبعد موتها نستمع على البر بهما، وندعو لهما دائماً لا أقول: أعدهما.. أطعمهما.. لكن دائماً نقول: ﴿أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، و﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

الرحمة هي هداية القلب للإيمان، وتثبيت القلوب على الإسلام، وبغيرها الزيغ إلى الكفر والكفران: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

الرحمة هي لين الجانب، وهي رقة المشاعر، هي طيب الخواطر، وجمع الجميع على المحبة: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذه الآيات هي التي يجب أن نضعها أمام عيوننا، وأن تسود اليوم في كل تعاملاتنا فما أحوجنا الآن مع الجميع إلى لين القلوب، وطرح الفظاظات من التعامل العصيب.

الرحمة هي فضل الله على جميع رسله وأنبيائه لذاتهم، ثم إن تعاملهم بها مع أقوامهم هو سبيل الإقناع لاتباعهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [هود: ٦٦].

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤].

هكذا كل المرسلين، حتى كان النبي المصطفى الخاتم الذي قال له الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال عن القرآن ﴿وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

الرحمة ليست، كما يظن البعض، نوعاً من الضعف، أو التواضع المفتعل.. أبداً.. إن الله تعالى رحيم رحمن مع أنه القوي العزيز، حتى ارتبطت رحمته سبحانه وتعالى بعزته وقدرته أكثر من خمس وعشرين مرة في القرآن الكريم قولاً وفي حياة البشرية كلها حقيقة وعملاً.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ٩، ١٠].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَنَّا عَلَيْنَاهُمْ نَبَأَ إِنْرَهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٨، ٦٩].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٤، ١٠٥].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٣) كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿[الشعراء:

١٢٢، ١٢٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥٩) كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿

[الشعراء: ١٥٩، ١٦٠].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧٥) كَذَبَ أَصْحَابُ نَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿

[الشعراء: ١٧٥، ١٧٦].

ومع كل تكذيبهم، وتماديهم في الإعراض، فإن الله غفور رحيم لمن آمن منهم، واتبع المرسلين.

من هنا جاءت رحمة الله مقترنة بمغفرته أكثر من سبعين مرة في القرآن، وهذا العدد الكبير لرحمة الله دليل على شمولها كل خلقه في كل العصور والأوطان.

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢].

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

﴿فَأَمُّوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[آل عمران: ٨٩].

وأكثر من ذلك شمولاً لنا بالرحمة أن الرحمة هي الأرحام منذ بدء خلقنا، وجعل الأرحام من الرحمة؛ لأنها سبيل الحياة السعيدة، وهي مصدر الحنان، والحب، والعطف والإشفاق، بل جعلها سبيل النجاة من الهلاك.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وهكذا كثيرة صلة الأرحام، وكلها من الرحمة، والبعد عنها وعدم القيام بحقوقها سوء ما بعده سوء: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

من هذه الرحمات الإلهية الكثيرة الشاملة أن نأخذ العبرة في حياتنا، وأن تكون الرحمة بكل صورها، وفي كل لوازمها، بكل صادق معانيها هي سلوكنا الآن في هذا العصر الذي جفت فيه ينابيع الرحمة عند بعض الناس.

وأحاديث رسول الله ﷺ في الرحمة كثيرة متنوعة المدلول؛ لأنه هو الذي قال لنا الحديث الشريف: «قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي»، وقال ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

لقد أمرنا الحبيب المصطفى بالرحمة في كل صور حياتنا مع الناس، مع الأهل والأرحام، مع صغارنا. ومتعددة صور الرحمة في حياته ﷺ مع سائر الناس.. في كل العلاقات والمعاملات.

صور كثيرة من الرحمة الإلهية في القرآن الكريم، وأمثلة خالدة من الرحمة النبوية العظيمة ما أظن أن بعدها قول نحن في حاجة إليه لتعم حياتنا الرحمة، لتتعامل مع الجميع حولنا بالرحمة.

يا أصحاب القلوب التي لم تعِ عمق هذه المعاني، ولم تشعر
بالمعنى العظيم للرحمة، اجعلوا الرحمة سبيل الخير، والسعادة،
والرضا، مع كل من حولكم.. يرحمكم الله.

يا ليت من يعتلون منابر الوعظ والإرشاد يذكرون عامة
المسلمين بهذه المعاني العظيمة للرحمة.. بل ليتهم يوازنون بين ذكر
معاني الرحمة، وما هوشائع في خطبهم مما له علاقة بالخوف
والوعد والوعيد.. فالرحمة في حقيقتها قوة، وسلام، وسعادة..
وإيمان حقيقي، وطمأنينة تغمر النفوس والأرواح.



مَنْ حُماةُ الفضيلة؟ وما مسؤولياتهم؟

إنها الفضيلة، وهي كل سلوك أو كلام ينم عن الخير والفضل، أو يؤدي إلى العمل الصالح، ويعلم السلوك القويم، ويحث عملياً على الخلق النبيل.

وما أكثر دعاة الفضيلة في كل زمن، وما أروع نماذج الفضائل في كل جيل حتى في العصر القديم، وفي زمن الجاهلية كانت الفضائل مما يحبه الناس، بل كان مما يتميز به أناس عن أناس غيرهم.

ولما جاء الإسلام، جاءت الشريعة الإسلامية خاتمة للشرائع السماوية، ولأن الدين الإسلامي هو الأكمل، فإنه الأكثر شمولاً لكل الفضائل بكل معانيها.

لا تجد فضيلة في الدين، أو في الحكم والقيادة، أو في المعاملات الإنسانية، أو العلاقات الاجتماعية أو الصلة بين الأهل والأرحام، أو حتى العلاقة بين الإنسان والمخلوقات الأخرى حتى الجمادات إلا وفي الإسلام حثٌّ عليها، ودعوة للعمل بها.

لكن من هم دعاة الفضيلة؟ ماذا يجب أن يكونوا عليه حتى تثمر دعوتهم، وتؤثر فيمن يدعونهم؟

إنهم علماء الدين المخلصون، العالمون بحقائقه، المتصفون صدقاً بالفضائل التي جاءت في هذا الدين دون زيف أو تصنع، إنهم الفقهاء الذين آتاهم الله من العلم ما كشف لهم طرق الفضائل،

وألهمهم بعلمه معانيها، وسبل تحقيقها، إنهم العلماء الذين يعرفون أن فضيلة العلم هي أنبل الفضائل وألزمها للتحقق الفضائل الأخرى. إنهم المعلمون التربويون المسؤولون عن تهيئة النشء الذي يبدأ مسيرة الحياة وبفضيلة هؤلاء المعلمين يرتوي هذا الغرس الطيب، فيشبّ على هذه الفضائل الكريمة.

إنهم الأب والأم المسؤولان مع الآخرين عن تثبيت دعائم الفضيلة في الأبناء، فلا يهدم المنزل ما تبنيه المدرسة.

لكن هي حقيقة ثابتة تلك التي تقول: «إن الفضائل تنتقل من جيل إلى جيل بالقُدوة الصالحة والحب، ولا تنتقل بالكلام الذي يناقضه أو لا يرافقه العمل والصدق».

حقاً إن فاقد الشيء لا يعطيه، والفضائل وجميع القيم الإنسانية والأخلاقيات إنما هي وجود فعلي، وسلوك عملي مطلوب وجوده قبل كل شيء فيمن يدعو للفضيلة، أو يعلم الصغار، ويحث الكبار على التمسك بقيمها.

كيف يُعلّم المعلم الطلاب مادته، وهو بها جاهل؟!

كيف يطلب الوالد من ابنه ترك التدخين، وهو له مزاوِل؟!

كيف يخطب داعية لترك أمر من الأمور السيئة، وهو له فاعل، وبه معروف؟!

الفضيلة كالغرس لا يثمر إلا إذا كانت الأرض التي يزرع فيها صالحة لذلك، والزارع الذي يغرسها عارفاً بها، متمكناً من طرق إروائها ورعايتها.

ما أعجب أن ترى ذلك الرجل المتشدد المفوه بالكلام داعياً إلى الفضائل حاثاً على ترك الرذائل، وهو غير فاعل لذلك.

إن كلامه هذا لا يتجاوز الآذان؛ لأنه ليس من القلب، بل فقط من اللسان.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ليس المذيع للفضائل بوصفها مهنة له، أو حرفة بين أهله دون يقين بها، وإيمان بأهميتها، وتحلُّ بسماتها إلا كجهاز تكبير الصوت يذيع.. يعلو صوته وهو آلة صماء ليس في داخله شيء منها وبعد سنوات طويلة لن يتغير؛ لأنه حديد لا يشعر بها.

قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم ببيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

إن القول الذي لا يصدر عن يقين، والكلام الذي لا يرتبط بالإيمان به وممارسته وتطبيق القول مع العمل إنما هو كالريح تثير الزوابع، وتعفر الجودون فائدة منها، أما الريح الطيبة فهي التي تحمل السحاب، وتمطر الغيث خيراً للناس وبركة الحياة.

الفضيلة تنتقل من جيل إلى جيل بالقدوة الصالحة والحب،
 القدوة الصالحة هي الأنموذج المتحلي حقاً بالفضيلة، الممسك بها،
 المتأدب بأدائها الفاعل لأمرها والداعي الآخرين للتحلى بها.
 هو قدوة صالحة.. لكن يجب أن تصاحبها فضيلة أخرى هي
 الحب..

حب هذه الفضيلة لما لها من خير في حياة الناس، ولما لها من
 مكان في الدين والعقيدة.

حب لأن تنتشر هذه الفضيلة بين الناس؛ فيعمل هو جاهداً على
 انتشارها، على بيان آثارها، على توضيح الخير فيها.

حب للخير في ذاته.. حب للناس حقاً يريد لهم الحب.. ومن
 أجمل الحب لهم أن يكونوا من أصحاب الفضيلة، لا من الأراذل
 ورواد الرذيلة.

حب شامل للحياة.. فالفضائل تجعل حياة الناس طيبة خالية
 من الأذى والشر، خالية من الظلم والقهر والفقر.

حقاً إنها القدوة والحب دعاة الفضيلة، وهناك من هم حماتها
 وحراسها.

حماتها هم من يدعون إليها، ولا يخالفونها، هم من يتحدثون
 عنها، ولا يتركون يوماً التمسك بها، والإصرار على ثباتها.

هم الذين يرددون قوله تعالى: ﴿...وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا
 أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنِّي مَأْمُورٌ بِالْإِصْلَاحِ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا

بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ .. هم الذين يخافون أن يكونوا من الذين جاء ذكرهم في الحديث النبوي الشريف: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتنزلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار.. فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر، وآتية».

هذه هي نهاية دعاة الفضيلة الذين لا يعملون بها...

هذا هو مصير الأمرين بالمعروف، التاركين لفعله...

بل هذه هي العقوبة الوخيمة للناهين عن المنكر المتمسكين بفعله...

إنى لأربأ بكل مسلم عاقل مؤمن بيقين أن يضع نفسه في مثل هذا الحال.. وأرجو أن نتصور هذه الصورة، فذلك كفيل بأن نتمسك حقاً، وقولاً، وعملاً، وإيماناً بالفضائل متصفين بها، عاملين بما فيها، مخلصين في الدعوة إليها، وحباً لمن ندعولهم بالنجاة من سوء عاقبة الزيف في التظاهر بها، الذي قال فيه الشاعر:

ثوب الرياء يشفّ عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عاري

آه.. لو أقيم العدل.. وتحققت الأمانة، وساد الإخلاص..

في هذه الأيام التي تمرّ بنا ومن حولنا أحداث تجزع لها النفس، وتزعزع بها الحياة أجدني مشدوداً كما أنا دائماً إلى

حاجتنا للتمسك بقيمنا الإسلامية؛ فلو أن القيم الإسلامية أخذت موقعها في حياتنا، بل في حياة الأمم قاطبة لعاش العالم كله في سلام ورخاء.

فكلما تأملت فيما يجري حولنا من أحداث على الصعيد العربي والإسلامي والعالمي بل على المستوى الجزئي والكلي وجدت أن ما يصيب المجتمع من أحداث مذهلة، أو كوارث مفاجئة هو من جراء تغاضي بعض الناس عن أهمية الأخذ بالقيم التي هي سور حماية لكل الأمور، ونهج إصلاح لكل المصالح العامة، وطريق سلام للمجتمعات. من ذلك..

أنه لو ساد العدل والإنصاف، وشعر الناس بالتكافؤ فيما يقدم لهم، والمساواة في معاملاتهم ما هبّ الثائرون، ولا تزعزعت حياة الأمنين.

لكن حين يفيض الكيل تنطلق الحناجر، وتعلو الأيادي مطالبة مَنْ هم وراء ذلك من المسؤولين أن يحققوا العدل للجميع على السواء، وأن يراعوا الله والوطن في توزيع الحقوق وعدالة المعاملة، وإعطاء ما يجب لمن يستحق كما يجب، دون تحيز لمصالح شخصية، ولا إثارة لمطامع ذاتية، وكما قال أحد قدماء الحكماء: «بالراعي تصلح الرعية، وبالعدل تملك البرية، وأفضل الحكام من أحسن في فصله ونيته، وعدل في جنده ورعيته».

رضي الله عنك يا ابن الخطاب، حين وجدك مندوب كسرى نائماً تحت شجرة تتوسد ذراعك ببردة كاد طول العهد يبليها، وأنت خليفة المسلمين وأميرهم، فقال: «حكمت، فعدلت، فأمنت، فتمت مستريحاً يا عمر» وعبر عن ذلك حافظ في عمريته:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها سوراً من الجند والأحراس يحميها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ببردة كاد طول العهد يبليها
فقال قولة حق أصبحت مثلاً وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها:
أمنت لما أقيمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها

العدل والإنصاف يُبعدان من يقوم بتحقيقهما عن كل مطامع ذاتية، أو أنانية شخصية ويُبعدان صاحبهما عن الظلم والتجني؛ فالعادل لا يخاف أحداً، ولا يخشى سلوكاً وتُقل عن أحد الحكماء حين سئل أيهما أفضل: العدل أم الشجاعة؟ قال: إذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة.

أما الأمانة فهي الأمان، والسلام، والحق، والوفاء، وحين تضيع الأمانة ينتشر الظلم والفساد.

الأمانة رأس القيم وأم الفضائل، وهي طاردة الأهواء والنزعات والشهوات.

حمل الله الإنسان الأمانة من بين سائر مخلوقاته، وكلهم خافوا من عظم مسؤولياتها: ﴿فَأَيُّكُمْ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ولو أن الأمانة سادت في كل معاملاتنا عند المتحدث في كلامه، وعند الناصح في نصحه، وعند التاجر في ميزانه، وعند المسؤول فيما أوكل إليه لما كانت هناك مظالم ولا شكايات، ولعمم الرخاء والسلام بين الجميع، ولنفذت المصالح العامة على خير وجه وأكمله؛ بما يضمن لها استمرارية الأداء وجودته.

لقد كادت الأمانة تلفظ آخر أنفاسها في حاضرننا عند بعض الناس، وليت المسؤولين على اختلاف مواقعهم يتذكرون دائماً: «أنها أمانة، وأنها خزي وندامة إلا من اتقى الله، ورعى أمانته، وأداها على خير وجه».

ويأتي الإخلاص مكماً لعقد جواهر الفضائل، مذكراً بكلمة حكيمة للإمام ابن تيمية، قال رحمه الله: «إن الإسلام يدور كله حول أمرين: الإخلاص للحق، ورحمة الخلق».

تأملت في هذه الحكمة، فإذا بها حقيقة لا طريق للشك فيها؛ إذ إن قوام الأمر هو الإخلاص للحق، وليس للباطل، والرحمة المطلقة لعموم الخلق، فلو أن كل مسؤول رعى ذلك في مسؤولياته لما تكشفت النقائص، ولا سادت الانحرافات.

ويأتي الإخلاص للوطن الذي ينتمي إليه الإنسان أهم صور الإخلاص بعد الإخلاص لله في عباداته. ولذوي القربى في معاملتهم، الوطن هو الذات والكرامة يدافع عنه المخلص، ويرعى حقوقه، وحين يكون مسؤولاً فإنه ينفذ كل ما يوكل إليه على الوجه الأكمل يخلص للعمل ذاته، ولمن يعملون معه، ولا يحمل إلى القيادات فوقه أموراً وتقارير غير واقعية ولا صادقة، ولا يهمل ما يوجه إليه رؤساؤه.

والمال العام الذي تحت يد المسؤول أهم من ماله الخاص، إن تضییع المال العام في غير مكانه جرم وخسارة أبشع من تضییع المال الخاص؛ لأن المال العام هو مال لكل فرد في الوطن، فلينظر المفرط فيه كم مليون صاحب حق سيقاضونه أمام الله يوم القيامة.

وهنا، ومن الإخلاص للحق، والالتزام بالأمانة، وتحقيق العدل
أن يُحاسب كل مقصر وظالم، وخائن، وأن يُردع جزاء خيانتته وظلمه
وتقصيره.



يا حسرتاه.. هل ضاع الصدق؟

الصدق والأمانة متلازمان، ولا أمانة دون صدق، ولا صدق دون أمانة، ورسولنا العظيم وُصِفَ بالصادق الأمين، وقبله الأنبياء جميعاً:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ [مريم: ٥٦].

ما أعظمك يا رسول الله القائل: «تحروا الصدق، وإن رأيتم أن الهلكة فيه؛ فإن فيه النجاة».

وقولك: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة».

إني أشعر بالأسى العميق، حين أرى الذين يتحدثون نفاقاً، ويرأوون كذباً، ويبالغون في وصف الآخرين خداعاً، إنهم المتزلفون، الكذابون، المخادعون ما أبشع جرمهم وما أشنع فعلهم أولئك الذين يقدمون صوراً وردية لبعض الأمور؛ ليرضوا رؤساءهم، والحقيقة أنها في معظمها أوهام ومبالغات، وصور كرتونية، وعرائس تمثيلية. أيها الصدق العظيم، لقد قتلوك كثيراً، ومسخوا صورتك الجميلة، بل استبدلوا بك أسماء هي ليست منك أبداً.

أضاعوك في أحاديثهم، وحتى في عباداتهم لله.

كم خدع الكذابون المنافقون حكامهم ورؤساءهم، وجلبوا بكذبهم الشر والضياع لبلادهم!

لن يرقى مجتمع، ولن تتقدم أمة إلا حين يكون الصدق متمثلاً
في كل الأقوال والأعمال.

صدق الحديث صدق الإيمان صدق الشعور.

وفي اللغة تحديد لماهية الصدق.

صَدَقَ في الحديث صدقاً أخبر بالواقع.

صَدَقَ النصيحة والإخاء أخلصهما.

صَدَقَ الوعد أوفى به.

أَصْدَقَ فلاناً عدّه صادقاً.

صَدَّقَهُ تصديقاً اعترف بصدق حديثه.

رحبة مجالات الصدق، متعددة صوره، عظيمة آثاره القريبة
والبعيدة.

العجب كل العجب أن المرء يقيم الدنيا، ولا يقعدُها إذا قيل
له: «إنك كذاب» فهو يكذب ويعرف في داخله أنه يكذب ويغالي؛
لكنه يرفض أن يوصف بهذا الوصف؛ لما فيه من شناعة وخسة
ومذلة، أنت وحدك تعرف نفسك إن كنت صادقاً في قولك أو عملك،
وضميرك وعقلك يصدقانك أو يكذبانك.

الصدق شرط أساسي لصحة وقبول كل عمل؛ فشرط الإيمان
الحقيقي هو الشعور الصادق به في داخلك، ويوافق عليه ضميرك
وعقلك، وعليه فلن تقبل صلاتك، ولا صومك، ولا عباداتك إن لم

تكن صادق الإيمان بالله، صادقاً في أنك تصلي له وتصوم له، وتتصدق لوجهه الكريم.

ولهذا كان لقب «الصادق الأمين» الصادق أولاً تثبيتاً للأمانة والإيمان، وليس مؤمناً صادق الإيمان من يفعل شيئاً بغير صدق حقيقي تقرّه نفسه، ويطمئن إليه قلبه، ويوافقه ضميره.

الصدق واجب على كل إنسان في كل موقع، ومع كل الناس، فالمسؤول لا بد أن يكون صادقاً مع رؤسائه، صادق الحديث معهم، صادق البيان والوصف لما هو تحت إدارته من أعمال وواجبات يقول الحقيقة كما هي، دون زيادة أو نقص منها.

وكم من مسؤول لم يصدق مع رئيسه، فتكشفت الحقائق الخفية، وكانت له نهايات غير مرضية.

المدير والمسؤول يجب أن يديم الصدق في القول والعمل مع من يعملون تحت إدارته، يطلعهم بوضوح وصدق شامل على كل جوانب العمل والحقائق في عمله؛ حتى لا يكون هناك زيف يظهر فيما بعد تكون نتائجه اهتزاز الثقة في شخصه، وتمرد العاملين عليه في مؤسسته، ويعاملونه كذباً بمثل ما عاملهم هو به.

الصدق مقياس دقيق بالغ الدقة لصواب كل قول وصحة كل عمل.

وإذا أنت لم تلتزم بدقائق وخصائص الصدق الحقيقي في كل أقوالك وأعمالك وعلاقاتك فأنت قد ملت إلى جانب الكذب والنفاق.

وما أسوأ صورة الإنسان الذي يُعرف عنه أنه كاذب، وما أخس مكانة الإنسان الذي يقال عنه: إنه منافق.

وتعالَ معي نقرأ قول الله تعالى محذراً لنا من الكذب:

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ولنتوقف عند أقوال الحبيب المصطفى الصادق الأمين يقول: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب».

وقال ﷺ: «لا يؤمن العبد بالإيمان كله حتى يترك الكذب».

وسئل ﷺ: «أ يكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، ثم قيل له: أ يكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم، قيل له: أ يكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا».

وقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

إن بلادنا منبع الإسلام والأخذ بفضائله، وقيمه واجب مقدس علينا، وعلى الصادقين الأمناء أن يصدقوا الله، ويصدقوا أولي الأمر، ويفضحوا الكذابين المنافقين، ولا نجاة لأي مجتمع يشيع فيه الكذب والنفاق، والتزلف والمرء؛ فلنعمل جاهدين جميعاً على تحري الصدق؛ فإنه منجاة، مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «إن الله نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً، وعرفت أنني لا أنجو إلا بالصدق».

فلنسر على نهج نبينا.. ونحقق ما أمرنا به رسولنا.. ولنردع
الكذابين، ونبعدهم عن كل مواقع العمل، ولا نقبل رياء المنافقين..
ولتكن لنا عبرة في كل الأحداث المعاصرة حولنا.



الحب الكبير الطاهر..

هل أنت من أهله؟!

لست صوفيًّا، لكنني معجب بالمشاعر الوجدانية الإنسانية، التي
أساسها ولُبُّها وذروة سنامها، بل كلها الحب، ولا سواها.

الحب هل تعرفه؟! هل ملأ شغاف قلبك؟

هل ذقت حلاوة سعادته، وحلاوة عذابه؟!

الحب لمن سعد به شيء عظيم، يطلب المزيد من سيطرته على
الروح والعقل.. الحب مقدم عنده على كل شيء من آمال وأعمال
حياته الدنيوية.

الحب أرقى القيم بعد الإيمان، بل لا يكون الإيمان حقيقياً
صادقاً إلا إذا أحببت الله وأحببت رسوله، وأحببت دينه، وأحببت
راضياً القيام بكل ما يتطلبه هذا الحب منك. إنك لا تحب الله كامل
وصادق الحب إذا خالفت شرعه، ولا تكون محباً حقيقياً له إذا لم
تتمسك بتعاليم دينه، وأن تحب خلقه، وترحمهم.

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ثمانون آية قرآنية كريمة تحمل كل صور وألوان وواجبات الحب
الحقيقي.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

[آل عمران: ٣١].

والحب المتبادل بين طرفي الحب يرسم لنا منهج الحياة الطيبة،
ويقربنا من الله تعالى، ويجعلنا ممن هم بالإيمان متمسكون، ويحب
من يحبونه مخلصين.

الحب صدق في القول، والعمل، والشعور تجاه من تحب.

الحب تواضع لمن تحب، وسعي دائم لإرضائه، وعمل كل ما
يقربك إليه.

تتجلى مظاهر الحب النبيلة في التضحية ونبذ الأنانية، فالحب
يحيط صاحبه بهالات من حبه للآخرين، والرحمة بهم، والإشفاق عليهم.
الحب هو الحق.. كل الحق.. ولا يجتمع في قلب واحد حب
وظلم، أو حب وبطش..

الحب يمنع الجشع، ويقف ضد الأنانية والتسلط، بل هو من
أول دوافع الأخذ بالحق، وعوامل الإيثار. هو الذي يدفع الأب أن
يقدم مطالب أولاده على ضروراته وهو الذي يمنع أصحاب السلطة
من الاستغلال لما عند الناس حولهم؛ فكم من المسؤولين على تنوع
مراكزهم القيادية، ووظائفهم الإدارية أخذوا من حقوق غيرهم،
ونهبوا من ثروات ما تحت أيديهم، وبطشوا بمن هم دونهم.. لكن لا
بد للحق من يوم يقوم فيه؛ فإن الحق من أسماء الله تعالى التي لا
يتوقف صداها، ولا يضيع تأثيرها.

وكم يندم من يسلب حقوق الآخرين عندما تنكشف الأمور،
ويتضح الحق؛ ساعتها لا يجدي الندم؛ فالجزاء يكون دائماً كبيراً
قاسياً بحجم ما كان من ظلم وطفیان.

والأحداث حولنا خير شاهد على ما يجنيه أصحاب الجشع
الذين ضاع حب الخير من نفوسهم، فكان لهم سوء العاقبة،
وبشاعة المصير.

أيها الكرام المحبون، أيها الأبرار الأنقياء، أيها الناصحون
الأصفياء، اغرسوا معاني الحب، وأشربوها، وأطعموها للناس
جميعاً؛ حتى تنمو أجسامهم وتكبر عقولهم، وتثمر نفوسهم حباً
كالذي ارتووه منكم، وحتى تكون محبتهم للناس فوق حبهم لأنفسهم
ومطامعهم وسيطرتهم، فليعرفوا نهاية الحياة المحيطة بهم، وكيف
تكون ذكراهم بعد رحيلهم.

قيم الحب إذا كانت في جواهر وعظيم الفعال تكون قيماً عظيمة
تجعل حياتنا سعيدة، وننال بها حب الله، وهو أسمى وأرقى صور الحب
التي أضاعها بعض الناس فخسروا حب الله لهم، وحتماً سيخسرون
حب الناس أيضاً، بل سيقاسون من شماتة المظلومين بهم.

إذا أردت أن تحظى بحب الله، فلا تعتد على حياة وحقوق الناس،
وأمن وسلامة الوطن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

إذا رغبت أن تسعد بحب الله لك، فلا تظلم الآخرين في شيء
يخصهم: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧] وما أكثر صور الظلم
في حياتنا المعاصرة.

قيمة التواضع ورقّة التعامل تمنحك شرف حب الله لك:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] .. مختالاً على
الناس فخوراً بجاهه وماله.

ومن أكثر صور ما يبعد المرء عن حب الله، الخيانة.
فظيع جداً ما يترتب على الخيانة، فإذا كان ذلك في المال العام
وطريقة إنفاقه فإنه أشد وأنكى.

أيها الخائن، هل تقبل أن يحدث لك أو معك من الخيانة مثل
ما تفعل.. ألا تعرف أنك بخيانتك تفقد حب الله لك، ويصبح كسبك
حراماً؛ فلا تأكل في بطنك، ولا تلبس على جسمك إلا ما جاء من
حرام: «النار أخف منه».

أما سمعت الآية الجليلة المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

قيمة الأمانة في كل صورها تجعلك ممن يحبهم الله، فلا تخن،
ولا تخترق سور الأمانات في أي صورة من صورها الحسية والمعنوية.
ماذا بقي لك في حياتك أيها الخائن، بعد أن كرهك الله،
ويسبب لك كراهية الناس؟!

حب الله لك يتطلب منك السعي بالخير والإصلاح.

لا للفساد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [التقصص: ٧٧].

وهكذا.. أنت في حوزة ورضا أعظم حب.. حب الله لك إذا
تمسكت بقيم الإيمان، وعملت بقيم الإسلام.

يا كل من يسعى للسعادة سعادة الحب، عليك بالحب الأعظم،
وكن له محباً صادقاً، ولا تخسر هذا النعيم الخالد بهذا الحب
الإلهي العظيم.

أنا لا أقول هذا ليكون مجرد كلام يُقرأ، ولا نصحاً يُنشر، لكني
أهيب بالجميع أن يتدبروا في لحظات خلومع النفس حقيقة هذا
القول، ويتحلوا بما قد يكون غائباً عنهم من صور الحب، وليكن
لديهم يقين بأن كل من يحظى بحب الله له ورضاه عليه، فكل شيء
عنده بعد ذلك هين.

لا تحرموا أنفسكم من جنات النعيم.. لا تحيدوا عن الحب
الأعظم الكبير، فالحرمان من حب الله خسارة لا تعدها كل الدنيا
وما فيها، فأسعدوا به أرواحكم، أشغلوا به قلوبكم وعقولكم.

هذه ملامح موجزة عن حقيقة هذا الجوهر الذي يعمر القلب،
ويختلج في الروح، إنه الحب، والحب بمفهومه الكبير المتسع الشامل
يحقق أجمل حياة، وأسعد مشاعر للإنسان.

ياليثنا جميعاً نحب.. ياليثنا جميعاً نحب الله الحب الصادق
القوي.. فنحب كل ما جاء به حبيبنا الرسول ﷺ من عظيم القيم،
وطاهر السلوكيات، ونحب الناس الذين تقترب منهم أرواحنا،
وتتألف معهم قلوبنا، وتشتعل أشواقنا لهم في وجداننا.

الحب هو أنت.. هو ذاتك.. هو عقلك المفكر، هو قلبك الخافق..
هو وجدانك الشاعر.

فلنكن مع المحبين الذين عرفناهم في تاريخ الحب العظيم، فلم
يؤثر عنهم شيء غير الحب، ولم تمس قلوبهم شائبة البغضاء أو
الكراهية لحظة واحدة.

كرامة الإنسان..

هل هناك اليوم ألزم من الدعوة إلى حفظها؟

الإنسان هو أكرم شيء في هذا الوجود، وهو مكرم عند الله، ابتداء من آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والقرآن الكريم يشير إلى كرامة الإنسان، ويؤكدها، ويخصه بها بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

لقد كرم الله الإنسان لذات إنسانيته، من غير اعتبار آخر، من دين، أو لون أو لغة، أو قومية، فالناس جميعاً متساوون كأسنان المشط، أولاد أب واحد وأم واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لثري على فقير. فالكرامة للجميع: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وإنما يتفاضل الناس، ويكون بعضهم أكثر كرامة عند الله من بعض بما يُقدم للناس من خير، أو يدفع عنهم من شر: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. أي أعظمكم كرامة.

والإنسان مكرم عند الله؛ لأنه من روح الله، ومن تكريم الله للإنسان أنه أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

ولقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له كل ما في السماوات وما في الأرض، وهذا يعني أن الإنسان أكرم على الله من الأرض وما عليها من غيره؛ ومن أجل تكريم الإنسان وقف رسول الله ﷺ لجنائزة يهودي عندما مرت أمامه، وعندما قال له أحد الصحابة: إنها جنائزة يهودي يا رسول الله، قال: «أو ليست نفساً خلقها الله»، ومن أجل عظيم قيمة ورفعته كرامة الإنسان عند الله قال رسول الله ﷺ: «لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار»، وقال ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»، وقرر ذلك القرآن الكريم: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وهنا أطلق الله المراد بالنفس دون أن يحدد دين صاحبها أو لونه أو جنسيته.

وإذا كان الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه بصفته إنساناً لا بصفته حيواناً أو أي شيء آخر، وجعله وحده خليفة في أرضه، معمرًا للكون، فإن الإنسان إذا انحرف عن سنن الحق، وتكرر لخالقه، واتبع سبيل الغواية عند ذلك يسقط إلى أسفل سافلين، وينحط تحت درجة الدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]، ومثل الذي كفر، واتبع الشيطان على الرغم من كثرة نعم الله عليه: ﴿فَثَلُّهُ كَمَلٍ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وسُخط الله وقع على الذين اعتدوا على حدوده، ومن أشد الاعتداء على حدوده ما نراه اليوم من أفعال الطغاة الذين صاروا أشد ضرواة من الوحوش الكاسرة بغية التسلط والقهر لغيرهم من مواطنيهم.

ومن أظهر صور احترام الإسلام لكرامة الإنسان، وجعل الحجة والبرهان والإقناع سبيل الإيمان أن ترك للإنسان حرية الاختيار: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

كرامة الإنسان الحياتية والعملية هي التزامه قبل كل شيء بأسس القيم العليا، ومن الخطأ أن يظن بعض الناس أن كرامة الإنسان تعني التزمّت والتكبر والتسلط والانفعال لأقل شيء، ورفض تجاوز أحد في عمل أو كلام معه، ويصرخ ويقول: «كرامتي».

أقول له: إن كرامتك تتحقق بالتزامك بالقيم الإيمانية، والأخلاق السامية، بها تكون قد أديت حق كرامتك عند الله، وبها تقال كرامتك عند الناس.

الكرامة هي الصدق المطلق، فلا كرامة عند الله أو عند الناس للكذاب الأفاق ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

كرامتك لا في زهوك الخادع، ولا في غرورك الجاهل؛ إنما الكرامة هي التواضع مع الناس جميعاً، وحسن التعامل معهم.

كرامتك عند الله وعند الناس تكون حين توفّي بالعهد، ولا تتنصل من ذلك: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ولا كرامة لخائن؛ لأن أعظم سمات الكرامة واحترام الناس الأمانة في كل التعاملات: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَا مُنْتَهَى لَهُمْ وَعَهْدُهُمْ رُغْوَنٌ﴾ [المؤمنون: ٨].

ثم إن العجب العجاب أن نرى الذين لا يقدرّون كرامة الله للإنسان، فيهيئونه باللفظ الموجه، والمعاملة المهينة، وهؤلاء المتكبرون زهواً كاذباً على البشر، والذين يقومون الناس بما لديهم

من مال، وما هم فيه من مناصب، وما لهم من سلطان قد نسوا أن ذلك كله إلى زوال.

بل الأمر أدهى من هذا وأمرٌ.

فيا حسرتاه على حالنا نحن المسلمين اليوم، نرى بعض الأحداث حولنا تهدر فيها الدماء بلا حساب، ويقتل الناس من جراء مطالبهم الإنسانية المستحقة لهم!

إن كرامة الإنسان في وطنه أن تتحقق له أول ما تتحقق توفير سبل الصحة له ولأسرته، وموارد العيش الكريم لهم، وبيت يجمعهم ويستريحهم، ومؤسسات تربوية تعلمهم وثقفهم، وتجهزهم للمساهمة في نهضة وطنهم ونمو بلادهم، وقبل هذا كله حماية أمنهم، والحفاظ على حياتهم، وشيوع العدل بينهم.

ولا عذر لمجتمع لا يوفر لأبنائه هذه الضرورات الحياتية، وبخاصة المجتمعات ذات القدرة الاقتصادية، ويتعين ذلك أكثر حين يكون الثراء في بعض المجتمعات يزداد يوماً بعد آخر عند فئة صغيرة يمتلكون ٧٠٪ من الثروة الوطنية، ونسبتهم لا تتعدى ١٪ من مجموع المواطنين، ويشترك ٩٩٪ من المواطنين في ٣٠٪ من الثروة، وقد تكشف هذا الحيف الطاغى فيما حدث مؤخراً في بعض البلدان المجاورة، إن عظمة الرقي الحضاري للوطن تقاس بمدى كرامة حياة أبنائه، ورغد عيشهم فيه وتحقق التكافل الاجتماعي بين جميع مواطنيه وشعورهم بالمسؤولية الاجتماعية نحو بعضهم.

وحين تنادي هيئات حقوق الإنسان الحكومية منها والأهلية بصون وأداء هذه الحقوق للناس فإنها تهمل بقصد أو غير قصد

هؤلاء الجياع العرايا، المشردين في الطرقات وتحت الممرات في كثير من الدول التي تدّعي الرقي الحضاري، والتطور الاقتصادي، إنه تناقض صارخ بين هذا الواقع المروع، وبين ما يزعمونه من نهضة عليا وديمقراطية وتقدم.

وأشد من ذلك نكالا ما تمارسه الدول العدوانية، وفي مقدمتها إسرائيل من تجنُّ صارخ على حقوق الإنسان وإهانة كرامته، يتمثل ذلك في العقاب الجماعي المتكرر لأناس أبرياء، منهم الأطفال، والنساء، وكبار السن، من دون جريمة ارتكبوها ويقطعون الماء والغذاء والدواء؛ بل يمنعون وصول معونات الهيئات الإنسانية المرسلة لإغاثتهم، والزج بألوف الناس في السجون دون محاكمة لهم.

أين كرامة الإنسان عند هؤلاء الطغاة الذين يمارسون التفرقة العنصرية ضد مواطني دولتهم، والذين يقيمون جدارا للفصل العنصري لاشبيه له في أي بقعة من العالم؛ هل هؤلاء وعوا ولو نذرا يسيرا من حقوق كرامة الإنسان، وعرفوا معناها، ويندرج إهدار كرامة الإنسان تحت ما نشاهده اليوم من وحشية بعض الحكام في قمع شعوبهم التي هبت تطالب بتحقيق الكرامة الإنسانية.

ما أعظم ديننا، ولو حققنا بصدق كامل ما دعا إليه من حقوق كرامة الإنسان ما عاش شقي ولا مهضوم، ولا شكا ذليل أو مظلوم.



فلنكافح النفاق؛ لأنه من صور الفساد

الفساد في اللغة العربية، وفي الواقع يقابله الصلاح والاستقامة، ولذا فإنه من أشد ما نهي الله عنه، ومن أجل مقاومة هذا الفساد جاء ضمن الأوامر الملكية السامية إنشاء «الهيئة الوطنية لمكافحة الفساد».

وَعُيِّنَ على رأسها رجل من خيرة رجالنا، عرف بصلاحه، واستقامته، وصدقه، وهو الأستاذ محمد بن عبد الله الشريف، أعانه الله وأعوانه على تحقيق هذه الغاية السامية.

ولكن هناك فساد لا يكافحه إلا نقاء الضمائر وصلاح النفوس.. ذلكم هو النفاق.

فالنفاق كذب وافتراء، وفساد في الذمة والخلق؛ لذا فهو جامع لكثير من صور الفساد، وإن أهل الرياء وأرباب النفاق هم صورة مشوهة بشعة للنفس البشرية، وفي هذا المعنى يقول رسولنا ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان».

آه لو عرف المرائي، ورأى المنافق لمحات من اللظى الموقد الذي ينتظره عند لقائه ربه لكفَّ عن ذلك، وندم على ما فعل أشد الندم.

الإنسان الصالح صاحب الوجه المشرق، والطلعة المنيرة، هو الصادق في قوله وأما الوجه الكظيم الذي يحمرُّ ويصفرُّ، ويتلون بكل لون، في كل موقف، وكل حين بحسب لزوم الحال، ذلك الذي تتفجَّر أسارير وجهه، ويجري الدم على قسمات خديه ويضحك بقوة

وحيوية ويبالغ مرحباً ومثنياً على من يأمل مصلحة عنده، أو رجاءً يبيغيه وراء مدحه، وهو في هذا الموقف ذاته بداخله هاتف لا يمكن إسكاته، يقول له بصوت عالٍ: أنت كاذب، أنت مرءٍ فيما تقول وتفعل.

إن من أشد الظواهر الاجتماعية التي صارت عند كثير من الناس اليوم سلوكاً متبعاً لا يجدون في ارتكابه غضاضة هو المبالغة الممقوتة في المديح والثناء والتهويل في تمجيد الآخرين، والمبالغة الشديدة في وصف أعمالهم، ويبدو ذلك كثيراً في بعض ما به يتحدثون، وما يكتبون وينشرون في وسائل الإعلام المختلفة، وما عرفوا أنهم بصنيعهم هذا قد وضعوا أنفسهم في محط الرذيلة. وأكثر ما يوجعك أن ترى مثل هذا يأتي ممن هم ضمن قادة الفكر والرأي والمثقفين في بلادنا.

ألا يعلم المغالون في المدح أن الذين تبالغ في مدحهم، وتملاً الدنيا ثناء رياءً لهم وتدبج الكلمات كاذباً في التقرب إليهم، والتمسح بوصلهم، والتهويل المبالغ لوصف ما يعملونهم ليسوا من الغباء حتى تطلي عليهم هذه الصناعات اللغوية، التي ليس وراءها أي صادق من مشاعر الإنسانية؛ بل إنهم يحتقرونك كاذباً منافقاً، وقد علمنا رسولنا الأكرم أن نحثوا التراب في وجه المداحين المبالغين، وعلى نهج رسول الله ﷺ سار كل الصحابة والصالحين في كل العصور.

إن كل من يعلم حقائق ديننا، ويتحلى بكريم قيم وسلوكيات وآداب وأخلاق شريعتنا تجد أنه في إباء عن كل ما يخدش المروءة، وينال من كرامة الإنسان وم صداقيته، فهو لا يأتي الرياء ولو كان مضطراً، ولا ينافق ولو كان أمام من ينافقه الآخرون، بل إن المسلم

المتمسك بدينه حقاً حريص على محاسبة نفسه في كل أقواله ومواقفه وإنه مؤاخذ على كل ذلك من رب العالمين، فهو لا يقبل أن يهان عند الله، ويكتب عنده كذاباً.

إن الناصح الأمين المخلص هو من يقول الصدق، ويسدي لمن يحبهم النصح الراشد، ولا يخدعهم بمبالغة القول، وزائف الأوصاف، وأيضاً لا يكون منكراً للصواب إذا رآه، ولا لذكر المحاسن إذا بدت أمامه، ولا جاحداً لمواقف الخير والصالح.

وأحياناً تأتي المبالغات في المديح والإطراء طلباً للنوال والتقرب ممن يمدحونهم وما عَرَفُوا أنهم بإطالتهم ومغالاتهم هذه يسيئون إلى من ينشدون منهم القرب والعطاء وينقلب المدح الكاذب إلى هجاء ساخر، لمن في مدحهم كانوا مبالغين.

وفي هذا قال الشاعر:

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بُعد المستقى عند الورود لما أطال رشاه

وفي هذا المعنى قال أبو الطيب المتنبي:

وما أنا بالباغي على الحبر رشوة ضعيف هوى يبغي عليه ثوابا

إن الكاذب في قوله، المرائي في موقفه، المنافق في مدحه، المتزلف في مبالغاته قد خسر كل شيء؛ فهو قد أغضب الله، ولم ينل تصديق ممدوحه، ولا احترام الآخرين له؛ لعدم قناعتهم بقوله، ونفورهم من سيئ مبالغاته.

التقدير الحق لمن يستحق المدح هو ذكر محاسنه للاقتداء بها، دون مزايده فوق ما هو فيها، ولا نقصان لفضل ما تحقق بها.

العدل والإنصاف هو إعطاء كل ذي حقَّ حقه، فالمرائي ليس عادلاً؛ لأنه يُعطي من يرائيه أكثر من حقه، وربما يدفعه ذلك إلى الغرور بنفسه، والتسلط على من هم في عمله وإدارته، والمنافق كذاب أَفَّا ق مخادع؛ لأنه يكذب في حديثه مع من ينافقه

وربما نفخ أوداجه متجاوزاً لحدود الحق والعدل فيما يصفه به، وقد يخدعه ويغريه زهواً وغروراً بما سمعه من منافقه، فكيف تعتدل سيرة الحياة؟!

فبربكم أروني كيف يتحقق القسط، والعدل، والميزان، وبيننا من يسند إلى من ينافقهم ما لم يفعلوه، ويجحد منكرًا للمخلصين ما أنجزوه!

سمح بحق قول الرياء، سفه جداً كلام النفاق، عريان من الكرامة ذلك المرائي، مكشوف الستر مفضوح ذلك المنافق.

كم هي أمنية غالية أن يتأمل المداح المغالي فيما جنى من وراء نفاقه، وهل حقق شيئاً ذا بال من وراء كذبه.

هذا.. ولأن قيادتنا الصادقة الحريصة على اجتثاث الفساد من جذوره، وبكل صوره، وتعلم أن الزيف والتعلق من أشد مفسدات الحياة في المجتمع، والإضرار بحياة الأمة، سواء كان ذلك الفساد كلامياً أم عملياً في أداء الناس لواجباتهم وفي أعمالهم؛ لذا فلنكن معها جميعاً عيناً يقظة للمشاركة في مكافحة أي فساد في أي صورة

أو أي عمل. فإن مقاومة الفساد لا تتحقق إلا إذا أبلغ كل منا عما يراه من انحراف، أو يعرفه في موقع أو شخص من فساد، وأن يقاوم ذلك بنفسه ما استطاع، والحديث الشريف يقول: «من رأى منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».



صناعة الإنسان أهم من صياغة الكلام

قال لي صاحبي (عادل)، وهو ممن أحبهم، وأحترم قدراتهم: «إني معجب بمقالاتك الناقدة التي تتناول فيها بعض الجوانب الحياتية: الشؤون الاجتماعية، التعليمية، الممارسات اليومية، فهلا داومت على مثل هذه الجوانب، أما مقالاتك عن القيم فإني أخشى عليها من أن تصبح كالنصائح التي يقرؤها الناس، ولا يعملون بها». فكان جوابي لمحدثي: ألا تعلم أن أوجب الواجبات على الإنسان المؤمن هو تقديم النصح والإرشاد، وأن الصحافة هي إحدى الوسائل العامة لذلك؛ بل إنها في معظم الحالات أعمّ تأثيراً من المنابر، وأكثر انتشاراً في شيوخ وصولها من دروس المدارس والمعاهد، ولعلمك يا عادل فإن ما أتلّقه من تجاوب القراء مع مقالاتي عن القيم يفوق كثيراً ما تتصوره أنت من عدد، واهتمام.

آه! يا عادل لو أن جميع الناس عامة، والمسلمين منهم خاصة تمسكوا في حياتهم بهذه القيم الإسلامية الرفيعة، وعملوا بها، وكانت هي الصراط المستقيم في نهجهم لما وجدنا في حياتنا هذه المنغصات، وهذه الإحن والشحناء والفتن، ولعرفنا عملياً حياة الحب والخير والسلام والوئام ألا توافقني الرأي؟

إن صناعة الإنسان «لا أقصد خَلَقَه؛ فهذا لله وحده»، ولكن أريد تكوين بنائه النفسي، والخلقي، والعملية، إذ هذه العناصر تمثل المحاور الكبرى التي تسير عليها حياته، ويقوم عليها مستقبله.

إني لشديد التعجب من أناس في مجتمعنا يركزون في تعلمهم وتعليمهم على صناعة الكلام، فتسمع لهم رنيناً عالياً كرنين الأوعية الخاوية، والطبول الفارغة؛ لأنك لا تجد في أفعالهم شيئاً مما يدعون إلى العمل به في أقوالهم، وليتهم يتدبرون قول الله تعالى، ويخافون من سوء عقابه ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢، ٣].

لن يكون للمتمكن من الكلام وحسن سبكه، ولا للخطيب البارع في خطبته أي أثر عملي يذكر إلا إذا كان هو فاهماً لموضوعه، عاملاً بما يحث الآخريين على عمله متجنباً ما يأمر الآخريين بتجنبه، وكذا الحال مع حافظي النصوص دون فهم لمعانيها.

فمن هذا المنطلق لتكن العناية كل العناية بصناعة الإنسان؛ بمعنى إعداده خلقياً وسلوكياً، وعملياً حتى لو كان عيباً أو عاجزاً عن الكلام؛ لأن الإنسان الذي علينا أن نهتم بصناعته هو المتشرب للقيم العظمى، المتمثلة في سلوكياته الحميدة، إنسان لا يكذب، صريح لا ينافق، أمين لا يخون، يحب الناس، ولا يعرف البغضاء، طاهر القلب، لا يعرف الحقد أو الأنانية، قد طبع في تكوينه التواضع، ولين الجانب، مع الشجاعة، وصدق العزيمة.

إننا إذا جمعنا العناصر اللازمة لبناء الإنسان العظيم لوجدنا أنها هي ما يحقق له مكانه وقدره، واحترامه بين الناس.

نحذره من سوء الظن بالآخرين، والتجسس عليهم، وترك الهمز، واللمز، والتنايز.

نبعد عن أسس تكوينه الغلظة، والغضب، والرياء، والظلم،
والبغي، والخيلاء، والكبر والطمع، والجشع، ونبين له أن من أسباب
هدم البناء الإنساني اللامبالاة، والتقصير والجهر بالسوء،
والفوضى، واشغال الفتن، أو الانضمام إلى من أوقدوها: «الفتنة
نائمة لعن الله من أيقظها».

نغرس فيه الأصول اللازمة للمواطن الصالح، الذي يحب
وطنه، ويحميه، ويعمل على خيره ويفديه.. مطيعاً لحاكمه في
الصالح المشهود من أمور الدين، وصالح الوطن ونفعه، يتكافل
اجتماعياً مع كل المواطنين حوله، يحترم الكبير، ويرحم الصغير
ويساعد المحتاج، يبادر إلى فعل الخيرات مع الناس جميعاً؛ يؤدي
حقوق جواره،

ويعرف حدود عمله وإدارته، ويخلص لها، متعاون مع كل من حوله
في كل شؤون العمل والحياة، مقدراً قيمة العمل التطوعي ومسهماً فيه،
أميناً، ناصحاً، ومهتماً بالشأن العام، يحارب الفساد أين وجد.

ومن أهم مكونات صناعة الإنسان قناعاته بالأصول الاجتماعية
الكبرى؛ متمسكاً محققاً للكرامة الإنسانية مع الجميع، مساوياً لهم
مع نفسه في الحقوق والواجبات.

إن الناس ليسوا في قدرهم بالقدرة على الكلام؛ بل بتركيباتهم
الإيمانية، وتكوينهم الأخلاقي، وسلوكهم الاجتماعي الإنساني.

ونحن نحترم إنساناً دون آخر لماذا؟ لأن عناصره النفسية،
ومكوناته الأخلاقية وصوره السلوكية أعظم، وأرقى، وأسمى من غيره.

وليس الإنسان بالكلام المزين، ولا بالقول المنمّق، ولكن بالعمل
الصادق، والسلوك

القويم، والعطاء الكبير، وقبل كل ذلك هو الذي شرب الإيمان
وتغذى على قيمه، ونهل من أخلاقه؛ فنما على طيب الفراس، وكبر
على حب الناس له واحترامهم إياه.

إنني لا أطالب أن يكون جميع خلق الله ملائكة يمشون على
الأرض، لكنى أريد ما استطعت أن أحقق في حياتنا أكبر قدر من
القيم والمثل العليا التي بها تسعد حياتنا.

وعلينا أن نهتم أكثر مانهتم بالقلب؛ لأنه محرك الإنسان نحو
الخير؛ ولأنه موضع الإيمان؛ ومنه تتدفق كل الصفات على سلوك
المرء وأعماله؛ فتعهدوا قلوب أولادكم واهتموا بمفردات صناعتها
وما يحركها تسلم لهم حياتهم، ويطبّ عيشتهم، ويسهموا بفاعلية
ورضا في تقدم مجتمعتهم، وخدمته، ونمائته، وقبل كل ذلك برضا
الله تعالى عنهم، وبتوفيقه لهم في كل أعمالهم.

إننا لو أجدنا بناء الإنسان بناءً قوياً ثابتاً ترسخت فيه كل
القيم ولأصبح المجتمع متميزاً، خالياً من كل عيب يعيق مسيرة
تطوره، ولوجدنا كل صاحب مهنة قد أبدع فيها وأحسن عملها، إذ
إن علتنا تكمن في عدم التمسك بقيمتنا ما ينتج عنه قلة الإخلاص
وضعف الإلتقان، وشيوع اللامبالاة، والأنانية، والجشع، والطمع،
وعدم الاكتراث بمصالح الآخرين، التي لو اختفت من حياتنا أو
حتى قلت لصرنا مجتمعاً أقرب إلى المثالية، ولصارت الحياة عندنا
طيبة مرغوبة.

علينا ألاّ تبهرنا الأحاديث المنمّقة، والخطب المجهزة، حول
موضوعات مكررة فلا مصداقية لكلام ليس وراءه عمل، ولا لخطبة
ليس لها هناك واقع في صاحبها، فلتنصنع الإنسان صناعة عملية
متجذرة في النفس، ظاهرة في السلوك؛ فذلك أدعى إلى قبول ما
يقوله هذا الإنسان المخلص، لا ما يطنطن به هذا الداعية المرائي.



وهكذا.. تتحقق سيادة أهل القيم

لا أزعم أن هناك مجتمعاً مثالياً ملائكياً.. فلولا الخطأ ما كان الصواب، ولكني في المقابل راغب في ألا يكون مجتمعنا المسلم بعيداً عن كل هذه القيم أو جُلّها.. وراغب في أن يكون التمسك بهذه القيم هو المعيار السليم للتعامل في حياتنا.

الحضارة الإسلامية المبهرة قامت، وانتشرت، وسادت بفضل تحقق ممارسة هذه القيم فيمن دانوا بالإسلام.

بل إن الحضارات الإنسانية كلها لم تقم إلا على دعوة لهذه القيم. والقيم التي دعوت لها، وتحدثت عنها تُجمع عليها كل الأديان، وكل الثقافات، فهي موضع احترام عند الناس جميعاً، بل إنها لازمة للحياة الطيبة السعيدة، والتخلي عنها، والتسامح في تركها مجلبة للخزي، والعار، والشقاء في الحياة للفرد وللمجتمع.

إن هناك قيماً كثيرة تمثل جوهر الأخلاق الفاضلة لم أتحدث عنها كلها، لكنها أيضاً لازمة لطيب العيش في حياتنا، وسعادة أوطاننا. إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا

إننا من أمة أعزها الله بالإسلام، ولا عزة لنا إلا إذا حققنا كل قيم الإسلام في حياتنا. واتخذناها جميعاً سبيلاً لمعاملتنا؛ فإن ضياع قيمة بمنزلة هدم ركن من البناء.. لذا، فإن قيم الإسلام مع تعدد صورها لازمة كلها متشابكة، قامت بتحقيقها أمة الإسلام العظيمة، وستبقى بها عظيمة.

وإني لأتوجه بالحديث والرجاء إلى كل من هو في موقع النصح والإرشاد والتوجيه أن يوضح حقائق هذه القيم وآثارها، ونتائج التمسك بها، وشر إضاعتها على الناس، أن يوضح ذلك لكل من حوله؛ فتلک اليوم هي رسالة الدعاة، ومسؤولية أهل الإرشاد والتربية والتعليم.

إنه لواجب شرعي على الدعاة والمرشدين أن يعلموا الناس هذه القيم، ويشددوا على أهمية التحلي بها، وتركهم الدعوة إلى هذه القيم نقص في واجباتهم يسألون عنه عند ربهم، والحاجة إلى الدعوة إليها أكثر إلحاحاً اليوم من تكرار الحديث عن تفاصيل العبادات التي هي معروفة عند الجميع.

يا للعجب!

كم من خطيب مسجد لم يُعْطِ هذه القيم حقها، ويرشد المسلمين إلى ضرورة التحلي بها، بل قد يتجاوز في خطبته حدود الحديث عن الآخرين، والافتراء عليهم، ويشيط غضباً لفعل تخيله، وهو لم يقع حقيقة منهم.

كم من مرشد أطلال الحديث والتفصيل في الأمور التبعية وترك هذه القيم، وهي أساس وجوه قبول الأمور التبعية.

هناك أناس تحروا صحة وضوئهم، وصحة صلاتهم، لكنهم مع هذا يكذبون على غيرهم، ويفترون ويتجنون على من سواهم، ويظنون أن الحق مقصور عليهم، وأن الحكمة خاصة بهم.

كم من سلوك مخالف للأداب الإسلامية ومكارم الأخلاق يتغاضى عنه الناس وهو عند الله عظيم، وكم دقق وتمحك بعض الناس في ضرورة عمل شيء هو ليس من لب الدين وجوهره، وكم سكت أناس عن قول الحق، وهم يعلمون أن الساكت عن الإفصاح به شيطان أخرس.

إننا اليوم وسط هذا العالم الطاغى، والفتن الشاملة، والاضطرابات المنتشرة والتسيب الباغي في أمس الحاجة إلى هذه القيم، نأخذ بها، نسير على نهجها، ونجعلها معياراً لكل أعمالنا.

إني أقول بملءٍ يّ: إن النجاة من شرور الحياة واضطراب أحوالها مرهون بأن نؤصل هذه القيم، وأن يكون المسؤول عن الأمور العامة هم الشرفاء الحكماء الصالحين، لا الجهلة الغاوين، ونردد ما كان يردده دائماً الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود رحمه الله من أبيات للشاعر الجاهلي الأفوه الأودي يقول:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم	ولا سراة إذا جُهاّ لهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرشد ما صلحت	فإن تولوا فبالأشرار تنقاد
إذا تولى سراة القوم أمرهم	نما على ذاك أمر القوم فازدادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمد	ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة	وساكن بلغ الأمر الذي كادوا

السراة هم الشرفاء الحكماء، المتمسكون بكل القيم الإسلامية؛ لهذا فالعرب يقربون الشرف بتوافر الحكمة عند صاحبه، إذ إن تملك الحكمة هو أهم متطلبات النجاح، والحكمة تتمثل في الخلق الرفيع الجامع لكل القيم.

لذا، فإنه إذا ساد الرعناء غير أصحاب الحكمة مكاناً، أو تملكوا أمراً، فإن ذلك يعني إخفاق هؤلاء القوم في تحقيق أمورهم، ومن أفضح ألوان الرعانة النفاق الذي هو مع الأسف سلوك بعض الناس الذين يتولون زمام الأمور؛ لذا ساد الفساد في بعض المصالح من جراء هذا النفاق، فتغطى الواقع الفاسد بغطاء قول الأفاق المنافق، والناس هم الذين يعانون ويدفعون الثمن الباهظ لهذا النفاق والكذب والافتراء

وختاماً:

جَنَّبَ اللَّهُ بِلَادَنَا مِنْ كُلِّ الشُّرُورِ، وَوَفَّقَ وَلَاةَ أُمُورِنَا إِلَى اصْطِفَاءِ أَهْلِ الْقِيَمِ مِنْ أَنْاسِنَا؛ لِتُسْتَقِيمَ الْأُمُورُ، وَيَعْمَ الرِّخَاءُ، وَيَسُودَ الْإِسْتِقْرَارُ.



الجود المخلص، والعطاء الكريم

أن يكون الجود خالصاً، والعطاء كريماً لذات الخير من أبرز قيمنا، ثم نرى آخرين في عصرنا هذا يبرّوننا بجود منقطع النظر، فإن ذلك أدعى إلى الخجل من أنفسنا ودافع لأن نعيد حساباتنا في علاقاتنا مع الله الذي أنعم علينا بما نتمتع به من واسع الخير، وما علينا لوطننا من واجب، بل ما علينا للبشرية كافة.

نعم، في هذا العصر نرى من ينبرون للبذل من أجل إسعاد الإنسانية بذلاً غير محدود، ومن شواهد ذلك ما بثته إحدى الشبكات التلفزيونية الأمريكية المعروفة في اللقاء الأسبوعي المسمى «هذا الأسبوع» وكان الحوار فيه مع أربعة من أكبر أثرياء الولايات المتحدة الأمريكية. سبق أن تطرقت في مقالاتي الأسبوعية إلى بعض حكمهم وسلوكياتهم، وذكر رياداتهم للأعمال الخيرية، لكن الحوار معهم هذه المرة فاق كل متوقع، وما قدموه من فعلٍ للخير، وعطاءٍ مخلصٍ بقدر مبهر ومثير بحق. إن ما جاء في هذه المقابلة مثير للإعجاب.

حقائق ماثلة، وأعمال رائدة في عالم الخير ودنيا العطاء أتمنى أن يسمعها كل الناس، ويتأسى بها كل الأغنياء.

«ورن بافيت»، و«بيل غيتس» وزوجته «مليندا»، و«تيد ترنر» و«توم

ستيير».

من هؤلاء؟ لم هم مبهرون؟

هم أغنى الأثرياء «ورن بافيت» يرجو الحكومة الأمريكية والكونجرس الأمريكي زيادة الضرائب المفروضة عليه، وعلى أمثاله فاحشي الثراء، ولإخلاصه وصدقه في هذا الأمر قام عدد من الأثرياء الأمريكيين بمثل هذا الطلب، وها هو الثري الكبير «بيل غيتس» وزوجته «مليندا» يقولان: إنه ينبغي أن يدفعاً قدرأ أكبر من الضرائب.

لماذا يطالب هؤلاء الأثرياء بزيادة الضرائب المفروضة عليهم؟

إنهم يعرفون أن الخدمات التي تقدم لعامة الناس تحتاج إلى دعم من الأغنياء ومساعدات الأثرياء.. كالخدمات الصحية، والنهضة التعليمية، والقضاء على الفقر. ذلك لأنهم موقنون بأنهم جنوا هذه الثروات من الناس المستهلكين لبضائعهم وخدماتهم الراحبة.

كم أعطوا؟ ما فلسفتهم في هذا العطاء؟

١- ها هو «ورن بافيت» الرئيس التنفيذي لشركة «يركشير هاثاواي» أحد أثرياء العالم يتبرع ب ٩٩٪ من ثروته التي تعادل خمسين مليار دولار.

وبسؤاله عن هذه اللحظة الحاسمة؟

هل كان صعباً عليك التحول من صنع المال إلى التبرع به؟
هل أصابت يديك رعشة، هل توقف قلبك عن الإخفاق وأنت تتخذ هذا القرار؟

قال بثقة واعتزاز: لا.. لم يكن من الصعب اتخاذ القرار..
اتخذنا أنا وزوجتي هذا القرار منذ زمن، ونحن لا نزال في

العشرينيات من عمرنا. لقد حظينا بثروة فاقت أقصى توقعاتنا، ونحن نشعر بامتنان عميق، ولكننا نشعر بمسؤولية التصرف بهذه النعم وهي مسؤولية عظيمة قدر عظمة هذه النعم.

٢- وها هو «بيل غيتس» مؤسس أكبر شركة إلكترونية وأشهرها شركة «مايكروسوفت» يقوم بتوزيع جزء كبير من ماله، وتسخير ذكائه.. حيث قام هو وزوجته بتأسيس أكبر مؤسسة خيرية في العالم بأصول تبلغ ٣٥ مليار دولار، يقومان بتوجيهها لتعزيز الخدمات الصحية على الصعيد العالمي، وخاصة في قارة إفريقيا، وتعزيز مستوى التربية والتعليم في الولايات المتحدة الأمريكية، يقول: «لقد انطلقنا من مبدأ أن حياة الإنسان لها القيمة نفسها بغض النظر عن مكان وجود هذا الإنسان على وجه الأرض بنغلاديش، أو بوسطن، أو بريطانيا لكننا في الولايات المتحدة نجد أن أكبر قدر من عدم المساواة الذي نعانيه هو في التعليم؛ إذ لا يتلقى كل طفل في هذا البلد تعليماً رائعاً ويجدر بهم أن يتلقوا بالفعل تعليماً راقياً لكنها مسألة الحقوق المدنية في هذه البلاد».

لقد كان من بين أهداف هؤلاء الأثرياء جميعاً من وراء التبرع بهذه المليارات هو إعداد الطلاب للتعليم الجامعي وهم يقومون بتمويل برامج مدرسية من شأنها تعزيز مشاركة الطالب في مجتمعه، وتقليص حجم الصفوف الدراسية، وتعزيز مستوى أداء المعلمين.

وفيما يتعلق بالصحة في العالم ينصب اهتمامهم على تطوير وإيصال اللقاحات لأمراض تمس ملايين الأطفال في كل مكان، وقد

أنفقوا نحو ١٥ مليار دولار أمريكي في سبيل ذلك آخذين بالحكمة المعروفة: (الوقاية خير من العلاج).

ومثل هؤلاء الأثرياء الذين أعطوا معظم ملياراتهم لعمل الخير لكل الناس.. سواء في التعليم أم الصحة تأتي مكافحة الفقر هدفاً للملياردير (تيد ترنر) الذي تعهد بمنح معظم ماله لمؤسسة الأمم المتحدة للمساعدة على مكافحة الفقر والمرض، ولبادرة القضاء على التهديد النووي، والتخلص من الأسلحة النووية.

ها هم أثرياء.. ولكنهم كرماء.. لم يخافوا الفقر، ولم يدخروا كل المال للأبناء..

يقول أحدهم: «لا أظن أن توريث أطفالنا ثروتنا مجرد كونهم أبناءنا أمر صحي هم ليسوا بالضرورة أجدر من سواهم وإن حصلوا على كل شيء من آبائهم أو من أجيال سابقة لهم، فإن حياتهم ستفتقد إلى المعنى الحقيقي للاعتماد على الذات» هم لم يتركوا أبناءهم دون عطاء يكفل حياتهم لكنهم لم يعطوهم كل شيء.

ويقول آخر: «إن هناك تحديات أكثر صعوبة علينا نحن الأثرياء معالجتها، هي أن نتخلص من داء شلل الأطفال، والحصبة وغيرها من الأمراض والأوبئة بدلاً من قذف بعضنا بالقنابل».

استكشافاً لحقيقة مشاعر هؤلاء الأثرياء يُطرح سؤال صريح:

ماذا تقول لأولئك الذين لا يملكون الكثير من المال هل عليهم المشاركة في خدمة مجتمعهم والتطوع بما يقدرون عليه؟

قال الملياردير الكبير «ترنر»: حتى لو كانوا لا يملكون أي مال إنه بوسعهم الإسهام في خدمة مجتمعهم حتى لو بجمع القمامة.. هذا ما أفعله أنا نحن الآن في نيويورك وفي الأمس تجولت في الحي الذي أنا فيه، وقمت بجمع النفايات وإلقائها في سلة المهملات.

هل هذا حدث حقاً...؟

قال (ترنر): أقسم بالله صدقاً، لقد جمعت النفايات في أطلنطا؛ لأنني أريد أن أقدم نموذجاً جيداً، وليس ذلك عيباً.. فهناك نموذج ربما يبدو للناس مشيناً معيباً، ولكنه ليس كذلك أبداً؛ لقد أصدر رئيس (رواندا) قانوناً يوجب على دولته بأسرها في كل يوم سبت من الأسبوع الثالث من كل شهر على الجميع الخروج من الثامنة صباحاً حتى الحادية عشرة لجمع القمامات بمن في ذلك هو نفسه الرئيس (كانمامي) ومجلس الوزراء جميعهم يخرجون لجمع النفايات، ورواندا نظيفة بهذا العمل مثل سويسرا (هذا بحسب ما جاء في الحوار).

إن هؤلاء النبلاء لم يكتفوا بهذا، بل إنهم يقومون بحملات ليس في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها بل في العالم كله، حملات للتبرع بنصيب كبير من أموال الأغنياء، داعين غيرهم لمثل فعلهم، وقد لاقوا قبولاً وتجاوباً عند كثيرين من أثرياء العالم.

وبعد...

ما أظن أننا في حاجة إلى كلام لأنفسنا أو لغيرنا من الأثرياء القادرين في وطننا، فالعطاء للوطن، والخير ينبغي أن يعم الجميع

فلن يدفن مال مع الموتى، ولن يدخر بعدهم، وهذا ما فهمه هؤلاء
 الأثرياء والحق معهم، وما أخرى أن نتأسى بفلسفتهم هذه التي
 علمنا أحسن منها رسولنا الكريم وصحبه رضوان الله عليهم، وما
 نتلوه في قرآننا المجيد.. اقرأ معكم قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ
 لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ۝٣
 كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ۝﴾ [الهمزة: ٥، ١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
 الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ
 الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ
 بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ
 حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٦١].

وليس بإمكانني المزيد من التعليق...



الحق معهم، وما أحرى أن نتأسى بهم

ليس للأعمال العظيمة مكان أو زمان، وليس لأهل الخير والعطاء وطن أو جنس خاص من بني الإنسان، فالسلوك النبيل، والعطاء المخلص الكريم من فطرة الله تعالى في بعض خلقه.. لم يؤثر بها شعباً دون غيره، ولم يقصرها على وطن من أوطان عباده. عبر التاريخ ورواد الفضل يواصلون، وعلى امتداد المعمورة رأينا الجود وفعل الخير في كل مكان له من يفعلون.

وفي عصرنا الحديث، المتزاحم بالماديات، الحافل بالمغريات الذي صار فيه حب المال والحرص عليه من أشد السلوكيات نرى فيه العجب العجيب، نرى أناساً على غير العادة.. أفراداً يمثلون ويقومون بتصرفات مالية مبهرة.. لكنها للتاريخ العظيم للخير وفعله موثوقة، ولرجال الفضل الخالص، والعطاء الصادق. والجود الكامل صور صادقة وحقائق دامغة، أو هي في عصرنا أعمال نادرة.. أو غير مصدقة.

في المقال السابق ذكر لبعض ما دار في الحوار التليفزيوني مع أشهر أثرياء أمريكا.. إذ تقول زوجة الشهير بل غيتس:

«لقد تفاهمت مع زوجي في أيام خطوبتنا على ضرورة أن تعود هذه الثروة التي تنهمر علينا إلى مجتمعا، فهو أحق بها والأمر عندنا محسوم؛ لأن كلينا نشأ في أسرة تُعظَّم شأن التطوع والعطاء، وأنا وزوجي لا نقيس النجاح بالأرقام المالية لكن الإنجاز والنجاح

الذي نفخر به هو كم تبرعنا ومدى نفعه للآخرين بل إن ذلك هو أفضل الاستثمارات».

ويقول: «بافيت» في ذلك الحوار: «إني بتبرعي بتسعة وتسعين في المئة من ثروتي لم أتخلّ قط عن وجبة أكلها، ولا مشاهدة فيلم سينمائي أرغبه، ولا عن سفر أو أي شيء أريده في حياتي، ولدي هذا الفائض العظيم مما أسميه صكوكاً مستحقة للمجتمع، فهي شهادات أسهم قابضة في صندوق منذ أكثر من أربعين عاماً.. ويني أنها لن تفعل لي أي شيء، ولن تزيد من سعادتي.. لكن بوسعها أن تفعل الكثير للآخرين إن أحسن استخدامها».

وبسؤال «بافيت» عن أسباب هذه الثروة هل هو الذكاء أو مجرد الحظ؛ أو توافر الفرص؟ يجيب: «إنني ولدت في المكان المناسب «الولايات المتحدة الأمريكية» وفي الوقت المناسب «الثلاثينيات من القرن العشرين»، ولقد قال لي «بل غيتس» يوماً: إنك لو ولدت منذ آلاف السنين لكان مصيرك هو وجبة غداء لحيوان مفترس؛ لأنني لا أجيد العدو السريع «الركض» ولا أجيد تسلق الأشجار، وسيطاردني حيوان ما.. لكن لهذه الظروف المواتية والعمل الدؤوب كان ما أنا فيه من خير.

وبسؤال «بافيت» عن عدم منح كل ثروته لأبنائه يجيب: إن فكرة الثراء السلالي جنون محض... إذ هي فكرة توحى بأن الوارث بوسعه ألا يفعل شيئاً في عالمه في كل حياته، وأكد أن يكون الثراء ميراثاً أسرياً، فكرة غير طيبة.

وبسؤاله كيف تصف نفسك هل أنت فاعل خير؟ هل أنت محسن؟

قال: أنا شخص يقوم بأمر منطقي للغاية، فالمحسن الحقيقي هو الذي يتبرع بخمسة دولارات، وهو لا يستطيع الذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم يحبه من جراء تبرعه، ثمة كثيرون الذين يفعلون ذلك، فهم محسنون بحق، إذ يتنازلون أحياناً عن لعبة لأولادهم عندما يتبرعون بثمنها للمحتاجين.

إن أختي تخصص ساعتين من يومها لتساعد الآخرين المحتاجين، إن التبرع بالوقت من أثنى التبرعات أيضاً.

وبسؤاله: هل تسمي ما تقوم به، وتدعو إليه واجباً أخلاقياً؟ قال: هو بلا شك واجب، ومع أنني لست داعية لكني أرى أن يتحلى الناس بالأخلاق الكريمة، ولا أرى خياراً منطقيّاً آخر لما قمتُ به، وأعني بذلك أنه بالإمكان أن أشيد لنفسي هرمًا عظيمًا، وأقتل السياحة في مصر، لو أنفقت الأربعين أو الخمسين مليار دولار في تشييد هذا الهرم الذي هو عبارة عن مقبرة عظيمة، وبالإمكان أن يكون هو الأكبر على الإطلاق، ويقوم الناس بزيارته والانبهار به، أفلا يكون هذا ضرباً من الجنون لو نفذته؟!

وبسؤال السيد «بافيت»: هل أنت حر من الأنا؟

يقول: كلا، لست خالياً من الأنا، أنا أعتز كثيراً بنجاح شركتي، عندما نحسن التصرف أشعر بأنني مزهو بالإنجاز، بل أحب أن يقرأ الناس عما أنجزت؛ لعلهم يجدون فيه حثاً على البذل والتفكير السليم.

أكرر أنني لست حراً من الآن، بل إنني أقرر أن لدي قدراً كبيراً من الغرور، لكنني لا أؤمن بإنفاق المال على نحو لا يخدمني في الوقت الذي يمكن لهذا المال أن يحقق الخير الكثير للآخرين.

عجيب أمرك يا «بافيت» حيث تقول: إن حياة كل إنسان تساوي حياة أي إنسان آخر، وتؤمن بالتكافل الاجتماعي.

إنني بذكر هذه النماذج الرائعة في العطاء في هذا العصر، فإني أهيب بأصحاب الأموال ألا يفوتهم فعل الخير العظيم، ولقد كان سلفنا الصالح نماذج في هذا الجود والعطاء تفوق كل ما عرفناه، وما ذكرناه، فلنقرأ سيرهم، ولنتعلم من فعالهم، ولنتخذ من مدرسة نبينا محمد ﷺ وصحبه الأبرار الكرام أسوة حسنة، ولنتذكر أن كثيراً من الأثرياء ما بلغوا هذه الثروة إلا ثمرة كدح العاملين معهم، والمستهلكين لمنتجاتهم السلعية أو الخدمية، وليتذكروا واعين حقيقة النظرية الاقتصادية الشهيرة التي خلاصتها أنه: «قد تصل ثروة الإنسان إلى نقطة لا يستفيد مما زاد على ذلك؛ بمعنى أن من يملك ملياراً على سبيل المثال لن يفيد له لوزاد المال، فأصبح مليارين؛ لأن كل ما يحتاج إليه يوفره له المليار الأول.. فلتكن الزيادة للناس المحتاجين».

ولنتذكر هدي نبينا ﷺ القائل: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن من بات شعبان وجاره جائع».

وفي هذا الزمان، فإن الجار لا يعني جارك الملاصق منزله لمنزلك، بل يعني كل أبناء وطنك وغيرهم من بني الإسلام في أي مكان.

الحرية

إنني بتأملي للأحداث المؤلمة عند العرب والمسلمين حالياً أجد أن هذا جاء نتيجة طبيعية لعدم التمسك بالقيم العظيمة التي تتميز بها عقيدتنا الإسلامية والتي من شأن الأخذ بها استقامة الحياة، والعلاقات الحميدة بين أفراد المجتمع الواحد وبين المجتمعات ببعضها؛ ما جعلني أواصل الحديث عن قيم جليلة لم أتناولها فيما سبق من أحاديثي.

من أهم القيم العظيمة التي نعتز بها ونلتزم بها: الحرية؛ لذا صار من أشهر العبارات التي شاعت عندنا عبارة: «كِرْ فَأَنْتَ حُرٌّ»؛ لأنها فصلت بين حياتين مختلفتين لعنترة بن شداد العبسي الذي كان عبداً مملوكاً على الرغم من فروسيته وشجاعته وبطولاته، ولما ضاقت القبيلة التي هو عبد فيها، وأوشكت أن تسقط مهزومة في إحدى حروبها، قال شيخها لعنترة: «كِرْ فَأَنْتَ حُرٌّ»، عندها هبَّ عنترة الحر يقاتل حتى حقق النصر، وهو موقف في التاريخ يشهد عملياً بأثر الحرية في حياة الإنسان واستعداده للتضحية من أجل الحصول عليها... لماذا؟ لأن الحرية من القيم الاجتماعية والإنسانية النبيلة التي تتعلق بها النفس، وتشعر بالحاجة إليها، وهي قيمة جوهرية يجب أن تستثير اهتمام الفرد والجماعة في خدمة المجتمع.. فالفرد الذي يقدر الحرية بوصفها قيمة اجتماعية يضحي من أجل مجتمعه، ويتحمل أشد المشاق في سبيل حريته الشخصية وحرية مجتمعه من الاستعباد والتعبية، وهذا ما كان من موقف عنترة ونصرة من هو معهم.

المجتمعات والشعوب تناضل وتحارب، وتقدم الشهيد تلو الشهيد في سبيل الدفاع عن أراضيها، وما ذلك إلا مظهر للارتباط بالحرية، والتاريخ يشهد بالحروب الطاحنة الطويلة بين أهل البلاد والمستعمرين لهم؛ ليأخذوا حريتهم، ويمتلكوا زمام أمرهم رغبة في أن تسود الحريات؛ وتتقدم الحياة عندهم كما هي فطرة الحياة.

الحرية هي الاستقلال الذاتي، الذي يصمم فيه الإنسان، ويعمل بعد تدبر وروية فتجيء أعماله بعد تأمل، ويرى المفكرون أن الإنسان الحر هو الذي لا تملكه شهوة أو رذيلة، فتستبعده، وما أشجع استعباد الشهوات للإنسان، وإذا كان لفظ الحرية يعني في بعض معانيه انعدام القيود، فإن الحرية المنشودة في قيمنا تعني أن الإنسان حر فيما يملك، ولكن عليه أن يراعي حرية الآخرين، والأخذ في الحسبان حقوقهم ومشاعرهم.

والحرية كغيرها من القيم الاجتماعية العظيمة يكتسبها الفرد، ويقدرها، ويحميها من الاغتيال عن طريق التنشئة الصالحة من الوالدين الواعين والمربين المؤهلين، سواء كان ذلك بطريق مقصود أم غير مقصود، ومن أهم المبادئ لغرس قيمة الحرية في حياة الإنسان يجيء مبدأ مراعاة الفروق بين الأفراد عاملاً بالغ الأهمية من عوامل غرس قيمة الحرية، فلا تقاس إمكانات الكبير بالصغير، ولا العامي بالمتخصص.

وللعقائد الدينية عامة والإسلامية منها خاصة دور بارز في غرس قيمة الحرية، فإذا آمن الإنسان بربه، وأنه لا معبود سواه آمن كذلك بحقه في ممارسة الحرية وأحبها وتشبع بها، ودافع عنها،

وأصبحت عواطفه ومشاعره مع الحرية تمارسها في حقها الخاص وحقوق الآخرين، ودون حريته ينافح كل من يعتدي عليها.

لقد قدس الإسلام الحرية المتمثلة في الأمانة التي كلف الله بها الإنسان، ومع ضخامة المسؤوليات المترتبة على الحرية، فإنها من أعظم النعم حتى إن الله هدى الإنسان النجدين: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وهو الذي يختار بحريته أحدهما، وقد عبر عن هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحسن تعبير بقوله: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، والحرية لا تعني الفوضى والانفلات من الضوابط، بل هي حرية منظمة منضبطة تراعي حرمة حريات الجميع، ولهذا يقال: «حريتك تقف عند حد حريتي».

ومرة أخرى.. يبرهن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على هذا المعنى في معاهدته لأهل بيت المقدس عقب فتحه: «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان.. أعطاهم أمناً لأنفسهم، وكنائسهم، وصلبانهم، لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من غيرها، لا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحد منهم».

حقاً... إنه الإسلام العظيم في كل قيمه حتى مع غير المسلمين.

وتأتي حرية التفكير والتعبير والعمل بعد حرية الدين والعقيدة في أهميتها لحياة الإنسان، وكانت الحرية الاجتماعية هي المظهر العام لحياة العرب قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام، فارتقت بها.. فلا رق ولا عبودية ولا انصياع لأمر إلا عن قناعة.

إن حياتنا اليوم تتطلب الاتسام بالحرية المنضبطة في كل جوانبها، وكل مستوياتها، حتى الصغير له الحق في أن يختار

المدرسة التي يراها مناسبة له.. ثم يكبر، وله أن يختار التخصص الدراسي الذي هو الأنسب له ولميوله، وكذلك الحياة الخاصة في الزواج والعمل، فالفتاة تُسأل عن رأيها فيمن تتزوجه، والأسرة فيمن تقبله، ويختار الإنسان مجال العمل الأقرب إلى نفسه حتى يبدع فيه، ويخلص له.

وتشمل الحرية كل صور العلاقات الاجتماعية على المستوى الفردي والوطني.. فحرية الإعلام هي كذلك امتداد لمساحات الحرية في كل جوانب الحياة.

لكن ذلك كله مشروط بمراعاة الآداب الدينية، والأخلاقية، والاجتماعية؛ فلا يمارس أحد الحرية الضارة لغيره، أو يدعي أنه حر يفعل دون قيد ما يشاء، وما النظم الاجتماعية، والمدنية إلا تفعيل عملي للحرية؛ حتى لا تضيع حريات الآخرين.

إنني لأدعو لتمكين كل من له رأي في أي شأن من الشؤون العامة التي لا تخالف الثوابت من الدين أن يعبر عن هذا الرأي بكل حرية، وليناقد من الآخرين المخالفين لرأيه بعقل وموضوعية إن كان فيما رآه خطأ، أو تجاوز للحقيقة حتى يعود صاحبه إلى الصواب عن قناعة، إذ إن كبح حريات الرأي تعسفاً يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه في غالب الأحيان.



العفو والتسامح

«العفو عند المقدرة من شيم الكرام» أثر أخلاقي قديم عظيم الدلالة، هو إسقاط حق ثابت مع القدرة على أخذه، العفو حقيقة وأصلاً هو المقترن بالمقدرة.

والعفو في قيمنا هو المسموح به المباح فعله في الشريعة، والله لا يؤاخذ به، ولا يعاقب صاحبه؛ لأنه ليس ذنباً أو منكراً، وترتبط بالعفو قيم أخرى كثيرة عظيمة، في أولها التسامح، والصفح، والتجاوز، والغفران، والحلم.

ولقد حث النبي ﷺ على العفو، حين خاطب أصحابه قائلاً لهم: «أوصاني ربي بتسع خصال: الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب والفضل في الفقر والغنى، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني وأصل من قطعني، وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبراً». حقاً... إنها قيم عظيمة لن تذبل أبداً، وقد جعلها الرسول الكريم أسس الأخلاق القويمة، والحياة السعيدة.

ويتمثل العفو النبوي العظيم في أعظم صورته وأكرم تعامل حين فتح الله للمسلمين مكة المكرمة، ودخل النبي ﷺ الكعبة ثم صلى عند المقام والناس مضطربون خوفاً، ينتظرون ما يقضي به الرسول الكريم عليهم، وهم الذين آذوه واضطروه للخروج من بلده، فوقف النبي ﷺ ليقول كلمته وقد حبس أهل مكة أنفاسهم خوفاً ورعباً،

فإذا بالنبي ﷺ يقول لهم: «يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم.. قالوا خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء». هذا هو العفو في الإسلام، وهذا هو تسامح النبي ﷺ في أزهى صورة له.

وصورة أخرى للعفو النبوي العظيم حين تقدمت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وهي التي لاكت بين أسنانها كبد الشهيد حمزة عم رسول الله ﷺ تقدمت من النبي ﷺ تعلن إسلامها، وتبايع الرسول، وتطلب منه أن يعفو عنها، فقال: «عفا الله عنك» ودعا الله ليغفر لها، ﷺ فهو القائل في حديث له: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً».

العفو أنبل الصفات، وأجمل الخلال، وأسمى القيم؛ لأنه يحمل في طياته مجموعة كبيرة من الأخلاقيات النبيلة، والصفات الكريمة وها هو حسان بن ثابت يقول في رثاء الحبيب المصطفى:

عَفُوٌّ عن الزلات يقبل عذرهم وإن يحسنوا، فالله بالخير أجودُ
وامرؤ القيس الجاهلي قال في هذا المعنى:

فخذ من أخيك العفو واغفر ذنوبه ولا تك في كل الأمور معاتبا
حياة جميلة تقوم بين الناس بالعفو والتسامح.

لقد شاعت قيمة العفو والتسامح بين العرب منذ أقدم العصور، حتى نال الحديث عنه وأخذت الدعوة إليه، والحث على التحلي به جانباً كبيراً في شعرهم وحكمهم..

فالعفو مع القدرة أجمل وأصدق صور العفو، وأطيب التسامح.
ما أحسن العفو من القادر لا سيما عن غير ذي ناصر

أبيات شعرية بليغة في فضيلة العفو، يحفل الشعر العربي بحشد كبير منها... فهي ذات أثر كبير في المجتمع الواحد، تجمع بين الأهل، وتؤلف بين القلوب، وتمسح أوتار النفوس، وتزيل الأحقاد والسخائم والضغائن من الصدور... من هنا كثرت الحكم والأمثال في تمجيد العفو والإشادة به.. من هذه الأمثال والحكم الماثورة في فضيلة العفو:

«التبئ نصف العفو» وكانت سبباً في عفو قتيبة بن مسلم عن رجل أتى به ليعاقبه.

وقالوا: «شفيع المذنب إقراره، وتوبته اعتذاره، فكيف لا يُعفى عنه».

وقالوا: «خير مناكب الملوك العفو».

ومن مشهور الحكم قولهم: «ما قرن شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم ومن عفو إلى مقدرة».

كثيرة الدعوات إلى العفو، تملأ الكتب الحكم الخالدة في بيان أهميته وعظمة التحلي به.

قال أحد حكماء العرب المشاهير: «أحب الأشياء إلى الله أربعة: القصد عند الجدة، والعفو عند المقدرة، والحلم عند الغضب، والرفق بعباد الله».

ما بالناس نقرأ الكثير، ونسمع الدائم من الدعوات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الحكماء والشعراء عن العفو؟! ألهذا الحد يفعل العفو كل الخير في الحياة والناس؟!

نعم، العفو أكبر المكارم وأظهرها، فقيه نشر للمحبة بين الناس، وإزالة للحقد والضعينة من النفوس، وفيه تعليم لمن يُعفى عنه تعليم الندم وحب الآخرين أهل القدرة، كما يصفه الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد فسر الرسول الكريم هذه الآية بقوله: «هو أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»، وفي حديث آخر قوله ﷺ: «العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله....».

وللعفو دور كبير في حياة المجتمعات والناس، وأيضاً له دوره الأكبر في إسعاد الأسرة، وترايط الأهل وذوي الرحم، فهو سبيل استبقاء المودة، ودوام المحبة، واستمرار العلاقات الطيبة بين الأهليين. وبالعفو والتسامح تعود كثير من النفوس الظالمة إلى الصواب والخير، وبه تتألف القلوب، وتشيع الثقة بين الناس وجمع الكلمة، وتوحيد الصف.

إننا مطالبون بتعميق قيمة العفو في أبنائنا وكل أهلينا، وكذلك مع أصحابنا وزملائنا في العمل والحياة، وأطيب ما يكون ذلك أن نضرب نحن المثل الأعلى للعفو والتسامح مع كل من نتعامل معهم متأسين بالحبيب المصطفى الذي كان المثل الأعلى للعفو والتسامح: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر».

ما أعظم قيمنا وأرقاها!



المسلم الحق لا يعاني أزمة شك

كنت في حديث مع إخوان لي حول ما تمر به الإنسانية اليوم من اضطراب وتشويه صورة كل أهل دين سماوي ومذهب لدين ومذهب غيرهم مع الشك فيما دعت إليه الأديان السماوية، وقد أدركنا من الواقع المعيش أن المسلمين هم أكثر من توجه إليهم التهم الظالمة، وتسائل بعضهم: هل مع هذا العداء السافر سيذوب المسلمون في الآخرين، ويضيعون هويتهم الإسلامية وأصالتهم الدينية أم سيحافظون على كيانهم الديني على الرغم من كل هذه السهام التي توجه إليهم؟!

وتبين لنا أن أزمات كبيرة ومتعددة مرت على المسلمين منذ بزوغ شمس الإسلام ومع ذلك ازداد المؤمنون يقيناً بدينهم وتمسكهم بالعروة الوثقى، والواقع المعيش يؤكد ذلك.

ومع أن حضارة العالم الغربي بلغت مبلغاً كبيراً، وبهرت الدنيا باستحداثاتها، واستطاعت أن تحقق للإنسان ما لم يكن يحلم به من صنوف الراحة والرفاهية المادية إلا أن إسهام أهل الفكر الغربيين في ترسيخ القيم الإيمانية ليس على مستوى الإسهام العلمي.

إن هذا التطور ينبغي أن يكون حافزاً لنا نحن المسلمين على الإسهام في هذه الإنجازات الحضارية لنثبت للعالم أجمع أن ديننا داعٍ لإعمار الأرض، وتطوير الحياة والكون بدلاً من السباب العصري والقدح في ذمم الآخرين، لدرجة وصلت بنا إلى التحارب فيما بيننا، كما نراه الآن.

وتناول حديثنا في تلك الأمسية بعض صور النزاع النفسي عند بعض الناس الذين شغلتهم القضايا المادية، وأصابهم الإحباط، ولم يعملوا فكرهم في التأمل في ذات الله وعظيم قدرته، ووصل بهم الأمر إلى التساؤل: لماذا وجدوا في هذه الدنيا، وعن طبيعة هذا الكون وما الصلة بينه وبين الإنسان، وأنشد أحدهم أبياتاً من قصيدة لإيليا أبي ماضي التي سماها الطلاس يرددها أحد معارفه:

جئت.. لا أدري من أين؟ ولكني أتيتُ

ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيتُ

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري؟

إلى آخر هذه الطلاس..

لكننا رفضنا بإصرار وإجماع هذا الكلام المخالف لحقيقة الدين، وأن الحياة تنتهي إلى فناء حتماً.. وأن الآخرة هي المصير.. ومن أحسن ما قيل رداً على هذه الطلاس قصيدة «فك الطلاس» من شعر ربيع السعيد عبد الحليم الطبيب المشهور يرد فيها على ما قاله إيليا أبو ماضي من شكوك يقول:

جئت دنيائي وأدري، عن يقين، كيف جئتُ

جئت دنيائي لأمر، من هدى الآي، جلوت

ولقد أبصرت قدامي دليلاً فاهتديت

ليست شعري! كيف ضل القوم عنه؟! ليت شعري!

ليس سرّاً ذا خفاء أمر دنياك الوجود
كل ما في الكون إبداع إلى الله يقود
كائنات البر والبحر على الخلق شهود
ليت شعري! كيف ضل القوم رشداً؟
ليت شعري!
إنها قصيدة طويلة يختتمها بقوله:
أيها الحيران عد حراً طليقاً في سرور
فك قيلاً من شكوك، من خضوع للغرور
عش سعيداً في رياض من يقين بالنشور
كم دليل مثل ضوء الشمس يهدي!
ليت شعري!
أيها الحيران قم فجرّاً ترى موكب نور
هاتف الأعماق يدعوك لرحمن شكور
قم، وطاوع، عائداً للحق، لله الغفور
قابل التوب ينادي! هل تلبي؟
ليت شعري!
أنا لا أغفل شيئاً من حياتي الماضية
أنا لا أنكر شيئاً من حياتي الآتية
لي ذات هي روحي وهي دوماً باقية
ومقرّي، بعد موت، دار خلد أنا أدري

ليت إيليا أبا ماضي سمعها قبل موته.. ربما كان عاد إلى صوابه.. فقد عاش عمره كله في أزمة إنسانية، وليت هؤلاء الذين

بهرونا باختراعاتهم المادية صرفوا جزءاً من فكرهم للتأمل في ذات الله وقدرته، وأنه هو الذي أعطاهم مواهبهم التي يتباهون بها، ونحن المؤمنون نؤمن بأن كل شيء من الله وإليه، وننكر مقولة: «اخترع فلان كذا» لأن الصواب عندنا وفي الحقيقة هو «هداه الله إلى اختراع كذا...».



الإيثار

إن الحياة دون القيم الجليلة تفقد قيمتها، والإنسان الفرد لا يمكن أن تترسخ الأبعاد المعنوية الراقية لذاته إلا في إطار المجموع العام المحيط به، حتى يصبح الإيثار من أهم صفاته؛ حيث ينكر ذاته، ويؤثر الآخرين بالخير، ويعمل ما استطاع لإسعاد من حوله، مؤمناً بالحكمة المعروفة: «ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط».

والمجد أن تهدي حياتك كلها للناس، لا برَم ولا إقتارٌ
وللمعري بيتان جميلان:

ولو أنى حبيتُ الخلدَ فرداً لما أحببتُ بالخلد انفراداً
فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائبٌ ليس تنتظم البلاداً

إن الإيثار من المحامد العظيمة التي نالت مكانة كبرى بين العرب قبل الإسلام، وعززها الإسلام أكثر بعد ذلك.

الإيثار هو تفضيل الإنسان غيره على نفسه، وهو عكس «الأثرة» التي هي شحّ الإنسان وحبّه لنفسه، والتي تعرف بالذاتية أو الأنانية.

قال تعالى في حق أهل الإيثار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

لقد جاء الإيثار بأرقى صوره التاريخية، والإنسانية النبيلة في إيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم عند الهجرة مع رسول الله ﷺ في كل شيء، فقاسموهم ديارهم وأموالهم، وكثيرة الأحاديث والصور

العظيمة لهذا الإيثار النبيل، وفي هذا المعنى قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه:
ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلقت بنا نعلنا الواطنين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمانا تلاقي الذي لا قوه منا ملّت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأظلمت

ولقد كان إيثار العرب قبل الإسلام صفة يتباهى بها الجميع،
قال عروة بن الورد:

إني امرؤ عايفٍ إنائي شركةً وأنت امرؤ عايفٍ إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء، والماء بارد

ولقد ظهر الإيثار العظيم بأسمى صورته في الغزوات، والفتوحات
الإسلامية وما هؤلاء الشهداء الذين لقوا ربهم دفاعاً عن دينهم،
وإيثاراً لنبيهم الحبيب، وفداء له ولإخوانهم معهم في المعارك إلا
أرقى صورة من صور الفداء والتضحية والشجاعة والإقدام، وكلها
يجمعها «الإيثار».

ومن أمثلة الإيثار العظيم ما نقل عن عبد الله بن مسعود أنه
قال: «كنا في غزوة بدر كل ثلاثة منا على بعير، كان عليّ وأبولبابة
زميلي رسول الله ﷺ فإذا كان عقبة النبي ﷺ قالوا: اركب يا رسول
الله، حتى نمشي عنك، فيقول: «ما أنتما بأقوى على المشي مني،
وما أنا بأغنى عن الأجر منكما». ما أعظمك يا رسول الله! نموذج
مثالي في كل الأعمال، وليس لك مثيل في أعظم الأخلاق.

إن الإيثار هو تقديم الآخرين على الذات، وتفضيلهم على النفس، وهو بذلك غاية نبيلة تؤدي إلى زوال الأنانية، وتوثق الروابط بين الأفراد والمجتمعات؛ ما يرتقي بقيم الحياة كلها.

والإيثار هو الكرم الحقيقي النابع من عمق الإنسان، فهو كرم لا رياء فيه، ولا تظاهر به... بل هو دفع النفس والمال دون مطالبة لذلك.

ومن مؤكدات أهمية الإيثار ما جاء في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وهو بذلك عمدة العقيدة، ودعامة الأخلاق النبيلة.

ما أروع إيثار هذا الشاعر النبيل الكريم حين قال:

سأقدحُ من قدري نصيباً لجارتي وإن كان ما فيها كفافاً على أهلي

الإيثار تحرك نفسي قوي داخل الإنسان، يشعره بالسعادة العميقة، ويدفعه لتحقيقه إحساساً صادقاً باللذة النظيفة، وهو يؤثر غيره على نفسه بأي صورة من صور الإيثار، ولهذا قسم علماء النفس العطاء إلى ثلاث مراتب: أولها، السخاء وهو أن يعطي المرء بعض ما عنده ويُبقي بعضه الآخر وثانيها، الجود وهو أن يعطي المرء الأكثر ويبقي لنفسه الأقل وثالثها، الإيثار وهو أعلاها لارتباطه بالحاجة، وفي ذلك قال أحد العلماء: «والذي قاسى الضرر وأثر غيره على نفسه فهو صاحب إيثار» كما سبق قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

إن الإيثار بصورة الأخلاقية الراقية، ودوافعه الإنسانية الصادقة هو من أهم القيم الأخلاقية التي يمكن أن تقوي العلاقات بين كل أبناء المجتمع؛ لأن عظمة الإيثار تتمثل في تقديم الآخرين على الذات، وهذا التقديم للآخرين على حساب النفس لا يكون إلا عند ارتقاء تلك النفس إلى غاية الكرم، وغاية التضحية، وتحقيق ذلك الارتقاء ليس بالأمر الهين، بل إنه لمّا يشق على النفس القيام به، وذلك لشدة نظرها إلى ذاتها.

إن الجهد الشاق الذي تكابده النفس الإنسانية لدى ممارسة هذا الفعل الأخلاقي هو الذي جعل الإيثار من أسمى الصفات، وأطيب العلاقات بين الناس.

لقد أحس بعض المصلحين ودعاة الخير بخطورة غياب القيم من المجتمع، وما ترتب على ذلك من الانشقاق والتصدع الذي ينتهي إلى التفكك والدمار، فدعوا إلى التحلي بالقيم الأخلاقية الراقية، ومن أول ما طالبوا بالتحلي به والعمل بمقتضاه هو فضيلة الإيثار، ودعوا إلى تعهد النفوس الإنسانية بهذا الخلق العظيم. بل جاء الإيثار في الدعوة إلى بناء المجتمع والارتقاء به مع العلم والتقدم، فقال الشاعر:

إذا لم نشد بالعلم صرح فخارنا بالعزم والإيثار فاستعظم الذنبا



حق الجار والجوار

من حقوق الإنسان التي يؤكدها دستور الإسلام، وتؤكد عليها قوانينه سواء في القرآن الكريم أم السنة النبوية المطهرة ما جاء بشأن حق الجار على جاره.

آيات كثيرة حددت الحقوق الإنسانية للجار.

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦].

حقوق إنسانية لعدد كبير من الناس بعد عبادة الله وتوحيده ومنهم الجار سواء الجار القريب نسباً أو القريب سكناً، ويؤكد هذا الحق الإنساني قول الرسول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره».

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» وورد عن عائشة ؓ قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً».

وقال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» وتتواصل وصايا الحبيب المصطفى بالجار.. وتؤكد حقوق الجوار، كما لم نعرفه في أي تعاليم قديمة أو حديثة.. قال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! قيل: من يا

رسول الله ﷺ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» (البوائق: الشرور). ويحدد الحبيب المصطفى ﷺ حدود الجوار ومساحة الجيران، قال: «كل أربعين داراً جيران من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله». ويفصل الرسول المصطفى ﷺ الرحمة المهداة للإنسان ما الحقوق الإنسانية للجار على جاره حين يقول: «حق الجار إن مرض عدته، وإن مات شيعته، وإن افتقر أقرضته، وإن أعوز سترته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا ترفع بناءك فوق بناءه فتسد عليه الريح، ولا تؤذ به ريح قدرك إلا أن تغرف له منها».

هل في أي نظام قديم أو حديث أو في أي قانون من قوانين حقوق الإنسان ذكر هذه الحقوق أو حتى واحداً منها للجار والجوار.. ما أعظم شريعة الإسلام.. ما أرقى الإنسان عند الله، وما أكرمته في كل حالاته! فهو إنسان.

الجار من نعم الله تعالى.. قال رسول الله ﷺ: «من سعادة المرء المسلم: الجار الصالح»، وقال ﷺ: «اللهم، إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة».

وقال ﷺ: «من أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث، وليؤد الأمانة، ولا يؤذ جاره»، وقال: «ما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم»، وجاء في الأثر: «الجار قبل الدار، وقبل الرحيل»، وورد أيضاً في الأثر: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره».

وقال ﷺ: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» والفرسن: الحافر من البعير، والشاة، والمراد لا تمتنع جاره من الصدقة والهدية لاستقلالها واحتقارها للموجود عندها، بل تجود بما تيسر عندها لجارتها، ولو كان قليلاً، وورد عنه ﷺ أنه قال: «لا يمتنع جار جاره أن يغرس خشبة في داره».

هذه حقوق الإنسان في الإسلام فيما يخص الجار والجوار... ونحن اليوم ربما لا يعرف بعض سكان الحي المتجاورون بعضهم؛ وكأننا لم نعرف الحدود التي علمنا إياها الحبيب المصطفى، وهي أربعون داراً وجاراً من كل جانب.

وهناك أمر آخر يجب التشديد عليه في حقوق الجار بصفته إنساناً له مقومات إنسانية من الاحترام والراحة بصرف النظر عن جنسيته أو مذهبه أو حتى دينه.

لو أن المسلمين أدركوا قيم ديننا في كل شؤون الحياة، ومنها البر بالجار لما جاءت هذه الخصومات والنزاعات بين الجيران، وما حدث ما يشكونه بعض الجيران من جيرانهم من تطاول عليهم وإزعاج لهم، وعدم مراعاة حرمة الجوار لهم.

لقد قرأت لزعيم كبير غربي مقولة جاء فيها: «إن ديناً يوصي، بل يفرض على أتباعه ألا يناموا شباعاً وأحد جيرانهم لا ينام جوعاً»، ويختتم حديثه الطويل بالقول: «دين هذه أحد واجباته المفروضة علينا أن نحترمه ونُجلّه».

ولنتذكر جميعاً أن الإسلام دخل أقطاراً كثيرة بسبب تعلق المسلمين بقيم دينهم وإني لأرجو ألا تكون حال بعض المسلمين اليوم

كما قال المفكر الإسلامي العبقري الشيخ محمد عبده، حينما عاد من رحلته الأوروبية: «وجدت إسلاماً ولم أجد مسلمين، وهنا وجدت مسلمين ولم أجد إسلاماً».

يا أيها الجيران، اتقوا الله، والتزموا بتعاليم ديننا، وأدّوا حق جارك، وكامل حقوق كل جيرانكم؛ حتى تحققوا ما أوجب الله تعالى عليكم.



﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾

يكذب بالدين.. لا يعمل وفق ما جاء فيه، لا يلتزم بما دعا الإسلام إلى العمل به والتمسك بأوامره، ومن يكذب بالدين فهو خارج عن حوزة الإسلام حتماً.

وليس الخروج عن الإسلام إلى ديانة أخرى هو كل التكذيب بالدين.. ولكن التكذيب بالدين هو كل رفض وإنكار وترك لكل ما أمر الله به عباده المسلمين.. هم مسلمون.. لكنهم لا يعملون بالإسلام، هم مسلمون، لكنهم لا يلتزمون بحقائق الإسلام هم مسلمون، لكنهم تاركون له عملياً، وسلوكياً، وأخلاقياً، وقد قال أحد المفسرين: «إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هو تحول في القلب، يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية المحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس كلمات إنما يريد معها أعمالاً تصدقها، وإلا فهي هباء لا وزن لها عند الله ولا اعتبار».

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ﴾ .. فَصَّلَ اللهُ تعالى ذلك في هذه السورة القصيرة عدداً في آياتها، الكبيرة الشاسعة في جوانبها الإيمانية، ووضح سبحانه وتعالى لنا من هم أنواع المكذبين بالدين.

ذكر الله تعالى «الكذب» بمشتقاته الكلامية وألوانه العملية مئتين واثنين وثمانين مرة في القرآن، وأوجب ترك الكذب على كل عباده ومخلوقاته «معشر الجن والإنس» فقال في سورة الرحمن

مخاطباً لهم: «إحدى وثلاثين مرة» قائلاً لهم مستنكراً نسيانهم ونكرانهم لنعم الله تعالى: ﴿فَإَيَّاءَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

فمن هم الذين يكذبون بالدين؟ هم بيننا كثيرون.. هم حولنا لا يهدوون أولهم: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].
فمن اليتيم؟ هو الصغير الفاقد الأب من الإنسان.

معانٍ كثيرة إنسانية واجتماعية لليتم، تجعله يشمل ألواناً مختلفة من اليتيم؛ حتى سميت الجمعة الأخيرة من شهر رمضان الجمعة اليتيمة.

وقد ورد ذكر اليتيم بالمفرد والجمع ثلاثاً وعشرين مرة منها:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧].

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

كثيرون هم اليتامي في كل المجتمعات، وأوجه العطف على اليتامي، كما أمر بها الله تعالى كثيرة: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾، لا تقسوا عليه بالعمل أو القول ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ إطعامهم وإيواءهم، الإنفاق عليهم بصور الحاجة، إصلاح حالهم، وحسن المشاركة لهم على حسن تربيتهم، العدل معهم في مستحقاتهم كلها صور نبيلة حثت عليها تعاليم الدين.

وهناك من التوصيات النبوية العظيمة ما يحملنا على الاهتمام باليتامى وكم هو الجزاء العظيم لذلك؟ قال ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه».

وقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى ومزج بينهما.

وقال ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضم أصابعه».

وقال ﷺ: «والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم، ولأن له الكلام، ورحم يمه وضعفه».

كل هذا تؤكد الآيات الكريمة من سورة الضحى، التي خاطب الله تعالى نبيه مبيناً له أنه ما ودَّعه ولا تركه، وذكر نعمه العظيمة عليه وأولها وأجملها: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].. من هنا كان العطف على اليتيم بكل ألوانه من أعظم الأعمال أجراً عند الله. هذه هي شريعتنا الإسلامية الغراء.. لم تترك شيئاً إلا وحددت موقفنا منه.. ودعت إلى ضرورة التمسك به.. وبينت أن تركه خروج عن حقيقة الإسلام وإنكار للدين.

إنها قيم أخلاقية عظيمة يجب ألا تصرفنا هموم الدنيا ومشاغلها عن القيام بها وتحقيق شرعة الله فيها.

إني لن أمل من الحديث عن القيم العظيمة التي تغيب عن بعض الناس، وخاصة من يتسئمون منابر الوعظ والإرشاد والتوجيه،

ويقيمون مدى تمسك الآخرين بالدين في مظاهر شكلية لا تصل إلى عمق القيم، كما هي واجبة في الإسلام.

لقد سمعت من أحدهم شماتةً بإنسان رآه حليق اللحية، وما درى محدثي أن هذا الإنسان الذي عاب عليه ترك شيء من السنة أنه من أكثر الذين ينفقون على الفقراء واليتامى دون أن تعلم شماله ما أنفقت يمينه إخلاصاً منه في ذلك.

ديننا تميز بهذه القيم، ونحن مطالبون بالتمسك بها تمسكاً حقيقياً بأصول ديننا، فالله لا ينظر إلى صورنا، ولكن ينظر إلى أعمالنا.



فلنجعل الصبر ديدننا

أمر إلهي حتمي لكل المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قيم عظيمة مرتبطة كلها بالصبر، ومنها المصابرة، والمرابطة والتقوى التي هي طريق الفلاح، وكأن تقوى الله لا تكتمل إلا بالصبر، والفلاح في الدنيا والآخرة لا يتحقق إلا بالصبر والمصابرة التي هي الثبات على الحق.

الصبر صفة من أقوى الصفات لزوماً ومعاناة، وهو من أسمى قيمنا الأخلاقية زينة وحسناً والتزاماً.

الصبر هو دوام ترويض النفس على الاستقامة ومشاقها، والصبر على المصائب وآلامها، وعلى المنهيات والشهوات ولذاتها.

لن تثبت قيمة من القيم العليا في الإنسان إلا إذا كان صابراً.. فالصبر من أكبر الأخلاق حجماً ومراعاة ومعاناة، يمتنع به الإنسان عن فعل ما لا يحسن، ولا يجمل وقبل ذلك يصبر أكثر على ما يجب أن يكون عليه.. نحن نصبر على الصيام بإخلاص مع شدة المعاناة والجوع والعطش (أحياناً).. نصبر على البر بالوالدين ورعايتهما مهما كان حالهما المادي أو المعنوي، نصبر على مشقة الإخلاص في العمل وحسن الأداء مهما كان صعباً؛ حتى لا نكدر رزقنا الحلال

بشيء من الحرام إذا أهملنا شيئاً من واجبات العمل، أو تركناه دون عذر قهري.

على الإنسان أن يوطن نفسه على الصبر بشدة وعزم ويقين ورضاً دون جزع أو ملل أو كراهية وسخط، فإن ذلك يشوه جمال الصبر، ويذهب بعظيم أجره.

وقد ورد في الأثر: «عجباً للمؤمن؛ كل أمره خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

ويقول الشاعر:

تصبر ففي الإرواء قد يُحمد الصبر ولولا صروف الدهر لم يُعرف الحرُّ

وقال آخر:

ثلاث يعزّ الصبرُ عند حلولها ويذهل عنها عقل كل لبّيب
خروجُ اضطرار من بلاد تحبّها وفرقة إخوان، وفقد حبيب

وللصبر مواطن كثيرة في حياتنا. فنحن مطالبون بالصبر عند الكوارث والمحن والموت، والمرض ومأجورون عليه، ولهذا كانت التعازي هي دعاء لأهل الفقيد: «عظم الله أجركم، وألهمكم الصبر والثبات».

وقال البحري:

تعزّ بالصبر واستبدل أسى بأسى فالشمس طالعةٌ إن غيب القمرُ

ماذا يحتاج الصبر منا لنكون بحق من الصابرين، وما جزاء هذا الصبر إذا تحقق..

يحتاج الصبر إلى إيمان ثابت، وعزيمة قوية، ورباطة جأش عند الأمور التي تحتاج منا إلى صبر، دون أن يضعف الشيطان بوساوسه هذه العزيمة؛ قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحاف: ٣٥]، وأجر ذلك عند الله عظيم.. ليست مكافأة مالية أو شهادة تقدير تمنح للصابر في احتفال؛ إنما هي الجنة خير الجزاء للصابرين، وناهيك بالجنة.. الحديث عنها لا ينتهي: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]، ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرٍ﴾ [الإنسان: ١٢].

وهنا نحن في حاجة إلى توفيق الله لنا بالثبات على الصبر، ومكابدة الشعور بالضعف: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠].

(صبروا، تصبروا... نصبر... اصبر... صابروا... ما أصبرهم... اصطبر... الصبر... الصابرين... الصابرات.... صبار) مئة وثلاث مرات تكررت فيها صور الصبر لمختلف الضمائر والأسماء في كتاب الله الكريم والحث على الالتزام به..

- الصبر للمنافحين عن حرية أوطانهم محقق لنصرهم وفوزهم..
- الصبر للطالب المجد حتماً سيصل به إلى الفوز.
- الصبر على المرض والمعاناة، مستعيناً بالله راجياً عفوه سوف يتحقق له الأجر وبإذن الله الشفاء.
- الصابر على أداء العمل إخلاصاً كاملاً سوف يبارك الله له في رزقه، ويحقق له البركة في حياته.

- الصابر على إيذاء بعض الناس سينال خير الجزاء من الله تعالى.
- الصابر على ضيق الرزق والمعاناة في العيش مستعيناً بالمرء بالله سوف يتحقق له الخير حتماً بفضل الله.
- الصبر سمة المؤمن المخلص، الواثق من قدرة الله على تحقيق كل ما يصبر عليه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

نحن منفذون لأوامر الله تعالى في الصبر:

- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].
- ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].
- ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].
- ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].
- ﴿وَلَنُصَبِّرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].
- ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥].

وفي الصبر قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من رزقهن فقد رزق خير الدنيا والآخرة: الدعاء في الرخاء، والرضا بالقضاء، والصبر عند البلاء».

وقال علي رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له».

وقال محمد بن علي بن الحسين: «الصبر صبران: فصبر عند المصيبة حسن جميل، والصبر عما حرم الله أفضل».

وقال الشاعر العربي:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة فافرغ لها صبراً وأوسع لها صدرا
فإن تصاريف الزمان عجيبة فيوماً ترى يُسراً ويوماً ترى عسرا

اللهم، اجعلنا من الصابرين بحق، الثابتين على عبادتك برضا وصدق، واصرف عنا نزع النفس والشیطان، واستعجال أداء الأمور، وثبت أقدامنا على الحق والصبر، والإيمان.

حقاً.. ما أعظم هذه القيمة العظيمة من قيمنا الرفيعة، التي لو التزم بها المسلم حقاً لهانت عليه كل أموره، وسهلت له كل مطالبه.



التعاون

دستور كامل المواد في موسوعة التعاون جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». فهو بحق تشبيه رائع؛ تكون اللبنة وحدها ضعيفة يسهل كسرها، ولكنها مع أخذتها في الجدار تصبح شيئاً صلباً يستعصى على الجبارين أحياناً، وكذلك الجدار إلى الجدار.

التعاون من أهم أسس بناء المجتمع الإسلامي، والعمل على إيجاد مجتمع فاضل يتجلى فيه الخير والصالح، وأول مظهر لهذا المجتمع القوي وجود رأي عام يتعاون فيه الجميع على الخير ودفع الشر.

التعاون الاجتماعي يوجب الذود عن الأخلاق والقيم العليا، ويوجب على الرشيد أن يهدي الضال، وعلى العالم أن يعلم الجاهل، فتكون الجماعة في فضيلة ظاهرة التعاون على الخير، ولا تتعاون على شر أبداً.

إن جلائل الأعمال الكبرى لا تتحقق إلا عن طريق العمل الجماعي المنتظم المتعاون بخلاف العمل الفردي، فإنه في الغالب لا يثمر إلا أعمالاً ضعيفة مثل طاقة الفرد؛ لأن الارتباط بالجماعة والتعاون معها يضاعف مقادير القوة؛ لأن القوة المجتمعية تصمد أمام القوى الأخرى المعادية، ونعلم جميعاً الحكمة الصادقة: «إن يداً إلى يد قوة، وحجراً إلى حجر بناء».

التعاون لا بد منه.. إذ هو من أقدم وأهم الصفات الإنسانية الضرورية لحياة الناس.. ولا مفر من الالتزام به.. كل أعمالنا حتى شربة الماء لن تتحقق إلا إذا كان هناك تعاون بين مجموعة من الناس. وليس التعاون في الأعمال المادية، ولا المشاركات العملية، بل هو تعاون في كل صور وجوانب الحياة.. لكل الناس دون استثناء، وهو تخلص من الأنانية المفرطة التي تقيس الأمور العامة من زاوية النفع الذاتي الخاص.

التعاون بكل صورته يمثل قيمنا: عمل الخير: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.

والتعاون على بناء المجتمع، وتعاون على دفع الظلم ونصرة المظلومين.. وتعاون على تنفيس الكرب ونجدة المأزومين، وتعاون عند الشدائد للمكروبين: «من نفس عن مسلم كربة في الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة».

التعاون.... هذا الخلق الإسلامي العظيم الذي يدعو إليه الإسلام يشتمل على عنصر المشاركة الوجدانية والمساعدة المادية والمعنوية، ويعبر عن حقيقة الأخوة الإيمانية في الواقع التطبيقي، ويبرز المعاني العظيمة للوحدة الإنسانية من التعاون في صورته الراقية تيسيراً على المعسرین، وحل مشكلة ذوي الحاجات من أفراد المجتمع. ولقد ضرب العرب والمسلمون صوراً رائعة للتعاون الواقعي الحقيقي العملي.. وكان منه التناصر، والتحالف في صورته الاجتماعية الكبرى.

ويأخذ التعاون صوراً أخرى كثيرة لا مجال لحصرها الآن، ومن أبرزها التعاون في محيط الأسرة التي هي الصرح الاجتماعي والأساس الثابت لبناء المجتمع، ويكون التعاون الأسري بتوزيع المسؤوليات على كل أفراد الأسرة.. فالرجل راعٍ ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيته.

وكذلك حق الأبناء على الوالدين عناية وتنشئة، يقابله حق الوالدين على الأبناء برّاً وإحساناً، ثم ترابط الأسرة وصلة ذوي القربى.

ومن أهم صور التعاون قوة العلاقة وصدقها بين الزوجين وتعاونهما في تربية الأولاد، إذ يبدأ حق الأولاد على آبائهم قبل وجودهم، وذلك ببذل الجهد في اختيار أمهاتهم عملاً بتوجيه الحبيب المصطفى ﷺ: «تخيروا لنطفكم؛ فإن العرق دساس».

والتعاون واجب في صورة الإنفاق على الأولاد، والرحمة بهم، والإحسان إليهم وتعليمهم أمور دينهم وتربيتهم تربية تمكنهم من الإسهام والتعاون في كل نافع ومفيد.

ويمتد التعاون إلى كل جوانب المجتمع، وذلك بالتعاون في الذود عن الأخلاق والفضائل، ونشر الأمن والطمأنينة، والوقوف ضد الفتن والدسائس، وجميع صور النهي عن المنكر، إن التعاون الإنساني النبيل في رعاية الفقير واليتيم من أجمل صور التعاون الأخلاقي الذي دعا إليه الإسلام، بل كل الديانات السماوية السابقة.

وما أصدق قول الشاعر:

وما المرء إلا بأعوانه كما تقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم

قيمنا قيم سامية راقية، لو عرفها غير المسلمين عنا نحن
المسلمين لشاع دين الله في كل مكان حباً لهذه القيم في عظمتها
وتفردتها.



التفاؤل ثقة بالله فلا للتشاؤم

التفاؤل علامة كبرى للثقة بالله، ويقين بأن كل شيء يحدث للإنسان المؤمن هو خير.

المتفائل يؤمن بالله، ويتوكل عليه في أعماله كلها، يدرك أن الله يعلم، ويقدر ما فيه خير العبد دائماً.

ما أجمل أن يكون الإنسان متفائلاً، مترقباً دائماً للمستقبل الجميل المشرق، إن الإنسان المتفائل هو من يلقي الناس بما يحبون، وما يحب أن يلقاه الناس به، والعرب تقول: «حُسن اللقاء أفضل من العطاء» ويعني به أن لقاء بالتفاؤل والبشر أفضل من الزاد والعطاء.

التفاؤل بُعد عن التواكل والاستسلام، إنه يدعو إلى العمل الجاد المقرون بالتطلع إلى ما هو أحسن، دون ترك الأمور رهن الحظوظ، بل إن المتفائل ينظر إلى المستقبل دون خوف منه أو جزع.

ومهما لاقى المتفائل من عقبات ومصاعب في حياته، فإنها لا تضعف قدرته، ولا تفت من عزمه؛ لأنه يثق أن الله لا يأتي لنا إلا بما هو في صالحنا.

الإنسان المتفائل حقاً لا يستعجل حدوث ما يرجو؛ لأنه يبذل جهده واثقاً أن مع الجد حسن الجزاء، وقد ثبت تلازم الفأل مع الأمل دائماً عند من يثق في الله، والأمل دافع لصاحبه إلى أن يعيش بروح التفاؤل والأحياء السعداء، وشاعرنا العربي يقول:

أَعْلَلُ النَفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضِيقُ الْعِيشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ

ومن أجمل قصص التفاؤل وطول الأمل والثقة في الله ذلك الذي نقل عنه في تراثنا العربي أنه قال: «لقد سألتُ الله حاجة منذ أربعين سنة ما قضاها، ولا يئست منها، فسأله أحد أصحابه: ما هي؟ قال: ترك ما لا يعنيني».

إن التفاؤل يدفع بهمة للعمل، ويحفز بقوة على الجد، ويبعث على النشاط، ويدعو المتفائل إلى عمل الخير، وعدم القنوط أبداً.

التفاؤل مأمور به في ديننا الإسلامي، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا أعجبه كلمة: «أَخَذْنَا فَأَلْنَا مِنْ فِيكَ»، ويدعو دائماً إلى أخذ الأمور من جانبها الإيجابي، والتغاضي عما فيها من سلبيات.. والمتفائل يقول: الكأس مملوء إلى نصفه، والمتشائم يقول: الكأس فارغ إلى نصفه، وفي أمثالنا الدارجة نقول: «كل امرئ يلاقي ما تفاعل به».

كانت إحدى قريباتي كبيرة السن مقعدة كفيفة البصر تقول لي: «انظر نعم الله عليّ ها أنا بذاكرتي وبسمعي وبقدرتي على أن أؤدي شعائر ديني وشكر ربي أسعد من غيري كثيراً»، وتقول: إن الإنسان لا يعرف نعمة الله عليه إلا حين يرى من هو دونه محروماً من نعم هو يتمتع بها، ومن فرط تفاؤلها وثقتها في الله تقول: إني عاجزة عن شكر ربي، فلقد اختار لي ما أنا فيه، وادخر ما حرمني منه زاداً ونعيماً يوم القيامة رحمة منه، وليس بعلمي.

التفاؤل هو عين الثقة بالله، والمتشائم غير واثق من نعم الله وخيره عليه... بل هو دائماً ساخط منكراً متذمراً ضائعة عليه الدنيا، وفي هذا المعنى يقول إيليا أبو ماضي:

أيهذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلاً
إن شر الجناة في الأرض نفسٌ تتوقى قبل الرحيل الرحيل
أدركت كنهها طيور الروابي فمن العار أن تظل جهولاً
أيهذا الشاكي وما بك داءً كن جميلاً تجد الوجود جميلاً

المتفائل يحسن دائماً الظن بالله مؤملاً من عنده الخير، ففي الحديث القدسي «أنا عند حسن ظن عبدي بي».

كل شيء في عين المتفائل جميل، حياته حافلة بالسعادة والهناء، ونفسه قانعة راضية بما هو فيه من سعادات ومنح من الله تملأ حياته.. عبّر عنها الشاعر، فقال:

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

أما الساخط فهو دائماً حزين متشائم، ضائق الصدر:

كل من يجمع الهموم عليه أخذته الهموم أخذاً وببلاً

وهذا الشاعر المتفائل ينصح قائلاً:

كن هزأراً في عشه يتغنى ومع الكبل لا ييالي الكبولا

لا غراباً يطارد الدود في الأرض وبوماً في الليل يبكي الطلولا

حقاً.. إنه إذا آمن الإنسان بيقين وجد أن الدنيا أمامه حلوة خضرة، وأدرك أن عليه ألا يضيع ذلك منها، وأن يسعد بحلاوتها،

ولا يتعذب بما قد يتوهم أنه مرارة في أحداثها ومواجهها، وعنده اليقين بأن حياته في الآخرة حياة سعادة مع من ينعم الله عليهم برحمته ورضوانه.

لهذا جاء التفاؤل من أبرز قيمنا الإسلامية، نابذاً للتطير والتشاؤم، مبعداً كل البعد عن دجل العرافين، فقد قال رسولنا ﷺ في هذا المعنى: «لا عدوى ولا طيرة» كما قال ﷺ: «ليس منا من تطير».

المسلم الحق مطمئن، فرح النفس، قرير العين، يرى مستقبل أيامه مشرقاً وأفضل من حاضره، أما مهتز الإيمان فإنه في نكد دائم، وغم مستمر، وهم لا يفارقه؛ لأن ظنه بالله غير سوي.



إصلاح ذات البين

كثيرة هي القيم الإسلامية التي تجعل الحياة سعيدة، والأوطان آمنة، وتحقق الحب والتآلف، وتؤكد حسن التعامل وقوة الارتباط والتكاتف، وهي بتأصلها تمنع تفسخ المجتمع، وتحمي لبناته من التصدع، وتقوي أواصره، وتؤكد روابطه، ومن أبرزها وأقواها وأشملها تأثيراً ما نعرفه بقيمة: «إصلاح ذات البين» وهو الذي يزيل الشحناء ويطفئ البغضاء، ويحقق التوفيق بين المتخاصمين، فيعود الإصلاح والوئام والوفاق.

إصلاح ذات البين عمل وسلوك ديني مهم، ولازم اجتماعي حتمي به تنمو المودة وتحقق الألفة، وما أروع وصف الشاعر لذلك في قوله:

إن المكارم كلها لو حُصِّلت رجعتُ بجملتها إلى شيئين
تعظيم أمر الله جل جلاله والسعي في إصلاح ذات البين

وليس الشاعر مبالغاً في جعل كل مكارم الأخلاق ترجع إلى تعظيم أمر الله تعالى والسعي في إصلاح ذات البين، ففي الإصلاح يعيش الناس آمنين مطمئنين لا خوف يزعزع أمنهم، ولا ظلم يوقد صدورهم، وفي ظل الإصلاح يعيش الناس متعاونين متحابين يساند بعضهم بعضاً في بناء مجتمعهم.

إصلاح ذات البين خلق كبير كريم، جعله الإسلام من أهم دواعي الخير، وهويداني الصلاة والصوم في الأجر والثواب؛ لما فيه

من تحقيق مصالح كثيرة تؤدي إلى استقرار المجتمع، وشيوع الألفة والمحبة والطمأنينة بين أفرادهِ، وقد جعل الله تعالى من يقومون به من أحسن الناس، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، والسنة النبوية الشريفة تؤكد على القيمة العليا لإصلاح ذات البين حتى قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»، ويروى عنه ﷺ أنه قال: «هي الحالقة.. لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»، وقال لأبي أيوب «ألا أدلك على تجارة؟ قال: بلى، قال: صل الناس إذا تفسدوا، وقرب بينهم إذا تباعدوا».

إصلاح ذات البين القضاء على كل صور الاختلاف، والنزاع، والتفريق وما من مجتمع يلتزم بالمبادئ الفاضلة والسلوك القويم المقبول إلا كان مجتمعاً نموذجياً قوياً تتعدم أو تقل فيه المشاحنات، وتتلاشى فيه النزاعات، فالفرد في المجتمع يجب أن يلتزم بالانضباط بالقواعد العامة، ويراعي حقوق الآخرين، ويؤدي الواجبات التي عليه، ويقف عند حدود حقه، ولا يعتدي على حقوق الآخرين، ويبادر مجتمعه بنشر السلام وحسن التعامل، وهنا يجمع القلوب، ويؤلف بين الأفراد، ويشيع الصفاء والحب، وينشر الخير والمودة.

قال تعالى مطالباً لنا بذلك كله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقال ﷺ: «ألا أدلكم على ما تحابون به؟ أفشوا السلام بينكم».

ما أجمل ثمار إصلاح ذات البين، وما أسوأ فساد ذات البين، ففي هذا الفساد تنمو الكراهية والبغضاء، ويشيع الحسد والحقد، وتنتشر الغيبة والنميمة، وتظهر بل تسود الفتنة وغيرها من آفات الحياة الاجتماعية، وكلها أخلاق حاربها الإسلام، وطالبنا بتجنبها، وجاء في الأثر: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً.. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم.. كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه» وقال ﷺ: «أبغض الرجال إلي الله الألد الخصيم».

إصلاح ذات البين خلق إيماني عظيم، كان رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً في إصلاح ذات البين، حتى قبل النبوة، والتاريخ يحفظ له ذلك الخلق العظيم، والإصلاح القويم، ومن ذلك حضوره ﷺ حلف الفضول وغير ذلك قبل حضوره صلح حرب الفجار وعمره عشرون عاماً، ومعروفة قصة وضع الحجر الأسود عند إعادة بناء الكعبة، وادعاء كل قبيلة أحقيتها بهذا الشرف واحتدام النزاع حتى كان يحكمهم أول رجل يطلع عليهم من باب بني شيبه، فطلع عليهم رسول الله ﷺ وتم الصلح بين الجميع بوضع الحجر الأسود في ردائه، واشترك الجميع في رفعه، ووضع بيديه موضعه الآن، وحسم النزاع الذي كان يمكن أن يتحول إلى حرب ضروس.

كذلك كان إصلاحه ﷺ بين الأوس والخزرج عند وصوله المدينة المنورة بعد الهجرة، وصاروا إخواناً بعد أن كانت العداوة مستفحلة بينهم:

﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومواقف أخرى كان إصلاح ذات البين فيها عملاً نبوياً شريفاً كما كان أيضاً في غزوة بدر وما كن من نزاع بين الشيوخ والشبان، فنزل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

ما أعظم إصلاح ذات البين أثراً في حياة الناس، وما أعظمه أجراً لمن يصلحون، جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد».

ونظراً لأهمية إصلاح ذات البين والحاجة الماسة لجهود المصلحين بين الناس أجاز الرسول ﷺ للساعي في ذلك شيئاً من تجاوز الحقيقة ما دامت الأمور المترتبة على الإصلاح كبيرة، فقال ﷺ: «لا أعدّه كاذباً الرجل يصلح بين الناس».

ليكن هناك حذر ممن يحاولون نشر الفتنة في المجتمع، أو بث الخصام بين الجماعات، أو تمزيق أواصر المحبة بين المواطنين، سواء من بعض الجهات الأجنبية المفرضة، أم من الجماعات الداخلية المفسدة، ولنعمل كل جهدنا على إصلاح ذات البين ولم شمل الجميع، وجمع أطراف النزاع؛ ليظل المجتمع آمناً هادئاً سعيداً متحد الكلمة مجتمع الشمل متماسك الأواصر بإذن الله، وتلك والله قيمة عظيمة من قيمنا.



البشاشة

«حُسن اللقاء ولا طيب الغداء».

قالوا:

عليك حسنُ البشريِّ في اللقاءِ فإنَّه من سبب الرخاءِ

وقالوا:

أخو البشر محبوبٌ على حسن بشره ولن يُعدم البغضاء من كان عابسا

وقالوا:

كأننا من بشاشتنا ظللنا بيوم ليس من هذا الزمان

وقبلهم جميعاً قال رسول الله ﷺ: «إن تبسمك في وجه أخيك

يكتب لك به صدقة» وورد في الأثر: «المعروف شيء هين وجه طلق

ولسان لين».

البشاشة ليست خلقاً مستقلاً، وليست منفصلة عن مكارم الأخلاق، ولكنها لباس يزين الفضائل ومكارم الأخلاق، ووعاء جميل إذا حملت فيه قيم الخير والجمال زادها بهاءً وجمالاً.

تعني البشاشة في أبرز صورها لقاء الناس بالبشر، ومعاملتهم بالحسنى، فالبشاشة تأخذ بمجامع القلوب إذا ارتاحت إلى المتحدث، واطمأنت إليه، ورضيت به.

والبشاشة تبدو على وجه صاحبها، فكأنه مصباح منير، فالوجه السمع البشوش يظل حسنه وبهاؤه حتى مع تقدم العمر بصاحبه،

فالشماثل الحلوة لا تذهبها السنون، ولا تضيع من بشاشتها، بل إنها تزيدها إشراقاً وبهاءً، وتظل تفيض بخيرها على الإنسان مدى الحياة.

البشاشة التي هي السرور والرضا في نفس الإنسان تبدو في السن الضاحكة والوجه الوافر ماؤه، والحديث الجميل، وفي المداعبة والظرف، وتكون في حسن المعاملة، ومداواة الناس، وفي التحية والتودد إليهم والسرور بهم.

والبشر الوجه المشرق هو أول مظاهر البشاشة، وهو أقرب إلى مفاهيم الناس وألصق بعاداتهم، وأسهل في تجاوبهم مع ميل الإنسان بطبعه إلى الأنس ومعاملة الآخرين بالرفق، والقرب إلى نفوسهم.

ومن معاني البشر بشّرتّه، أي أخبرته بخبر سارٍّ، بسط بشره وجهه، وذلك لأن النفس إذا سُرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر، فاستبشر أي وجد ما يُبشره من الفرح؛ لأن البشير هو المبشر.

البشاشة التي هي رد الفعل العملي للبشر، خُلق من أخلاق القرآن الكريم وفضيلة من فضائل الإسلام، وجزء مهم من هدي النبي ﷺ فالْمُؤْمِنُ يجب أن يكون مبشراً بالخبر، مستبشراً به.

وحسن الوجه وبشاشته يشجع على طلب الحاجة، فغالباً ما يكون حسان الوجوه سمحاء مع الناس ودودين بأشّين، إذا أعطوا فبنفس راضية، وإذا لم يعطوا ردوا بطريق حسنة لا تنقص من قدر السائل، ولا تُهدر من كرامته.

البشاشة وحسن الوجه مرتبطان بالضوء ارتباطاً وثيقاً؛ فالوجه المضيء غالباً وجه كريم، وصاحبه ذو نقاء وصفاء وسلامة صدر

وقلب طيب، ونقاء قلبه هذا هو مصدر إضاءة وجهه؛ فالخصال الكريمة تنعكس بالبشر الذي ينير الوجه.

وترتبط البشاشة بقيم خلقية كثيرة، لن تذبل أبداً ما دام صاحبها بشوشاً بحق، فبسط الوجه مطلوب عند لقاء الناس واستقبالهم إذا كانوا محتاجين أو غير محتاجين وارتباط البشاشة بالكرم وإقراء الضيف، ليس إلا تنمة لهذه القيم، فالقيم يتمم بعضها بعضاً.

والبشاشة وطلاقة الوجه هما عنوان الضمير ومראה النفس، ودعوة لتحقيق الأمل وتقريبه، وقيل: طلاقة الوجه عنوان الضمير، بها يستنزل الأمل البعيد.

قال الشاعر:

وما اكتسب المحامد طالبوها بمثل البشر والوجه الطليق

فالوجه الطليق والتبسم عند لقاء الناس من أهم صور ودلالات النفس الطيبة الراضية الصافية، وما الترحيب إلا الجانب المسموع والمعلن للبشاشة، وقد أكدته الإسلام وحث على الالتزام به؛ لما فيه من تقوية الروابط بين أفراد المجتمع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

ومن آثار البشاشة العملية المشهودة أن البشاشة سبب قوى من أسباب الرزق، إذ يكفى الإنسان أن يكون باشاً مرحباً حتى يبارك الله له، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

البشاشة هي مجموع مركباتها والمقترن من القيم العليا بها خلق رفيع وفضيلة حميدة، وخصلة إنسانية تتفق والفطرة السليمة، وتتبع من المبادئ السامية، وهي قيمة رفيعة يتقن فنّها من جُبل على الحلم والصبر والرضا والقناعة، إنها صفة كريمة لا يستغني عنها الفرد، فضلاً عن الأسرة والمجتمع؛ لأنها مفتاح إلى العلاقات الحميمة، تقرب النفوس، وتؤلف القلوب، وتجمع ولا تفرق، وتضفي جواً من الطمأنينة وراحة البال حول صاحبها، ولا سيما إذا أضيف إليها جملة الأخلاق الأخرى، وتفاعلت معها في جو من الاطمئنان والاستقرار النفسي والاجتماعي.

البشاشة خلق مهم ولازم لحياتنا، ودلالاته تؤكد صدق وصفا الحب الذي يوثق العلاقات بيننا.

كم هو لازم لسعادة الأسرة أن يدخل الأب متبسماً ببشاشة وجه سعيد بالعودة إليهم، وكم يفرح الطفل ببشاشة أمه وأبيه عند قربيه منهما، وكم يسعد الزوجان ببشاشة كل منهما عند لقائه للآخر، وكم يسعد الموظفون حين يلاقهم المسؤول ببشاشة وجه ورضا وسعادة نفس!... وهكذا.

إني أؤكد لزوم أن نتحلّى جميعاً بالبشاشة، ونرسخها في كل سلوكياتنا بصدق وحقيقة؛ حتى لا تدبل مع انعدامها قيمة عظيمة من قيمنا الرفيعة، وآمل ألا أرى عابساً متجهماً مقطب الوجه عند حديثه إلى الناس أو لقائه بالآخرين، ومن حرم البشاشة فقد حرم الجمال، وأدعو كما دعا الشاعر بدوي الجبل حين قال:

ويارب حبب كل طفل فلا يرى وإن لجّ في الإعنات وجهاً مقطباً
وهيئ له في كل قلب صباية وفي كل لقياً مرحباً ثم مرحباً

السلام عليكم

السلام عليكم تحية أوجبها الإسلام عند اللقاء والانصراف، وهي من أبرز الوصايا التي حث القرآن الكريم والسنة النبوية على الالتزام بها، والتحلي بسماتها.

إن فكرة السلام يلزم لاعتناقها فهم عميق، وإدراك واضح لَكُنْهَها، وفتح العقول لفهم المعاني الكبيرة العظيمة المرتبطة بالسلام، ودوره في الحياة، وأثره الفاعل في الفرد والمجتمع.

السلام اسم من أسماء الله الحسنى؛ لسلامته من العيب والنقص: «اللهم، أنت السلام ومنك السلام»، السلام هو أن يعيش الإنسان بهناء وأمان واستقرار في مجتمع لا يتعدى فيه أحد على الحقوق، ولا يتجاوز الحدود؛ فيذوق الناس طعم السعادة الحقيقية في تواصلهم وتراحيمهم.. فالسلام اسم يطلق على حال الاستقرار والأمن، وسميت الجنة دار السلام: ﴿هُم دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، لأنها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع، ولا تنفى، وهي دار السلامة من الموت والهرم والأسقام، والهموم.

السلام هو السلم المنشود لسعادة الإنسان، فكل الرسل والأنبياء دعوا إلى تحقيق السلام بين البشر، والله تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وليس السلام قاصراً على إيقاف التحارب بين الناس، ولكنه يشمل

صوراً كثيرة من حياتنا، منها سلام الإنسان مع نفسه والآخرين، وعند الدخول والخروج آيات كثيرة، وأحاديث نبوية عدة، ومواقف عملية في سائر الحياة تؤكد لزوم السلام، بل إنه أهم ما يجب أن تكون عليه الحياة لتكون هناك إمكانيات تحقيق كل شيء فيها بعد ذلك.

بالسلام والاطمئنان يعبد الإنسان الله بحق واستيفاء..
بالسلام يحيا المرء في وطنه دون قلق أو خوف من ظلم أو إرهاب،
يفاجئه، ويزعزع استقراره. إذ إن الحياة دون سلام ينتابها الخوف،
ولهذا وصف الله نعمته على عباده بقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ٤].

بالسلام تتعايش الأمم، وتتلاقى، وتتطور المجتمعات، وتزدهر
فيها الحياة، ويعم الخير والرخاء، فالسلام يُنهي الحروب التي
تأكل الأخضر واليابس، وما أشنع ذلك في الوقت المعاصر!

وحين يشعر الناس بالأمن والأمان يصلون إلى حقوقهم،
وتسود العدالة بينهم، ويزول البغي والإرهاب من بين ظهرائهم؛
لأنه لا حاجة لهم للقتال والاحتراب، هم إلى السلام أحوج، وبالأمن
والاستقرار أولى وأقرب.

الإسلام يطلب السلام، ويحث عليه، لكنه يطلبه سلاماً
عادلاً كاملاً شاملاً كل مناحي الحياة، فالسلام في الإسلام وحدة
متكاملة، ونظام مترابط، والسلام والإسلام متشابهان في الحروف
وفي المعنى، فبين الاسمين روابط كثيرة وصلات وثيقة، وإنه ليس
أرضى للإسلام في شرعه من سلام ينشر جناحيه على الناس

جميعاً؛ ليقيم حياتهم على بساط الأمن والمحبة والعدل، والنبي الكريم ﷺ يقول: «أنا سلم لمن سالمتم» يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

لكن هناك وقفة بالغة المعنى في السلام، هي أنه يجب ألا نرضى بسلام قائم على التنازل من الثابت لحقوقنا في الإنسان والمكان، فليس مثل هذا سلاماً حقيقياً كريماً، إنما هو ذل وخضوع، ومهانة وضعف ترفضه كرامة الإنسان.

إن أي أمة تسلب أرضها، وتداس كرامتها، وترضى من المعتدى بالاستسلام له هي أمة ذليلة ضعيفة، وما عليها قبل القبول بالسلام إلا السعي إلى اتخاذ أسباب القوة واسترداد المسلوب من أرضها وكرامة الإنسان فيها، وصدق شوقي حين قال:

وعيشوا في ظلال السلم كدأً فليس السلم عجزاً واتكالاً

السلام دأب العقلاء، وديدن أهل الفكر، ومسلك حياة الأغنى وعباً، الأدق نظراً، فقيمة السلام من أعظم القيم، فهي القيمة القوية أثراً تتجلى فيما يعود منها على الإنسان من نفع، وإصلاح شؤون الحياة وكبح جماح النفوس الشريرة... هذه القيمة تحتاج إلى نفوس أبية كريمة تسعى للخير العام، ورغبات الجميع بعيدة عن مطامع الأنا، فما أرخص وأهون الاستسلام الذي تدعو إليه المطامع، الذي سرعان ما ينكشف، وتظهر الحقيقة في أن دعااته ليسوا حقاً دعاة سلام بقدر ما هم أصحاب مصالح.

إن السلام الحقيقي أمر فطري أوجده الله في النفس البشرية، وليس ثمة إنسان يولد عدوانياً، وإنما العداء يكون في النفس نتيجة

مؤثرات خارجية وظروف محيطية تدفع الإنسان إلى الخروج عن طبيعته، حتى يتحول من ملاك إلى شيطان رجيم نتيجة شعوره بالغبن والقهر وتسلط الآخرين عليه.

أقول: السلام هو أول الحياة وبداية كل الخير في الأعمال، وآخر ما يفعله المرء، وينتهي به لقاءاته.. عليكم السلام ذلك؛ لأن «السلام تحية أهل الجنة» كما جاء في أثر الحبيب المصطفى، وقوله: «أفشوا السلام تسلموا».

إن السلام قيمة عظيمة من قيمنا التي نحيا بها، ونحقق القيم الأخرى بوجودها، فلنكن جميعاً أهل سلام ومحبة وأمان، ولنتذكر دائماً أن السلام هو الدعاء بالخير والتعبير عن الشكر؛ فنحن نقول لمن أجاد عمله: «سلمت يداك»، والسلام رسالة حب وتقدير بين الجميع، فنحن نوصي من سيقابل أحداً ممن نعرفهم: «إذا لقيت فلاناً فأبلغه مني التحية والسلام».

اللهم، أدم السلام على بلادنا، سلاماً قائماً على العدل والإنصاف، سلاماً لا تكدره أطماع حاقدين، ولا أحقاد كارهين.



تقدير الكبير سنّاً وقَدراً

يقول مثلنا الشعبي: «من هو أكبر منك بيوم أعلمُ منك بسنة»..
قد يكون هذا مبالغة في الواقع، لكنه يدل على أن للكبير منزلة
ومعرفة تفوق من هو أصغر منه.

ومن حسن الأدب وطيب السلوك مع الكبار سنّاً أن نجعلهم في
مقام الأب؛ إننا نقول لمن هو أكبر منا سنّاً: «يا عمّ يا خال» تقديرًا
له ولمكانته، واحتراماً لشخصه، كأنه من أقاربنا.

وقد جاء في الأثر ما يفيد ذلك: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا».
وقيمنا الإسلامية النبيلة المستمدة من القرآن العظيم، وسنة
النبي الكريم توصي بهذا الأمر كل الوصاية، وتطلب من الجميع
حتمية تقدير الكبير، ومراعاة مقامه بيننا أيّاً كان موقعه منا.

ومن أمثلة وجوب تقدير الكبار سنّاً.. ما جاء في قصة إخوة
يوسف عليه السلام، حين دخلوا عليه، وقالوا: ﴿قَالُوا يَا أَبَا الْعَزِيزِ إِنَّ لَكَ
أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[يوسف: ٧٨]، توضح هذه الآية القدر اللازم من مراعاة كبار السن والشيخ،
وقالوا في موقع آخر: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

والسنة النبوية في تربيته السلوكية لنا تأمرنا بهذا التقدير
العملي والمعنوي للكبار من ذلك قوله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى
إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي
عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

وقوله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا» إنها تعليمات إيمانية يستلزم كمال التحلي بها تحقيق ما جاء من توصيات تؤكد هذه القيم العالية، حتى إنه عبر عن ذلك بقوله: «ليس منا»، وقال ﷺ مؤكداً ذلك: «استوصوا بالكهول خيراً»، وذلك لازم تجاه تعاملنا مع الكبار سنّاً.. سواء في لقاءاتنا الاجتماعية، فنرحب بهم، ونحسن استقبالهم، ونجلسهم على رأس المجلس، ونلتزم بأداب المجالس عند حضورهم، والاستماع إلى أحاديثهم، وكذلك عدم التكليف بعمل شاق عليهم إذا كانوا يعملون، ولا نلزمهم بجهد فوق جهدهم إذا كانوا معنا متعاونين، حتى إن الرسول الكريم ﷺ أمرنا بمراعاة ذلك دائماً، فقال: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير».

وأما تقدير الكبير لموقعه في الحياة، ووظيفته في العمل، فإن الاحترام واجب على الجميع لهم.. فباحترامهم تسير الأعمال، وتجز المهمات، وهم غالباً أهل الخبرة الصالحة بهذه الأعمال الموكلة إليهم إدارتها.

أن المفترض أن المدير في وظيفته عارف بلوازم الأعمال المنوطة بموقعه وعلى من معه إذا كان الأمر كذلك أن يتحلوا باحترامه وتقديره، وتنفيذ توجيهاته فيما يخص العمل الذي يقومون به معه.

وعلى كبار المسؤولين في الدواوين والوزارات وجوب التقدير لهم تقديراً إدارياً وإنسانياً ذلك لأن المسؤول الذي يسير الأعمال، ويشرف على الوظائف وفق الحق والقانون علينا أن نسانده، ونسير وفق توجيهات العمل في إدارته.

وفي حديث شريف جاء قوله ﷺ: «إذا كان أمراًؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها».

هذا، وكثير من التوصيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤكد ضرورة احترام الأكبر قدراً في العمل، والأعلى منصباً في الوظيفة، حتى تسير الأمور وفق ما وضع لها من تشريعات وخطط وقواعد.

وتقدير الكبير مقاماً هو سلوك اجتماعي جميل، فيشعر الكبير بالجميع معه بالمحبة ووجوب تقديرهم المادي والمعنوي، وكم من إدارات وهيئات عملية تعمل كلها يداً واحدة، وتعطي الأمة عطاءات عملية كل في مجال تخصصها عطاءً وافراً بسبب العلاقة القوية بين أفرادها والكبار فيها... إذ لا شقاق بينهم، ولا نفور في العلاقات الحميمة التي تجمعهم.

وفي ذلك يقول الحبيب المصطفى ﷺ: «إذا أراد الله بقوم خيراً ولى أمرهم الحكماء، وجعل المال عند السمحاء».

إن تقدير الكبير سنّاً، واحترام الكبير وظيفة وموقعاً يجب أن يكون نابعاً من صدق القناعة النفسية عندنا بأننا مطالبون في شريعتنا الإسلامية الراقية بقيم عظيمة نبيلة تحقق أرقى مستويات العلاقات الإنسانية بيننا وبين الكبار سنّاً وقدراً.. ذلك لأن الاستهتار بالكبار استهتار بالآداب الإسلامية، والقيم الأخلاقية، وسوف تتحول العلاقات بين الناس إلى الكراهية والقطيعة، وبالعامل إلى الفساد وضياع الجودة في الأداء.

ومع التأكيد على ضرورة احترام كبار السن بيننا سواء من أهلينا أم ممن نلتقيهم ووجوب الالتزام بأداب العمل وتقدير رؤسائهم بمختلف درجاتهم، فإنه في المقابل أن يقدم هؤلاء الكبار سنّاً وقدرّاً ومكانة اجتماعية من حسن التعامل والبشاشة واللطف ما يوجب احترام الآخرين لهم، وبهذا فإن احترام الكبير سنّاً ووظيفة يكون احتراماً قائماً على القناعة بوجوب ذلك دون دافع من النفاق أو التمسح، أو إظهار ما ليس حقّاً أو المبالغة الممقوتة في المدح والثناء، فليس هذا احتراماً بل تملق كاذب، وخداع دون حقيقة وراءه؛ لأن التقدير الحقيقي يخلو من كل ذلك.

إن من هو على قدر كبير من الثقة بنفسه من القياديين وكبار المسؤولين يرفض المديح الزائف، وفي هذا قال ابن المقفع: «إياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك؛ فتكون ثلثة من الثلم يقتحمون عليك منها، وباباً يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها، ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه».

قيمتنا قيم منصفة لكل الأطراف، فلا الجحдан وإنكار الفضل لأهلته، ولا التزييف والادعاء مقبول أبداً، ولهذا يقول العرب: «من مدحك بما ليس فيك فقد هجأك بما فيك».



ما أعظم حق الوالدين!

قرن الله تعالى وجوب حق الوالدين بعبادته، حين قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ذلك لأن أداء حق الوالدين من أعظم القيم التي يسعد بها الإنسان في حياته وبعد موته.

إن البر بالوالدين والقيام بحقوقهما مقدم على الجهاد في سبيل الله، فقد ورد في الحديث أن رجلاً أقبل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد؛ أبتغي الأجر من الله تعالى، قال: فهل لك من والديك أحد حي؟ قال: نعم، بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نعم، قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

وقال ﷺ: «رضا الرب في رضا الوالدين، وسخط الرب في سخط الوالدين».

وقال ﷺ: «رغم أنف ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، فلم يدخله الجنة».

ومما يؤكد خير الجزاء للأبناء بفضل برهم للآباء ما ورد في الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أوأهم المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار؛ فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم».

قال رجل منهم: اللهم، كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلاً، فلبثت والقدر على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم، إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه...»، وكان دعاء الآخرين سبباً في تمام انفراج الصخرة، بأعمال أخرى صالحة لهما.

ومن مظاهر البر ما حكى عن أعرابي مسلم في هاجرة القيظ وفي منتصف النهار شاهد والده يهيم بأن يقضي حاجته في الفضاء على الرمال الملتهبة، فما كان من ذلك الابن إلا أن أسرع خلف والده برفق؛ حتى لا يشعر به، ووضع كفيه على الرمل ليمنع أن يتدلى أي من جسمه أو أعضائه على الرمال الملتهبة، ويلتصق فتكويه وتوجعه.

وقال الأب قولة اشتهرت عند جيلنا: «كل ما عملته لي يا ولدي عملته قبلك مع أبي إلا هذا الموقف.. فقد سبقتنني، وزدت به علي» فليفرح كل بارٍّ بوالديه بأنه في رضا الله، وسوف يجد من بنيه ومن ذريته من يرد له هذا البر، وليحذر العاقون من مغبة العقوق في الدنيا والآخرة.

أما الأم فإنها البهجة الباقية، والمثوبة الإلهية الخاصة، والحديث عنها يحتاج إلى صفحات طويلة.

إن أبهج اللقاءات، وأسعد الاجتماعات هو ما كانت الأم زينته، وكانت الأم سعادته، فليس هناك أجمل ولا أحلى ولا أسعد من وجود الإنسان مع أمه ووجود أمه معه مهما كانت حياتها، ومهما طال عمرها، فإنه لا يشعر بها إلا من فقدوها، وحرّم جنة الحياة معها.

تصرفات عجيبة في عالم الأمومة.. تكشف عن عظيم حبها، وفريد مشاعرها:

- أم تلقي بابنها الرضيع في النهر.. برضا نفس! «أم موسى عليه السلام».
- أليس هذا عجيبة.. حقاً! لكنها الأم التي لم تُقدّم على هذا إلا لصالح أيقنت به لابنها، مع مرارة داخلية تمذّب وجدانها.
- الأمومة نظام إنساني تلو به مكانة الأم فوق كل مكانة.
- وهذا ما يؤيده قول أشرف الخلق والمرسلين لمن جاءه سائلاً عن أحق الناس بصحبته؟ قائلاً له: أمك.. قال: ثم من؟ قال: أمك.. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك..
- الأم هي القمة، هي الشرف الأعلى.. هي الرمز الأسمى..
- هي المجتمع والملتقى.. هي رمز الفخر والتميز في كل شيء..

طويل الحديث عن الوالدين رمزاً ومعنى؛ لما لهما من العواطف ما لا قدرة لأحد على سبر أغواره، والبر بهما من ألزم القيم الإيمانية التي يجب التمسك بها.

فما من واحد منا مهما كبرت سنه يجلس بجوار أحد والديه إلا ويشعر بأنه الطفل الصغير، يملكه شعور عميق صادق قوي بالحب.. وبالحنان والإشفاق والعطف، عالم آخر نحياه، ونحن بين يديهما.

شعور، وأنت بجوار والديك لا تشعر بمثله أو عمقه، وأنت بجوار أي أحد آخر مهما كان قربه.

خص الله الوالدين بهذه المكانة السامية، وميزهما بهذا الشعور النبيل الصافي.. حبهما الذي لا يدانيه حب آخر وصفه الشاعر قائلاً:

حُبٌّ طهور لا يشوب نقاءه كدرٌ ولا تطغى عليه حقود

وبعد ... هل يظن القارئ أنني أتحدث عن أمر بدهي يعرفه كل الناس؟ قد يكون الأمر كذلك عند الكثيرين.. لكننا في زمن رأيت أن الحقائق قد طمست عند بعض الناشئة.. وأنا حين أذكر الوالدين بدورهما العظيم.. وأتحدث عن شعورهما الحميم فأني أريد أن يعيه الأبناء بوضوح، فيقدرون والديهم حق قدرهما.

وهكذا الحديث عن الوالدين كثرة ما يملأ النفس من مشاعر الوفاء، والولاء لهما. حديث ممتع لا يمل المرء سماعه، ولا يشعر بأطيب منه؛ فلنجعل كل أيامنا أيام احتفاء بالأم، وليس يوماً واحداً، ويوماً واحداً للأب؛ فهما يكرماننا، ويفرحان بنا، ويدعوان لنا، ويحنوان علينا طوال عمرهما.

ومما هو جميل دال على سمو قيمنا في هذا الشأن أن الأبناء كثيراً ما يتنافسون في الرغبة في احتضان والديهم عند كبرهما، والقيام بما يمليه واجب البر بهما، وكل منهم في منزله لكنه دائم الرغبة في إقامتهما معه.. حباً لهما.. ورغبة في الفوز برضا الله عنهم لذلك.



وللبنوة حقوقها

ما أعظم موقع الأبناء في حياة الآباء والأمهات.. إن البنوة هي الروح الثانية للإنسان، هي العضد المساند للآباء.. هي الشعور باستمرارية الحياة.

ها هو زكريا عليه السلام يدعو الله ألا يحرمه من الأبناء، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ وَكَانَتِ أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٥-٦].

إن مما جاء من بارع التعبير عن هذه المشاعر التي لا مثيل لها كمًّا وكيفًا كلمات سجلها الأستاذ عبدالعزيز البشري للتاريخ، قال: «وقد تعلم أن كلمة الحب تنطوي على ألوان من الحسن كثيرة، قد تقترب اقتراباً شديداً، وقد تفترق افتراقاً بعيداً، فللحياة حب، وللجمال حب وهكذا، لكن اعلم أن حب الولد غير أولئك جميعاً حب الولد غير حب الزوج، وغير حب الوالدين، وغير حب الإخوة وأبنائهم، هو حب له طعم لا تذوقه في شيء من أولئك، هو مزج من الرحمة والحنان، ومن السعادة والجمال، ومن الطرب ومن الطمأنينة والقلق، ومن الأثرة والإيثار ومن الخوف والرجاء، هو مزج من هذا كله مختلط، يمزج بعضه في بعض، فيخرج ذلك الطعم الذي لا يكون إلا بمجموع هذه المعاني وإن كان أظهر عناصره الرحمة،

والحنان» ومن هذا، فإن من أقدس الواجبات على الوالدين حب أبنائهم، والحرص الدائب على سلامتهم وتمام صلاح أحوالهم، وحسن سلوكهم.

إن حب البنوة مائدة طعام كثيرة الأنواع، كل نوع فيها أشهى وأحب وأنضج من الآخر؛ حتى إنك لا تريد الانقطاع عن هذا الطعام أو ذلك تأكل من كل الأصناف ولا تشعر بشبع أبداً.

حقيقة نراها، ونحن مع الأبناء وهم حولنا، ابني معناه أنا «كلي» بل إنما أريد به عسارة ما في من عطف ورحمة وأمل وشعور بأسعد السعادة وأجمل الجمال، ليس لحم ابني ولا دمه وعظمه إلاً هيكلاً لكل هذا، بل ليس إلاً رمزاً لهذه المعاني كلها معاً.

حقيقة إنه لا يختلف حب الوالدين لأبنائهم باختلافهم في الصفات من الجمال وفقده، والنجاسة والغباء، وحسن الأدب وسوء الخلق، والنشاط والكسل، والنجاح والخيبة، وغير ذلك من الصفات.. فالوالد لا يكاد يرى فيهم إلاً جميلاً، أو على الأقل إنه لا يكاد يلمح عيوبهم؛ لتغاضيه عنها، وأمله في زوالها.

لكن هناك أمور يجب أن يقوم بها الآباء تجاه أبنائهم؛ حتى تكون سعادتهم بهم كاملة، وحتى يقوموا بحقوق الأبناء عليهم قياماً تاماً.

لا تطلب من أبنائك حقوقك عليهم دون أن تؤدي أنت حقوقهم عليك، والحكمة تقول: «من أراد أن يكون أبناؤه بررة به فليساعدهم على أن يبروا به»، أي يفعل ما يحقق ذلك مع أبنائه.

وقد أمرنا الله تعالى بحسن تربية الأبناء، وأن نرعى حياتهم في كل الأحوال قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ...﴾ [النساء: ١١].

وقال ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين....».

وقال ﷺ: «أحبوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم فوفوا لهم».

وقال ﷺ: «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

هذا.... وعلى الوالدين أن يكونوا مثلاً صالحاً وأسوة طيبة لأولادهم.

أوجب الإسلام على الوالدين الاعتناء بالأبناء من ولادتهم، بل قبل ذلك في حسن اختيار الأمهات بالزواج من المرأة الصالحة.. اعتناء بالمولود منذ اللحظة الأولى في حياته؛ فقال رسول الله ﷺ: «من ولد له مولود فليؤذن في أذنه اليمنى بأذان الصلاة، وليقيم في أذنه اليسرى، فإنها عصمة من الشيطان» وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: «يا رسول الله ما حق ابني هذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تحسن اسمه وأدبه، وضعه موضعاً حسناً».

لهذا كله، فإن تعليم الطفل مبادئ الدين الإسلامي هو تعليم له كل مبادئ الأخلاق الكريمة، والسلوك القويم؛ فينشأ على الصراط المستقيم قدر ما يعطى له من سلوك وتعليم وتنشئة سليمة.

الآباء في قيم الإسلام مسؤولون مسؤولية كبرى عن الأبناء، في كل صور الحياة المادية والمعنوية.. فقد قال رسول الله ﷺ: «اتقوا

الله واعدلوا في أولادكم»، وقال: «سوا بين أولادكم في العطية»، وقال ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا».

الأبناء هم مصدر كل السعادة للآباء، ليس هناك شيء يسبق ذلك، حتى إن الآباء ليبذلون المال والوقت، ويتعرضون للخطر أحياناً في سبيل سلامة أبنائهم وتحقيق كل ما يمكن من حياة الرفاهية لهم، والسعي لأن يكونوا في أعلى المناصب وأرفع الدرجات، وأسعد الأوقات؛ لأنهم يرونهم حياتهم.. وبهم يتحقق ما لم يستطيعوا أن يحققوه هم.

آيات كثيرة في القرآن الكريم، وأحاديث كثيرة عن أشرف الخلق والمرسلين تحدد بوضوح هذه العاطفة السامية، وتضع لها معاييرها من الواجبات عليها.. والحقوق لها.. تحقيقاً لسموها، وتناسباً مع شعورها سواء في الجانب المادي أم المعنوي.

إن ديننا يأمرنا بالتعبير الصريح، والعمل الفعلي عن حب النبوة... فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: قَبِلَ النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «من لا يرحم لا يُرحم» ما أجملك يا حبيبي، يا رسول الله، وعسى ألا يكون بيننا أقرع أو حابس اليوم.. فلنجد بالعواطف جوداً غامراً، ولا نحبسها.



أبناءؤنا أكبادنا تمشى على الأرض

من قيمنا الرفيعة فيما يخص الأطفال وحقوقهم يجد المتأمل
لها حشداً من التعاليم ودستوراً كاملاً من التربية الروحية،
والنفسية والعقلية، والجسدية.

وأذكر أحد معلمينا كان يردد قولاً علينا حين كنا صفاراً،
ويطلب منا إسماعه لآبائنا وأمهاتنا:

ابن بلا تهذيب سوف يميل	غرس بلا إرواء ذاك ذبول
لله، للدين الحنيف أصول	علم بنيك الحب كل صفاته
علمه ترك السوء فهو خبول	علمه أخلاق الكمال كريمة
نسب إلينا حالهم وعقول	أبناءؤنا صور لنا وثمارنا
هذا ابن هذا تائه مهبول	هذا ابن هذا مثله في فضله

ثم ما أروع قصيدة الشاعر الكبير أحمد سليمان الأحمد
(بدوي الجبل) التي أهديتها إلى كل حفيد من أحفادي بحكم أنها
تعبر عن مشاعري تجاه أولادي وأحفادي، وكأنه عبر حقاً عما أريده
أنا قال في ثناياها معبراً عن مشاعره تجاه صغير له:

فداء له كنت السقيم المعذبا	وإن ناله سقم تمنيت أنني
بإيجازه دلاً أعاد وأسهباً	ويوجز فيما يشتهي وكأنه
سكبت له عيني وقلبي ليشرباً	كزغب القطا لو أنه راح صادياً
وأظماً في النعمى عليه وأسغباً	وأوثر أن يروى ويشبع ناعماً

إلى أن يقول ما تتمناه كل نفس، وما تسعد به كل روح:

ويارب من أجل الطفولة وحدها أفض بركات السلم شرقاً ومغرباً
وصن ضحكة الأطفال يارب إنها إذا غردت في موخش الرمل أعشبا
ويارب حب كل طفل فلا يرى وإن لح في الإعنات وجهاً مقطباً
وهيء له في كل قلب صباية وفي كل لقيا مرحباً ثم مرحباً

هذه تعبيرات صادقة تعبر عن تعاليم الإسلام، إذ أمرنا
الله تعالى بحسن تربية الأبناء ورعاية حياتهم، وحسن محبتهم،
قال ﷺ: «أحبوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم فوفوا لهم»
وقالوا: «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

ومن فرط الاهتمام بالطفولة في ديننا أنه أوصانا بحسن
اختيار الأمهات بالزواج من المرأة الصالحة.. وأن نعتني بالطفل
منذ اللحظة الأولى في حياته؛ فقد ورد في الأثر: «من ولد له مولود
فليؤذن في أذنه اليمنى بأذان الصلاة، وليُقم في أذنه اليسرى فإنها
عصمة من الشيطان»، وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول
الله، ما حق ابني هذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تحسن اسمه وأدبه
وضعه موضعاً حسناً».

عجباً اليوم لمن يهجرون أولادهم، ويتركونهم بلا رعاية ولا
إنفاق، وما أطفال الشوارع الذين أصبحوا يمثلون حالات كثيرة في
بعض الأوطان إلا من فعل الآباء الأخساء، كيف ذلك ألم يسمعوا
قول الشاعر:

وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

نعم.. هم أكبادنا.. وما غابوا عنا إلا شعرنا بنقص في نفوسنا
عن أحسن ما فيها حتى يعودوا إلينا.

ابني معناه أنا.. ولست أريد بـ«أنا» كُلِّي، بل إنما أريد به عصارة ما فيَّ من عطفٍ ورحمة وأملٍ وشعور بأسعد السعادة وأجمل الجمال. هذا ولدي الصغير يلعب بين يديّ، فسرعان ما أنسى سنِّي، وأطرح كل همِّي، بل سرعان ما أخرج عن نفسي، فلا أراني إلا وقد رددتُ طفلاً يتمثل في خلقه، فأنا الذي يلعب ويعبث حتي إذا تعرض لمكروه في بعض جريه وعبثه عدت إلى نفسي، وسارعت لكف المكروه عنه، ثم رددت من فوري لما كنت فيه.

لقد جاء عن أعظم العظماء في هذا العالم أنهم قد اتخذوا من أنفسهم مطايا لصغارهم، فأركبهم ظهورهم، وهم لا يرون في هذا بأساً، ولا يجدون فيه حرجاً؛ وما ذلك إلا لأنهم عجزوا عن إرجاع أكبادهم إلى مواضعها بين ضلوعهم، سواء عليهم أو وضعوها على الصدور أو على الظهر.

ما أعظم تعاليم ديننا، فها هو رسولنا ﷺ يعلمنا نموذجاً في حب الصغار؛ فقد كان الحسن والحسين رضي الله عنهما صغيران في بعض المرات يركبان على ظهره وهو ساجد، فيطيل السجود حباً لهما وعدم إزعاجهما بالنزول.

هذه هي قيم الرحمة والحب والمودة لكل الكائنات وفي مقدمتها أطفالنا الصغار.. أجدني مشدوداً إلى هذه القيم الرفيعة.. ليتنا نعيها جميعاً، ونعمل بها، وتكون نبزاً في حياتنا.



صلة الرحم

الرحم بين الناس بمنزلة الخيط الذي يضم الحبات المتفرقة، فيتكون منها عقد واحد له اسم واحد، ووجود واحد، وقوة واحدة، ذلك الاسم لذلك العقد هو الأسرة، ومن الأسرة يتكون المجتمع، وكلما كانت الأسرة متماسكة أفرادها، مترابطة قلوبها، متبادلة عواطفها متحدة في الشعور بحاجات أفرادها كان المجتمع كذلك متماسكاً متضامناً، مصلحة الفرد فيه من مصلحة الجماعة، ومصلحة الجماعة من مصلحة الفرد، لا يعرف الانحلال ولا التخاذل ولا التواكل، وبذلك يحيا المجتمع حياة قوية مستمدة من نفسه وشعوره الجمعي، وبحسبه ذلك عزة وسعادة.

وإذا كان الإحسان مطلوباً بين الناس عامة قياماً بحق الإنسانية المشترك ومطلوباً بين المسلمين على وجه خاص، وبين أبناء الوطن على وجه أخص قياماً بحق الأخوة الدينية، فإنه بين الأقارب والأرحام مطلوب على نحو أزم قياماً بحق صلة الرحم التي هي محل عناية عظيمة في الوصايا الإلهية وفي الهدى النبوي الكريم ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وصلة الأرحام واجبة على المسلم قبل صلته بغيرهم من الناس؛ فالرسول الأعظم ﷺ يقول: «والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وعنده قرابة محتاجون لصدقته، ويصرفها إلى غيرهم، والذي نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة».

كم هو عظيم هذا الموقف الذي يصوره الحديث النبوي الشريف للأرحام في قوله: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائد بك من القطيعة، قال: نعم... أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك». ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾» [محمد: ٢٢].

الصلة من الوصل، والرحم من الرحمة.. والرحمة من الرحمن الرحيم.

إن الحياة قد تطورت، وسبل الاتصال قد تيسرت، وليست هناك حجة لأحد في قطع صلته بأهله وأسرته والأرحام مهما كان محل إقامتهم.. إن صلة الرحم في صورها الواجبة تحقق للإنسان سعادة شاملة، وراحة نفسية عميقة، وكيف لا يفعل الإنسان ذلك دائماً بهم وهم الزوار عند الراحة، وهم المشاركون في الأفراح وسعيد المناسبات، وهم الحاملون عنه الهم والحزن في الشدائد وعند الأمراض، وهم العون والعطاء عند الحاجة، وعند الأزمات.

صلة الرحم ليست بادية فقط عندما يكون الإنسان معوزاً أو عندما يكون مريضاً، بل إن وثوقها درع ضد كل الشرور، يساند أحدهم ضد كل عدوان آخر فردي أو جماعي.

ولصلة الرحم صور كثيرة مادية ومعنوية، أسرية واجتماعية تغطي كل الأوقات وتملاً كامل الحياة... فبعد صلة الرحم الأسرية

القريبة تجيء صلة الرحم العائلية من الإخوان والأعمام والأخوال، هم في رتبة الرحم بارزون مقدمون في كل مناسبة لهم حق الصلة.. ووجوب السؤال عنهم، لهم حق زيارتهم، وإهداؤهم ما أمكن، فإن عطاء صلة الأرحام بركة عظيمة.. توسع في الرزق، وتطيل في العمر، وذلك مؤكد في قول الحبيب المصطفى ﷺ: «من أحب أن يبسط الله له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»، وقال ﷺ: «أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة: البغي وقطيعة الرحم».

ما أعظم الفوز برضا الله في الدنيا ورضاه وحسن ثوابه في الآخرة من ثمرة صلة الأرحام.. الاتصال بالأقارب واجب كلما كان هناك أمر يحتاج إلى الاطمئنان عليهم ومشاركتهم البأساء والضراء أكبر قدراً وأعظم موقفاً وثواباً من الرحمن الرحيم، وذلك لأن صلة الأرحام واجب حتمي حتى لو كان فيهم من لا يصلك، فليكن الناس جميعاً البادئين بالصلة، الواصلين من قطعهم، الجامعين للتفرقة دون نظر لمن أساء من بعض الأرحام إليهم، وها هو الحبيب المصطفى ﷺ يفصل لنا ذلك في الحديث الذي يتحدث عن رجل قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك»، والملّ هو الرماد الحار.

إن الواجب دينياً هو توثيق الصلة بالأرحام، وتجديدها إن كان هناك انقطاع.. وبهذا يتجود الإنسان بصلته القوية بأرحامه من عذاب الله.

ويوصل المرء لأرحامه يكون قد وصل نفسه بربه، وبقطعه
لأرحامه يكون قد قطع علاقته بالله، واستحق غضب الله عليه،
إن قطيعة الرحم مرتبطة بالفساد في الأرض، ولا يريد أحد من
الأسوياء أن يكون مفسداً.



المال مال الله

المال في حقيقة تعاليم ديننا يجمع بين أمرين: زينة وفتنة.. زينة لمن أحسن استعماله، وقبل ذلك طريقة كسبه، وفتنة لمن ناله عن طريق غير مشروع في ابتزازه للآخرين، أو سرقة بأي صورة من صور السرقة والاستغلال، وما أكثرها!

ومما يتصل بأحكام المال تحريم الربا الذي هو أبشع صور الابتزاز للمحتاجين وذوي الضيق في حياتهم، وفي الوقت نفسه هو تجميد للحركة المالية التجارية، وركون صاحبه للدعة مكتفياً بأرباحه الباهظة من الربا.

صاحب المال في قيمنا عليه واجبات كثيرة.. في مقدمتها زكاة المال التي هي ركن ثابت من أركان الإسلام ولا يكتمل ولا يصح إسلام المرء إلا بإخراج الزكاة إذا كان عنده نصاب من المال يستحق الزكاة عنه.

وقد علمنا رسولنا ﷺ أنه لا إيمان لصاحب المال والجدة أن يبيت شعبان وجاره جائع تكافل اجتماعي رائع..

ويكون جمع المال حلالاً طيباً حين لا ظلم ولا غش فيه، لهذا حرم الله الربا والقمار والاحتكار، والنصب، والسرقة، وما أشبهها؛ لأنها كلها ظلم، وحرم التغرير، والربح الفاحش، وإخفاء العيب في السلعة، وغير ذلك من البيوع المحرمة؛ لأنها كلها غش، وتقيد قيمنا طريق الحصول على المال بالألأ يأتي عن طرق منافية للشرع والآداب تنفي عنه صفة الحلال.

المال الحلال مال الله، جعله في يد الإنسان مؤتمناً عليه؛ ليستعمله في منفعته ومنفعة الناس من حوله، وسخره ليكون خادماً مذلاً للإنسان ومن معه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، ﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

الإنسان في قيمنا مؤتمن على المال الخاص والعام من كسبه الحلال.. فلا يجوز له أن يجور على الناس ليملاً خزانة الدولة، ولا يجور على الدولة ليملاً جيوب الناس.. بل القسط والعدل واجب، بحيث لا يظلم أحداً، ولا يأخذ أحد من المال العام دون حق.

ولا يجوز للإنسان أن ييخل على نفسه وأولاده، فيحرمهم من لوازم الحياة التي في قدرته توفيرها لهم.. ولا يجوز للمسلم أن يسرف في الإنفاق، فيبدد المال في الملهيات، قال تعالى تنظيماً لذلك: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ذلك لأن التبذير والترف محل نقمة الإسلام وكرهه؛ لما ينشأ عن ذلك من تفاوت بين طبقات المجتمع تفاوتاً يثير الكراهية والحقده في نفوس الذين لا يجدون سعة من المال ينفقون ويتنعمون، ولما ينشأ عن ذلك الإسراف الممقوت من فساد أخلاق المترفين، وإشاعة الفاحشة في المجتمع.

لهذا قرر الإسلام الحجر على السفهية؛ حماية للمجتمع من أضرار السفهاء، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي

جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴿٥﴾ [النساء: ٥]، والدولة في سبيل ذلك تصون أموال الصبيان والمعوقين من الإهدار والضياع.

وللدولة حق في المال... فإذا احتاجت الدولة إلى أموال كتجهيز جيشها والإنفاق على وسائل الدفاع عن الوطن والمصالح العامة كان لها أن تأخذ من أموال الناس ما تحتاج إليه، شريطة أن ينفق في موضعه، وأن يكون على قدر الحاجة. وما تأخذه الدولة من الأغنياء والقادرين ليس قرضاً يلزم ردّه إليهم، بل هو حق للدولة؛ لأنها هي التي تقوم بتنسيق أوجه الحياة والمرافق في سائر البلاد... عملاً على راحة الناس وتسهيل حياتهم.

وتجب الإشارة إلى ضرورة الصدق في إخراج الزكاة، وعدم الإنقاص في بيانات مقدار الأموال والأصول التي تجب فيها، فيعدّ سارقاً من أخفى شيئاً من حقيقة ما يجب في القيام بأداء هذا الركن الإسلامي العظيم.

ويأتي الإنفاق على المشروعات العامة، وأعمال الخير التي لا ربح مقصوداً منها: كبناء المستشفيات، وملاجئ الأيتام، ودور العناية بالكبار، والمعوقين من أنبل صور استعمال المال للخير العام، وجزاء هذا المال الحلال إذا أنفق في أوجه الخير خالصة لوجه الله، فلمن فعل ذلك من الموسرين مخلصاً صادقاً أجر عظيم عند رب العالمين: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

وهذه هي قمة الأرباح المالية في الإسلام، ليس كمثلها أرباح في أي عمل آخر.

ليت أصحاب المال من المسلمين يدركون هذه الحقائق السامية، والقيم الإيمانية الرفيعة، ولا يكذبون صفو الحياة الدنيا ونعيم الآخرة بقليل من كسب غير مشروع وإمساك لمال لا ينفع عند لقاء الله تعالى.

وفي قيمنا أنه لا فضل لغني على فقير إلا بمقدار العمل الذي يقرب صاحبه من الله.

فالجميع سواء أمام الله وأمام المجتمع المسلم في الحقوق والواجبات، وفي هذا قال أبو ماضي:

قل للغني المستعز بماله: مهلاً لقد أسرفت في الخيلاء
خلق الفقير أخوك من ماء وطنين وخلقت من طين وماء



العمل قرين الإيمان

العمل، والكدح، والجد، والمثابرة، والإتقان قيم رفيعة يحثنا إسلامنا على التحلي بها، فلا تراخي ولا إهمال ولا تسبب؛ فالمجتمع المسلم حريٌّ به أن يكون مثل خلية النحل، فكما أن كل نحلة في الخلية تقوم بعمل لتحافظ على حياتها وحياة كل من معها في الخلية كامتصاص الرحيق، أو الحراسة، أو بناء المسكن، كذلك المجتمع على كل فرد فيه أن يقوم بعمل، فهذا زارع، وذاك صانع، وغيرهما مهندس، أو معلم أو طبيب أو رجل أعمال.. وكثيرة هي المهن، والوظائف، والحرف والأعمال التي لا بد منها للمجتمع.

بل إن من التعاليم السامية في قيمنا أن المهن والحرف باختلافها فرض كفاية على المجتمع إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، أي أن يكون لكل عمل وحرفة من يؤديها في المجتمع؛ بحيث لا يتلفت الناس، ولا يجدون من يقوم بالمهمة من بينهم؛ إذ إن حياة المجتمع في حاجة إلى تنوع الأعمال، فإن قام كل بعمله على خير وجه قوي بناء الوطن، وتقدم المجتمع، وعلا شأنه؛ والأضعف وتخاذلت صور الحياة فيه.

إن ثروة المجتمع تأتي من ثروات أفراده بكدهم وعملهم الجاد، ولو قلَّ العمل وضعف الإنتاج، وأهمل الفرد عمله أو تهاون فيه، فإن ذلك تعطيل لخير المجموع وتعويق لمسيرة التقدم فيه، وإذا كثر العاطلون ضعف الإنتاج، وانتشر الفقر وشاعت الجريمة، وتعرضت حياة المجتمع للفوضى، والاضطراب، والخطر.

وإذا كانت قيمنا تحتنا على العلم، وتشجع على الابتكار، فإن ذلك من أجل تمكين أفراد المجتمع من القيام بكامل واجبهم في عملهم الذي يتواءم وقدراتهم واستعداداتهم وأخذهم بكل جديد ونافع في أداء الأعمال التي يقومون بها.

ومن أوضح الأدلة على شرف العمل ووجوبه ما وجه به رسولنا الأعظم ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمله» بل إنه ﷺ ضرب مثلاً للإنسان المسلم العامل الكادح، حين قال لأصحابه يوماً: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقالوا له: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا رعيته لأهل مكة بالقراريط». (وتعني القراريط الأجر)، وروى جابر رضي الله عنه كنا مع النبي ﷺ نجني الكباش على وزن سحاب ما نضج من ثمر الأراك، والأراك شجر يتخذ من عيدانه السواك) فقال ﷺ: «عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه، فإني كنت أجنيه إذ كنت أرى الغنم».

وقد رعى نبينا ﷺ الغنم حتى بلغ الثانية عشرة من عمره، حيث أتيح له مزاولة التجارة، إذ سافر مع عمه لهذا الغرض، ثم اتَّجر في مال خديجة رضي الله عنها.

إنها أعمال شريفة تأتي بكبح كامل وعود على صاحبها برزق حلال طيب، فلا يجب أن يتأفف أحد منا من أي عمل يسند إليه أو يعيش من رزقه فيه ورزق من يعول.

ويشترط في صحة العمل وقبوله الإتيان وتمام الأداء، اقتداءً بالمأثور: «رحم الله امرأً عمل عملاً فأتقنه»، والإتيان وحسن

الأداء، والإخلاص فيه من خصال الإيمان التي لا يكون الرزق حلالاً إلاّ بها..

ومن القيم الرفيعة الواجبة في أداء العمل عدم التسويف فيه، واستهلاك زمن طويل في إنجاز ما يوكل إلى الإنسان، قال أحد علمائنا حاثاً مخاطباً لأحدهم: «إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غده لك فكن في غدٍّ، كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غدٌّ لم تتدم على ما فرطت في اليوم» وآخر من السلف الصالح قال ضمن منظومة طويلة:

ولا ترجي فعل اليوم إلى غدٍّ لعل غداً يأتي وأنت فقيد
فيومك إن أحسنته عاد نفعه عليك وماضي الأمل ليس يعود

ويردد أسلافنا مقولة: إن (سوف) من جند إبليس، فاحذروا سوف...

إنه إذا كان العمل الجاد المتقن واجباً في كل الأزمنة، فإننا في زمننا لا نستطيع أن نصمد، ونواجه التحديات المعاصرة ومنافسة الأمم الراقية المتقدمة إلاّ بالعمل الدؤوب الذي يرفعنا إلى مستواهم.

إنه لا مجال للخمول والدعة، وعلى شبابنا العمل الجاد، إذ هو من صفات الأحياء فالمتوت لا يعملون والعمل غنيمة، والحياة فرصة إذا مضت لا تعود وموقع كل فرد منا في مجتمعه مثل موقع الفرد في أسرته، فلا يمكن أن يرى الإنسان أفراد أسرته يعملون وهو قابع مستكين، ولنتذكر دائماً الأثر الشريف: «لئن يحتطب أحدكم ويأكل من عمل يده خير من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»، والعامل خير من العابد الناسك القابع في مسجده؛ فالعمل في عقيدتنا عبادة.

إن سلسلة أحاديثي عن القيم الرفيعة كما هي في تعاليم ديننا يعود إلى ما يلحظه الناس من تهاون بعضهم في التمسك بها، والتحلي بآدابها، والالتزام بشروطها وتطبيق ما جاء فيها في سائر أوجه حياتنا، وأجزم أنه بالتحلي بهذه القيم يعيش مجتمعنا في رغد وسلام، وازدهار، ومنافسة شريفة للأمم الأخرى.



وأخيراً..

سمو قيمنا فوق كل ما جاءت به القوانين

من الحقائق التي لا يماري فيها كل سليم تلك الحقيقة التي تؤكد أن القيم التي جاء بها الإسلام هي قيم ثابتة وسامية، صالحة لكل زمان ومكان.. لكل ألوان البشر في كل البلاد.. لم يثبت يوماً وجود خلل فيها، أو تناقض بين أصولها، أو سوء حال عند من تمسكوا بها.

لم ولن تتغير قيمنا السماوية أبداً.. بل لم يذكر في صحيح الكتب السماوية قبل بزوغ فجر الإسلام يفاير ما جاء به الإسلام عنها، بل إن الإسلام جاء مكماً لأسمى القيم والأخلاق.

من القيم العظمى.. من الأخلاق العليا.. طهارة الإنسان، وحفاظه على جنسه وتمسكه بعفته ذكراً كان أم أنثى، فكل منهما سلوك، وكرامة، ورسالة جامعة.

ما أعظم الفرق بين سمو قيمنا المنبثقة من ديننا وتلك الأعراف المنبثقة من الدساتير الوضعية.

وإني لشديد العجب من هؤلاء الذين يرون منطلقاً سليماً في كل ما يدعو له العلمانيون، ويمارسونه من أفعال وسلوكيات من منطلق الحرية التي لا حدود لها عندهم، وهذا لا ينفي وجود بعض الممارسات عندهم التي تتفق مع قيمنا.

ولا يظنن أحد أن كل نهج وممارسة عند الآخرين من غير أهل ديننا أنه هو الصواب كله.

قيمنا الإسلامية قيم ليست قابلة للشك أو الجدل، فهي أوامر إلهية، وفي الانصياع لها صلاح لنا، وسلامة لأرواحنا وأجسادنا.

كل قيمة ندعو للتمسك بها مردّها أوامر الله التي جاءت في القرآن الكريم، أو أرشدنا إليها رسولنا الصادق الأمين.

إن بعض الآخرين من غير أهل ديننا يسندون ممارساتهم إلى مواد تنص عليها دساتيرهم وقوانينهم التي صاغوها، ثم هم بعد ذلك يختلفون فيما بينهم في تفسير بعض نصوصها وحدودها، كل يفسرها حسبما يريد، وفي حدود ما يراه محققاً لرغباته.

من ذلك مثلاً مفهوم الحرية التي فسرّها ومارسها بعضهم إلى حد يخرج بها عن المألوف والمقبول المستساغ، ويخالف كل ذوق إنساني، وأدب أخلاقي، ومن فطّيع الأمثلة على ذلك أن خرجت إحدى المعلمات الجامعيات في إحدى الدول الغربية على طلابها عارية إلا من قطعة قماش صغيرة لا تستر حتى عورتها، اضطرت هي لوضعها تنفيذاً لمادة في قانون الحريات تنص على أن الإنسان لا بد أن يضع شيئاً من القماش أو غيره على جزء من جسمه دون تحديد هذا الجزء، ولا حجم هذا الشيء، ولو خرج إنسان عارياً إلا من جورب في قدميه لأصبح بهذا ملتزماً بالقانون، ولا يؤاخذ أحد على ذلك، وما جاءت به هذه المعلمة العارية كان قصداً منها إثبات المعنى الواسع لمفهوم الحرية عندهم.

ولقد حفزني إلى هذا الحديث معكم متابعتي لجدل طويل وحاد في إحدى بلاد الغرب حول معاملة الشواذ من الذكور والإناث الذين يرتبطون بمثليهم «ذكر مع ذكر وأنثى مع أنثى» إذ سبق لبرلمان تلك المقاطعة منذ سنوات عدة أن شرع للمثليين ومنحهما المزايا الممنوحة للزوجين العاديين، من حيث احتساب الضرائب وغيرها وسمح لهما بإقامة حفلات زفاف وعرس زواج، ولهذا كانوا بهذا يخرجون على الملأ متعانقين، يقبل أحدهما الآخر، أو تقبل أحدهما الأخرى، وتحضنها في شغف وإثارة.

وبعد استمرار ممارسة بنود هذا القانون تقدم جمع من المواطنين هناك باقتراح بطرح هذا القانون الذي استمرت ممارسته سنوات في استفتاء عام على أهل تلك المقاطعة، وهل يستمر العمل به أم يوقف، ثم سبقت الاستفتاء حملات دعائية لمؤيدي هذا القانون، وأخرى ضده، وجاءت نتيجة الاستفتاء بأكثرية ترى وقف العمل به، فكان هذا مفرحاً لمن يرون فساد هذا القانون، ومحزناً لمن يرون أنه قانون لا غبار عليه، ويجب الاستمرار في العمل به، وطعنوا في قانونية الاستفتاء، فعرض الطعن على محكمة دستورية لتقرر هل رفض الأغلبية من الناخبين لهذا القانون دستورية أم مخالفة للدستور.

ويا للعجب! خرج قرار قاضي المحكمة بأنه لا حق للأغلبية التي صوتت ضد هذا القانون أن يعترضوا؛ لأن الدستور ينص في أبرز موادده على حرية الأشخاص في أن يختاروا نهجهم في الحياة، وأن على الدولة أن تحمي وتحترم رغبات الناس مهما كانت توجهاتهم.

واستمعوا إلى ما هو أشنع في هذه القضية من وجهة نظري وهو أن القاضي نفسه شاذ جنسياً ومعروف عنه ذلك ومشهور به وهو معترف به.

انظروا إلى هذه السلوكيات المختلة، قاضٍ شاذ جنسياً، ويعرف عنه ذلك قبل تعيينه، لكن ذلك في نظامهم قضية شخصية لا تؤثر في الشخص ما دام مؤهلاً علمياً لتلك الوظيفة، وجاء في حيثيات قرار ذلك القاضي أن الزواج قد عُرف (بأنه ارتباط بين شخصين ومعاشرتهما لبعضهما، وسكناهما في منزل واحد) ولم يحدد القانون نوع الشخصين.

هذه سلوكيات بعض الشعوب!! وتلك قيمنا العليا السامية السماوية، فتمسكوا بها وركزوا عليها في الخطب، والوعظ، والدروس، والحوار مع الآخرين من غير ديننا.

ولنتذكر جميعاً أن التربويين يقررون أن (أفضل وسيلة لتشرّب المتعلم ما نعلمه إياه يكمن في ممارستنا لما نعلمه له).

الله.. الله أن يخترق أحد أسوار قيمنا، أو يفري بخادع حيله صغار أبنائنا.



الخاتمة

خير ما أختتم به هذه الأفكار، والأحاديث عن القيم الإسلامية السامية التي أدعو ألاّ تذبل.. هو هذه الكلمة الحكيمة للإمام ابن تيمية قال رحمه الله: «إن الإسلام يدور كله حول أمرين: الإخلاص للحق، ورحمة الخلق» وقد علّق على هذا القول الشيخ صالح الحصين في أحد لقاءاتنا، قائلاً: ألا ترى أن هذا المعنى يجب ألاّ يغيب أي لحظة عن وعي أي عامل في أي مجال من مجالات الحياة العامة.

ولقد تأملت في كلام شيخ الإسلام، فوجدته غاية في الحكمة؛ فحقيقة أن قوام الأمر هو الإخلاص، وأهميته غنية عن البيان، والإخلاص قد يكون لباطل أو لخطأ، فقيده رحمه الله بالحق، وأما الرحمة فهي مطلقة لعموم الخلق.

وإني لأرى مع طول تجاربي في الحياة أن مقولة ابن تيمية قد جاءت في مكانها وأحق الناس بالعمل بموجبها هم هؤلاء الذين يتصدون للدعوة، والتربية والتعليم والأمور بالمعروف والناهون عن المنكر.

إن قيم ديننا العظيم قيم على جانب كبير من الأهمية على صعيد الفرد وصعيد المجتمع، خصوصاً في أوقاتنا المعاصرة، التي تدعو الحاجة فيها إلى مزيد من التعاون والتماسك والتحاب.. سجلتها لأذكّر بها نفسي وإخواني، وأنا على علم بأن هناك قيماً أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه تأتي منها قيم: المروءة، الوفاء،

الشهامة، وغير ذلك من سامي القيم الإسلامية الإيمانية العظيمة، التي قد يتضمنها إصدار آخر إن شاء الله.

إني شديد الإيمان بأن على المرء ألا يأمر بشيء إلا وهو يقوم به مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

ومع ذلك، فلا أدعي لنفسى العصمة، ولا لأخلاقى المثالية، لكن ما ذكرته في هذا الإصدار من قيم وغيرها مما لم أذكره هو نبراس وهدف أسعى للوصول إليه، فلم أفلح أحياناً، وأقصر في أحيان أخرى، لكن ما قصرت فيه أحياناً يخز ضميري، ويتحرك في ذاتي، فأعود إلى إحيائه في نفسي وعملي ما استطعت، مطمئناً إلى أن هذا هو حالي وحالك أيها القارئ الكريم.

فمعماً على الصراط المستقيم ما استطعنا. إني لأقرر أن هناك قيماً كثيرة عظيمة نحن في أشد الحاجة إلى التذكير بها، وقد تسنح لي الفرصة أن أعود إليها، وأستأنف الحديث عنها.

وكم كنت أرجو أن تكون هذه القيم هي محور أحاديث الوعاظ وخطباء المساجد وأن تكون هي لب المناهج التعليمية، خاصة في مواد التربية الإسلامية.

وليتهم أطاعوني، حينما ناديت بذلك؛ لكنهم اعترضوا جاهلين، وليت البرامج الإذاعية المسموعة والمرئية تُعطي هذه القيم ما تستحقه من العناية والوقت بدلاً من التركيز على أمور فقهيّة ثانوية معروفة.

وفي متابعتي لهذه البرامج في رمضان مثلاً وجدت أهل الإفتاء،
والوعاظ يطيلون أحاديثهم في أمور معروفة مكررة للجميع.

من ذا الذي لا يعرف مبطلات الصيام، وفوائد التبكير
بالإفطار، والتأخير في السحور، وفضل صلاة الجماعة والتراويح،
وحكم زكاة الفطر، وما إليه من أمور دينية واضحة.

وفي موسم الحج وعيد الأضحى.. ما أكثر الحديث المكرر
 والمعروف عن مناسك الحج وسنن الإحرام ومبطلاته، وفضل صيام
يوم عرفه لمن ليس حاجاً، ووصف الأضاحي، وغير ذلك من كثير
الأحاديث في هذا الشأن.

لا اعتراض لي على ذلك، فهو إعادة تذكير لمن يكون قد
نسي شيئاً، أو تعريف لمن لا يعرف، لكن في هذه المواقف الكريمة
التي يصفي الناس فيها إلى النصائح والتوجيهات الدينية القيمة
أقول: فلنعتد قيمنا العظمى التي تميزنا عن غيرنا حقها من
الحديث والدعوة إلى التمسك بها، والتحلي بآدابها في هذه المواقف
والمناسبات الجميلة فهي أجدر بذلك.

نعم، نريد أن نقدم قضايا ديننا الكبرى التي تشغل العالم
اليوم؛ ليعرف كل أهل الأرض ما في ديننا من أمور عظيمة تصلح
لإصلاح الكون كله، ويجدون رداً على كل ما ينتابهم من مزاعم
يلفقها أعداء الإسلام وتشويه لقيمه الإنسانية العالية، تلك القيم
التي دخل الناس بموجبها وإعجاباً بها في دين الله أفواجاً.

ديننا هو السلام بكل معايير السلام، حتى إنه سُمي دين الإسلام وهو دين الأمن والأمان، فسُمي لذلك الإيمان واليقين في كل جوانب الدين، إن السلام والأمان هما قضية العالم اليوم، وليت العالم يعود في ذلك إلى الإسلام، فيه يتحقق الأمان.

لقد أشرت هنا وفيما سبق أن كتبتُ عنه من قيم عظيمة هي من مقومات عقيدتنا؛ لشعوري بأنها يغشاها الغبش الآن عند بعض الناس، فلا يعون حقيقتها، ولا يشعرون بقيمتها، بل هم يجهلون كيفية التحلي بهذه القيم وسبيل أدائها.

وأقرر أنني فيما كتبتُه لا أعمم القول، أو الوصف بغير هذه القيم للناس جميعاً لكنه توجه مني أريد به أن يتحلى كل الناس بهذه القيم على حقيقتها، وأن يولها عنايتهم عملاً، وشرحاً، ونشراً في المجتمع، في كل الوسائل المتاحة.. ويكونوا هم قدوة لغيرهم.

